الإسلام ودعوة الإحياء

جمال البنا

الإسلام

كما تقدمه دعوة الإحياء الإسلامى

جمال البنا

هذا الكتاب

يعرض هذا الكتاب رؤية جديدة للإسلام تقدمها دعـوة جديدة على الساحة هى دعوة الإحياء الإسلامى التـى تريـد بعث الإسلام من جديد، كما جاء من ا   ونزل على الرسول، مستعينة فى ذلك بكل ثقافات العصر لأنها تؤمن أن الإسـلام دين منفتح، وأن الحكمة من مصادر الإسلام، وأنهـا طُلبـة السلم ينشدها آتى وجدها.

ويضم الكتاب ثلاثة أبواب:

الباب الأول عن خصائص ومكونات الإسلام فيتحـدث عما أورثته الصحراء الإسلام مـن خصـائص كالبسـاطة والحرية والمساواة فدعمت بذلك دعوته نحو هذه كلها.. أمـا مكونات الإسلام فإنها عقيدة وشريعة وتحدث عن كل نقطـة منها بطريقة جديدة، وبوجه خاص فى الشريعة التى يرى إنها كل العلاقات الدنيوية، وأن كل أحكام الشريعة إنمـا سـنت لحكمة، فإذا استبعد التطور هذه الحكمة كما هو الحـال فـى الفىء والغنائم والرق والجزية سقطت كل الأحكام التى سنت من أجلها، وإذا تطلب التطور تعديلاً يحقق العدل – الذى هو هدف الشريعة – فإن أحكام الشريعة حتى لو نصـت عليهـا

آيات من القرآن أو أحاديث عن الرسول تعدل بما يتفق مـع العدالة، وهذا هو سر اجتهادات عمر بن الخطاب المشهورة. وما لا يعد انتهاكا للنصوص، ولكن إعادتها إلى أصلها الذى من أجله سنت.

يعالج الباب الثانى مرجعيات الإسـلام وهـو يسـتبعد مرجعية دخيلة وإن كانت هى المطبقة إلا وهى فقه ومذاهب الأسلاف من محدثين أو مفسرين أو فقهاء..

ويتمسك الكتاب بالسنة بل هو يرى إنها ليسـت أرثـاً للمسلمين وحدهم، ولكن للبشرية كافة، ولا يمكن للمسلمين أن يتصرفوا فيها تصرف المالك فيما يرث، وهو يضيف إليها ما علمه الرسول من دروس وحكم للتعـايش ولتحقيـق ثـورة الإسلام ولتربية أمة الإسلام شعبا وقيـادة. ولكـن الكتـاب يتمسك بضبط السنة بمعايير القرآن حسما لما دس فيها.

ويتحدث الباب عن الحكمة التى قرنها القرآن بالكتـاب وأدرجها فيما يعلمه الرسول. والحكمة فى نظره هـى كـل السليم من الثقافات والحضارات "ولو فى الصين".

يعالج الباب الثالث "الإسلام وتحديات العصر" فيعـرض موقف الإسلام من بعض هذه التحديات خاصة التـى أخـذ

الغرب فهما مغلوطا لها فيتحدث عن حقوق الإنسان ويشـير فى فصل آخر إلى العلمانية والتعددية والموقف مـن الآخـر والحكم بـين الديمقراطيـة والشـورى، وأخيـراً "الجهـاد والإرهاب".

وقد أختار مركز بن خلدون هذا الكتاب ليكون طليعـة لمشروعة فى دعم حركة الإصلاح السياسى ونشر كتابـات المجددين وترجمتها إلى اللغات الحية وعبر عن تقديره بكلمة تحت عنوان "فقه الإصلاح الـدينى" جـاءت بعـد المقدمـة مباشرة.

باسم الله الذي
لا نعبد أحداً سواه

مُقَدِّمَةٌ

– ١ –

يعرض هذا الكتاب رؤية دعوة الإحيـاء الإسـلامى[١] للإسلام، وهى رؤية تختلف عـن الرؤيـة المقـررة التـى تعرضها المؤسسة الدينية، أو التى يعرضـها المستشـرقون والفكر الغربى الذى اعتمد فى دراسته إما على مـا تقدمـه المؤسسة الدينية ومراجعها التراثية أو على الأحوال الواقعـة للمسلمين. وهذه – فيما ترى دعـوة الإحيـاء الإسـلامى – مرجعيات طارئة ليست من صميم الإسلام ولا تـدخل فـى المرجعيات الأصيلة التى هى القرآن والصـحيح المنضـبط بالقرآن من السنة، وما تقضى به الحكمة.

وهذه الرؤية هى ثمرة تفكير متصل فى فهـم الإسـلام عبر عنه داعيتها عندما وضع كتابه "ديمقراطية جديدة" الذى

---

(١) دعوة الإحياء الإسلامى رؤية جديدة للإسلام، وهى لا تسعى لتكوين هيئة أو مؤسسة أو جمعية وهى بعيدة عن كافة الانتماءات السياسية ولكنها بوصفها دعوة تقوم بتعريف الناس بها، ويكون كل مؤمن بها صاحب حق فيها.

صدر سنة ١٩٤٦ وأدرج فيه فصلاً بعنوان "فهم جديد للدين" وجه فيه الحديث للإخوان المسلمين الذين كانوا قد وصلوا للأوج وقتئذ "لا تؤمنوا بالإيمان. بل آمنوا بالإنسان" وعرض فيه – فيما عرض – فكرة الإمام الطوفى من فقهاء القرن الثامن الهجرى عن المصلحة. وأنها المقصد الأسمى للشارع، فإذا تعارض نص مع المصلحة أخذنا بالمصلحة وأولنا النص..

وهذا يعطينا فكرة عن أن "تجديد فهم الإسلام" لم يكن أمراً جديداً أو طارئا أو كرد فعل للتطورات الأخيرة. لقد كان هما قديماً استأثر بأعظم عناية وتقدير لأن المقوم الإسلامى هو أكبر مقومات الأمة العربية بعامة والامة المصرية خاصة. كما إنها تثبت أن مفتاح دعوة الإحياء الإسلامى هو "الإنسان" وأن إغفال الإنسان كان النقص الأكبر فى الفكر الإسلامى التقليدى، وفى الدعوات الإسلامية المعاصرة.

وقد ولد صاحب هذه الفكرة فى مهد الدعوة الإسلامية فألم بها وتفهم روحها وأدبياتها ونفسيتها الخ... وكان قريباً جداً من رئيسها الأعلى ولكنه لم ينضم إلى "الإخوان المسلمين" ولا إلى غيرها لأن مطالعاته منذ نشأته فى الأدب

الأوربى والحضارة الحديثة والـنظم السياسـية والحركـات الإصلاحية والشعبية خاصة النسائية والعمالية. كانت روافـد صبت فى فكره الإسلامى وأبعدته عن التقوقع التراثى. ولمـا كان من أيامه الأولى استبعد أن يكون مستقبله "بورجوازيـا" كأن يكون ضابطا أو محاميا أو مهندسـاً. وأراد لنفسـه أن يكون كاتباً ومؤلفاً فأنه لم يخضع فى حياته لأساليب التطويع والضبط والتقولب أو الالتزام بمنصب أو وظيفة أو ولاء فلم تقف هذه المؤثرات فى سبيله أو تعوقه وهو يعمـق الجـذر الإنسانى/ الحضارى فى الإسلام.

وهذه الإشارة العابرة هى لإعطـاء القـارئ لمحـة سريعة عن النشأة الأولى للفكرة التى سلكت طريقـاً طـويلاً عبر خمسين عاماً حتى استكشفت القيمة الحضارية للأديـان باعتبارها ثورات تحرير لا تقوم علـى السـيف ولا تسـلك العنف ولكن تعتمد على الكلمة، على الإيمان، على القيم التى تضمنتها الكتب المقدسة، وكان الأنبياء هم النموذج لما يكون عليه القادة من حكمة، ورحمة ومساواة، وبعد عـن الزهـو والغرور، وظهرت هذه على أفضلها فى الإسلام.

وتوصلت دعوة الإحياء الإسـلامى إلـى أن "الإنسـان الإسلامى"، إذا جاز التعبير، ليس هو الإنسان المؤلـه فـى الحضارة اليونانية – الرومانية – والأوروبية حديثا، ولا هو الإنسان الاقتصادى، أو الإنسـان الفرويـدى، ولا الإنسـان اليهودى الذى يعد نفسه فرداً من جنس مختار. إن الإنسـان فى الإسلام هو الذى يقوم بدور استخلاف ا تعـالى علـى الأرض، وجدير بهذا الإنسان أن يكون ملتزما بقدر ما تسعه الطبيعة البشرية بالخير والحب، والسلام والبعد عن الأنانيـة والأثرة.

وهكذا تأصلت الركيزتان اللتان تقـوم عليهمـا دعـوة الإحياء إلا وهما الإنسان المسـتخلف صـاحب الرسـالة.. والإسلام باعتباره ثورة حضارية تقوم على الإيمـان والقـيم ويطبقها قادة من نوع متميز يختلـف عـن قيـادة الملـوك والأباطرة هم الأنبياء..

وعن هذين جاء فهم دعوة الإحياء الإسلامى للإسلام وتفسير مضامينه، فى العقيـدة، والشـريعة وإدراك سـر، وروح، ونبض القرآن الكريم.

وتعيد دعوة الإحيـاء الإسـلامى تـأخر المجتمـع الإسلامى إلى أن المسلمين لم يستخدموا عقولهم ولم يـأتمنوا قلوبهم فى فهم القرآن، واستبعاد ما حـاق بسـيرة الرسـول وسنته من الخرافة وأنهم أثروا أن يتبعوا "الأسلاف" وقد كان هؤلاء الأسلاف من مفسرين، أو محدثين، أو فقهاء نـابغين ومخلصين ولكنهم ليسوا أنبياء أو ملائكة وليس لهم العصمة التى تنجيهم من القصور البشرى فقدموا لنا فهمهم للإسـلام دون أن يكون هذا الفهم للإسلام هو الإسلام فعلاً وإنما هـو فهمهم فى ضوء روح العصر الذى نشأوا فيه وكان عصـراً مغلقاً، مستبداً، فحملت أحكامهم روحه، وانطمست المعـانى الإنسانية والقيم الحضارية بتأثير ما زحف علـى المجتمـع الإسلامى من ملك عضوض ومؤثرات غريبة عليه..

وللأسباب عديدة لم يستطع المسلمون المعاصـرون أن يتحرروا من أسر "الأسلاف". والدعوات الإسلامية المعاصرة كلها تفخر بأنها "سلفية" وليس لديها الشجاعة والجرأة للتعامل مع القرآن رأساً وضبط السنة بمعايير القرآن.

كما لم يفهموا أن الإسلام لا يستمد من مراجعه الخاصة وحدها ولكن من كل مصادر الحكمة والمعرفة قديمة وحديثة،

لأن القرآن نفسه يعتمد الحكمة قرينـة للكتـاب، وأن تعلـيم الرسول يتضمن الكتاب والحكمة.. فقصروا فكرهم على فكر الأسلاف.

وعن هذه "الحكمة" نظرت دعوة الإحياء الإسلامى إلـى الإسلام من داخله لاستكشاف جوهره وروحه وخصائصـه، وإلى الإسلام من خارجه أعنى تفاعل خصائص الإسلام مـع الحضارات والثقافـات الخارجيـة. لأن مـن الواضـح إن خصائص الإسلام هذه لن تعمل فى فراغ، ولا هى قوة قاهرة تقول لشىء كون فيكون.. ولا هى تتضـمن كـل شـىء أو تحتكر وحدها الحقيقة إن عليها أن تتعامل مع ما حولها ومـا يعاصرها فتقبل منها ما لا يخالفها وتفيد منـه فـى إثرائهـا وتتكيف مع الأوضاع بقدر ما تؤثر فى هذه الأوضاع نفسـها وتكون العلاقة علاقة تأثير وتأثر. فعـل وانفعـال إضـافة وأخذ..

ولهذا فإن دعوة الإحياء الإسلامى ترى أن كل الفلسفات والنظريات التى أثمرها فكر الفلاسفة يجب أن ينظـر فيهـا ويستمد منها ما يصلح دون غضاضة لأن الشـعوب جميعـاً أسهمت فيها وكل جيل أسهم فيها فهى ثقافة البشـرية كلهـا،

وهذا التجديد وحده هو الذى يعيد للإسلام طابعه الإنسانى/ الحضارى وما ينقذه من قوقعه الطقوس، وما يجعله قوة تحرير – تخرج الناس من الظلمات إلى النور.

وهذا ما عجز عنه الأسلاف الذين ركزوا عملهم بأسره على الإسلام من الداخل وغفلوا عن القوى والمؤثرات الخارجية.. كما يختلف عن عمل المستشرقين الذين نظروا إلى الإسلام من الخارج واغفلوا روحه وخصائصه.

بجانب هذا الدور الإنسانى، فقد كان للأديان دور حضارى تمثل فى إنها كانت ثورات جماهيرية أراد ا بها إنقاذ الناس من الظلمات إلى النور. عندما عجزت الجماهير عن التصدى للطغاة، فأرسل ا رسله ليقوموا بهذه المهمة، ليكونوا قادة الجماهير وليحققوا قيم العدل والمساواة والمحبة والحرية والمعرفة..

لقد طمرت هذه القيم تحت غشاوات اللاهوت لاهوت علم الكلام، ومذهبيات الفقهاء والشعائر والطقوس وظهور سدنة أرادوا الإفادة من الأديان وتعاونوا مع الحكومات بحيث كادت الأديان أن تفقد هذه الخصيصة الثمينة الخصيصة الإنسانية – الحضارية، بل وتحولت إلى قوة حفاظ.

إن التزام الدعوات الإسـلامية المعاصـرة بمـا أورده المفسرون والمحدثون والفقهاء جعل الإسلام اليوم يشبه سفينة تحمل متحفاً يثقل عليها ويهبط بهـا ويحـول بينهـا وبـين الانطلاق، ولا يفسح مجالاً لغيره، ومن المستحيل أن تعـيش أمه فى هذا العصر على ما قدمه الأسلاف من ألف عام..

* * *

إنه لمن سوء الحظ أن تظهر دعوة الإحياء الإسلامى فى وقت مكفهر ملبد بالشبهات التى توجد جواً عدائيا لكـل مـا يمت إلى الإسلام والمسلمين. والحقيقة أن ١١ سبتمبر سـنة ٢٠٠١ وأحداثها ليست – كما يظن – السبب، إنهـا الثمـرة والنتيجة. فقد سيطر على المجتمع الإسـلامى فـى الفتـرة المعاصرة الحكم العسكرى الغاشـم الـذى سـاد المنطقـة، والعداوة المريرة التى نشبت بين عبـد الناصـر والإخـوان المسلمين وما أوقعه بهم من اضطهادات وما ارتكـب فـى سجونه من تعذيب وموبقات مما أوجد عداوة مقـررة بـين النظام الحاكم وبين الاتجاه الإسلامى. وفى الوقت نفسه فإنـه أفرز الجماعات التى آمنت أن حكومة ترتكب مـا ارتكبـه زبانية السجن الحربى من موبقات لا يمكن أن تكون مسلمة،

إنها كافرة. وكانت هذه الفكرة هى أساس كل الجماعات التى ظهرت فى السبعينات والثمانينات. وكانت الأولى هى جماعة شكرى مصطفى ثم صالح سرية. حتـى هيئـات الجماعـة الإسلامية والجهاد. التى تورطـت فـى اغتيـال السـادات وارتكاب الكثير من الجرائم التى تعكس ما تعانيه المجتمعات العربية من تخبط وتحلل وفساد واسـتبداد وتكـررت هـذه الصورة فى معظم الدول العربية ووصلت إلى قمتهـا فـى أحداث ١١ سبتمبر التى فجرت عداوات كانت كامنـة مـن العهود القديمة وظن إنها نسيت حتـى جـاءت أحـداث ١١ سبتمبر فبعثتها من جديد. وأعادت العالم مرة أخـرى إلـى عهود الحروب الصليبية وأصبح سوء فهم الإسـلام أزمـة حضارية تهدد العالم بمخاطر وخيمة.

* * *

إن تفاقم أزمة "فهم الإسلام" واكتسابها أبعـاداً دوليـة، يوضح الحاجة الماسة إلى دعـوة الإحيـاء بكـل جـذريتها وثوريتها، ولا يخالجنا شك فى أن الطريق طويل أمام تحقيق هذه الدعوة لأن تغيير التقاليد والرواسب أمر صعب خاصـة إذا نسب إلى الدين. ولكننا أيضـاً نـؤمن إن هـذه الـدعوة

ستنتصر فى النهاية، وهناك ما يؤذن بهذا من إيمان عدد قـد لا يكون قليلاً وإن لم يستطيعوا الجهر بها لما يجلبـه ذلـك عليهم من متاعب. وقد تكون دعوة الإحيـاء معروفـة فـى خارج البلاد الإسلامية أكثر مما هى معروفه داخلها.

وهذا الكتاب مشروع متكامل وشامل، وهو يقوم علـى الأسس الأصيلة للإسلام أى القرآن الكريم، والسنة المنضبطة بالقرآن. والحكمة التى هى وسيلة الإسلام لمعايشة العصـور والتطورات وقد وضعناه بالدرجة الأولى للشعوب الإسلامية لكى تصحح مفاهيمها الخاطئة، كما أردنا به تصـحيح عـدد كبير من الالتباسات والشبهات التى تلصـق بالإسـلام فـى أوروبا وأمريكا. فقضية الإسلام لم تعـد مقصـورة علـى المسلمين. إنها جزء من أزمة العصر وتحدياته الحضـارية التى يكون من الضرورى لحلها تبديد المفتريات والشكوك فى أعماق الفكر الغربى عن الإسلام.

وتفاصيل ما جاء بهذا الكتاب الموجز تتضمنه مراجـع دعوة الإحياء التى أشير إليها فى أحد ملاحق الكتاب..

* * *

- ٢ -

إننى ما أن عنيت بالتجديد الإسلامى حتى اتصلت بعدد كبير من الشيوخ والفقهاء والكتاب والصحفيين، فلم أجد منهم إلا صداً كأنما على قلوبهم أكنه وفى آذانهم وقر بل وتصاعد هذا الاتجاه إلى عداوة وشنآن وافتراء وتبين لـى أن هـؤلاء فريقان "الأول هم الفقهاء، والثانى هم المثقفون.

أما الفقهاء فإن كل المؤسسة الدينية من فقهـاء التقليـد ومن الطبيعى أن يضيقوا بالتجديد لأمـرين أولهمـا ذاتـى وثانيهما موضوعى أما الذاتى فهو أنهم يرون أنهم وحـدهم الذين يحق لهم الحديث عن الدين، وأى واحـد لـيس مـن زمرتهم يعد غريباً، ولا يحـق لـه أن يـتكلم عـن الـدين ويضربون الأمثال بالهندسة والطب والقضاء التى لا يتحدث عنها إلا الذين يحترفونها من مهندسين أو أطباء أو محـامين ولا يجرؤ أحد خارج "المهنة" أن يتحدث عنها، ولا يملون من الإشارة إلى الكلأ المباح.. أى الدين الذى يتحدث عنه أطباء ومحامون وصحفيون وكتاب، بل حتى كل "من هـب ودب" ولا يستشعرون حرجاً من أن يجعلوا الدين حرفـة تحتـرف لطلاب الرزق أو حانوتا مغلقاً على صاحبه، وكان علـيهم أن

يخجلوا من هذا الحديث الذين يجعل الدين تجارة يحتكرونهـا كأن الدين ليس إيماناً وفكرة وقيم، وأن ا   تعالى يصطفى من يشاء.

وعندما سئل فقيه طارت شهرته الآفاق، فـى مداخلـة تليفزيونية عن أنه لم ير أحداً كتب مجاداً عن تجديد الفقه غير جمال البنا قال الفقيه "جمال البنا غير مختص.. وللفقه أهلـه ورجاله"!!!.

والعامل الموضوعى الذى جعلهم يضيقون بالتجديد أنهم حتى لو أرادوه لما قدروا عليه لأنهم تعلموا الفقـه التقليـدى بمذهبياته وفروعه وهم تلاميذ. وهم يعلمونه الآن كأسـاتذة. ولا يعلمون شيئاً خارج هذا لأنه لا يعنيهم، فما الذى يعنـى أستاذاً فى الفقه الحنبلى مثلاً إلا ما كتبه أبن حنبل ومن خلفه من "مجتهدى المذهب" أو فقهاء الفروع ولن ينقص شـيئاً أن يجهل كل هذا العالم الخارجى الذى يعيش فيه ويتنفس هواءه ويستمتع بخيراته.

أما المثقفون فإن ثقافتهم غربية أوروبيـة أو أمريكيـة بعيدة عن الإسلام، كما أن اتجاهاتهم السياسية اشـتراكية أو ديمقراطية أو ناصرية أو عروبية لا تتصل بالإسـلام وقـد

اصطنعتهم الدولـة وأسـندت إلـيهم الصـحافة والإذاعـة والتليفزيون فأصبحوا يدورون فى فلكها، وهدف كل حكومة هو الإبقاء على النظام وتدعيمه..

وكان السلاح الذى إنتهى إليه هؤلاء وأولئـك لمقاومـة دعوة الإحياء هو التعتيم، فنسجت خيوط مؤامرة صمت أريد بها وأد الفكرة. ولهذا لم يتحدث أحد عن ظهور مجلـد مـن ثلاثة أجزاء باسم "نحو فقه جديد" فى حين أن هذا كان يمكن أن يعد حدثا وأن تعقد له مؤتمرات وندوات ويدرس دراسـة مفصلة بين تأييد أو تفنيد. ولم تظهر أقل إشارة إلـى كتـاب مثل "تثوير القرآن" كان عنوانه وحده يكفى للإثارة!.

فى هذه الفترة دعانى مركز بن خلدون لإلقاء محاضرة فتعرفت عليه وتعرف على ونشأ تقدير متبـادل عبـر عنـه المركز باختيارى أحد أمنائه.

وقال لى أحدهم "إنه يريد أن يكسب منك"..

وقلت له "ولماذا لم تكسبوا منى مثله؟ وماذا يكسب منى إلا الفكر الذى أيده وقاومتموه.

والحق أننى خلال عشر سنوات كعضـو فـى مجلـس الأمناء لم ألمس اعوجاجاً فى مسلك المركز.. إلا أنه يسـبح

ضد التيار ولا يبغى إلا الحقيقة. ولا يأبه للأوهام التى تسود الجماهير ولا يخشى معارضة النظم والأوضاع السائدة، وأنه يفهم روح عصره ويعايشه..

فى الأزمة الأولى، منذ ثلاث سنوات حيكت له مؤامرة كان السبب الحقيقى لها نقده لبعض الأوضاع ورغبتـه فـى مراقبة الانتخابات.. وقد نجحت المؤامرة بحيث قضت محاكم أمن الدولة بحبس مديره وإغلاق مركزه حتى أنقـذه حكـم محكمة النقض بل ونصره نصراً مؤزراً، كما يتضـح مـن حيثيات الحكم..

وثارت زوبعة أخرى عندما قيل إن الحكومة الأمريكية ستخصم من المعونة التى تقدمها لمصـر ٢ مليـون دولار لمركز ابن خلدون. وللفور انفجرت "حملة كراهية" فى بعض الصحف وسالت أعمدتها نقداً وقذفاً – رغم أن المركز قـدم بيانا صحفياً أعلن فيه الحقيقة هى أن أحد أعضـاء مجلـس الشيوخ الأمريكى أقترح **إضافة وليس خصم** ٢ مليون دولار إعانة لمركز ابن خلدون تعويضاً عن خسائره وتشجيعا لـه على التقدم بمهمته، ولكن رئيس لجنة المعونة لم يدرج هـذا الاقتراح فى الخطة فظلت المعونة على ما هى عليه.

رغم هذا استغلت صحف الإثارة مشاعر العـداء نحـو أمريكا ووجهتها كلها نحو الدكتور سعد الدين إبراهيم.

وفى الحقيقة أنى لم أر مبرراً لكل هذا حتى لـو أخـذ بالاقتراح، بل حتى لو كان خصماً من المعونة، وليس إضافة لها.

فأمريكا هى التى تقدم المعونة. ومن حقها أن تتصـرف فيها كما تشاء، وما على مصر إلا أن ترفضها بكـل إبـاء وشمم والمعونة لا تبلغ إلا جزءً مما نهبه الناهبون من البنوك وما اختلسه المختلسون من أموال الدولـة، ومـا يأخذونـه كعمولات أو سمسرة، وما يضعون عليه أيديهم مـن أراض إلى آخر قائمة الفساد التى تبلغ مائة مليار.. ولـيس مليـار وثمانمائة ألف..

كان من الممكن لو صلحت السياسة الاقتصادية لمصـر أن لا تكون فى حاجة لمعونة، وأن تصدر القمـح بـدلاً أن تستورده.

وعندما تقرر أمريكا تخصيص ٢ مليون دولار لمركز ابن خلدون فإنما تقررها لمركز مصـرى يقـوم بدراسـات ويسعى لتعميق الديمقراطية والنهضة بالتنمية، فهو فى صميم

المصالح المصرية، وقد يفضل هذا أن يذهب إلـى جيـوب موظفين، أو يستخدم فى مشروعات وهميـة أو تـودى بـه البيروقراطية.

* * *

ربما لم يكن مقام هذه المقدمة يحتمل هـذه الإشـارات ولكننى أعلم بها إنها ستثور فى النفـوس بتـأثير الحمـلات الصحفية المغرضة والمضـللة فرأيـت أن مـن الخيـر أن أعرض وجهة النظر.

حاولت خلال عملى كأحد الأمناء توجيه المركز للقيـام بدور فى الإصلاح الإسلامى باعتباره عملاً حضارياً يـدخل فى صميم إصلاح المجتمع، بيد أن الظروف لم تكن مهيئـة، ولكن التطورات الأخيرة دفعت أمريكـا لأن تتبنـى قضـية التجديد الإسلامى.. وبالطبع فإن أمريكا لا تؤمن با   ورسوله ولا هى مندوبة العناية الإلهية لإصلاح الإسلام وهى كدولـة عظمى تعمل أولاً لمصالحها وهذا فى الحقيقة هو دستور كل دولة وحقا أن السياسة الأمريكية فى تأييد إسـرائيل تأييـداً مطلقاً هى بلا جدال أكبر ما يسئ إليها، كما أنها وإن قـدمت خدمة للعراق عندما أطاحت بطاغيته الذى أذل النفوس وقتل

عشرات الألوف من الأبرياء وبدد أموال العراق وعجز عن زحزحته شعبه، وكل القوى العربية – إلا أن أمريكا تورطت فى سياسة فئة من "الصقور" تهيمن علـى البيـت الأبـيض وتجعلها تعتقد أن القوة هى الوسيلة الرادعة، ولا جـدال أن هذا خطأ، ولكن حتى مع هذا الخطأ فإن الشـعب العراقـى يتظاهر ويقوم بمقاومة كبيرة، وما كان يمكن فى عهد صدام أن ينبس ببنت شفة، وأمريكا دولة ديمقراطية حرة رغم كـل تخبطاتها وليست هى المستر بوش، وتداول السـلطة، وقـوة الرأى العام من أكبر العوامل المؤثرة على سياسة الحكومـة والتى يمكن أن تغير سياسة "الصقور"، ولابد أن ترحل عـن العراق فى النهاية.

وعلى كل حال فليس من صميم وخاصة عمل مركز بن خلدون تأييد أو تفنيد سياسات الدول، فهـذا مـا تقـوم بـه الأحزاب السياسية. ومركز بن خلدون منظمة مدنيـة تعنـى بوسائل الإصلاح الداخلى، وهو يرى أن تعميق الديمقراطيـة من أولى هذه الوسائل، ونحن نؤيده بكل قوة حتى وإن كانت لنا ملاحظات على أسلوب عمل آليـات الديمقراطيـة، لأن البديل هو الديكتاتورية البغيضة المرفوضة.

وقد أثارت دعوة الولايات المتحدة الدول العربية تجديد الخطاب الدينى والمناهج الدينية للتو موجـة لـ رفض ذلـك باعتبار إن كل ما يأتى من أمريكا لابد وأن يكون شراً، وأن وراءه "شىء ما" ولكن الإسلام يعلمنا غير ذلك وا تعـالى يقول ﴿ولا يجرمنكُم شَنَآن قَومٍ علَى أَلا تَعدِلُوا اعـدِلُوا هـو أَقْرب لِلتقْوى﴾. {٨ المائدة}.. والمحقق أن دعـوة الولايـات المتحدة أسمعت الصم الدعاء، ونجحت فيما حاولناه وفشـلنا، فهل من عجب إذا شكرنا لها هذا؟ إن ما يهمنا هو "المقولـة" لا القائل و"الظاهر" لا الباطن وموقفنا نحن لا موقفهم هـم لا وهذه الدعوة أعانت حتى مركز ابن خلدون على أن يتبنـى مشروع الإحياء الإسلامى الطموح، ويتعهد بالقيـام بعمليـة نشر وترجمة الكتابات التى تظهر الروح الحقيقية للإسـلام، والقيم الإنسانية، الحضارية النبيلة التى قام عليها ولها.. وهذا ما لم تتعهد به مؤسسة دينية أو جمعية من الجماعات التـى ترتفع صيحاتها ترفض و"نشجب" و"نشتم" و"نتهم" ولكنهـا لا تعمل...

إن التشنج، والانفعال والتعصب للشـعارات والتمسـك باللاءات لا يفيد، وقد يكسب جماهيرية ولكنه يخسر المعركة.

وقد أراد الدكتور سعد الدين إبراهيم أن يعبر عن مشاركته وتأييده ودعم مركز ابن خلدون لسياسة الإصلاح الدينى فاختار هذا الكتاب كطليعة لما سيقوم به من نشر لكتابات المجددين وترجمتها إلى اللغات الحية حتى تفند الشبهات والدعات التى تلصق بالإسلام وتسىء إليه، وأرسل إلينا الكلمة التى ننشرها بعد هذه المقدمة..

ونختم هذا بأن نقول للشائنين.. افعلوا مثلما نفعل، ومثل ما فعل بن خلدون تريحون، وتستريحون وتقدموا خدمة لبلادكم ودينكم..

هدانا ا جميعاً جميعا سواء السبيل..

جمال البنا

القاهرة في

ذو القعدة ١٤٢٤ هـ

يناير ٢٠٠٤م

لما كان هذا الكتاب موجه لجمهور المثقفين، وليس لخاصتهم، فلم نر حاجة للإشارة إلى المصادر فى الهوامش لأنها لا تهمهم، أما الخاصة فهم يعلمونها، وعلى كل حال فكل ما كتب موثق فى مراجع دعوة الإحياء، وبوجه خاص فى "نحو فقه جديد" و"الأصلان العظيمان" "الكتاب والسنة".

لم نكن راغبين للإشارة إلى الأديان الأخرى، لولا أن الرد على الشبهات التى تثار على الإسلام جعلنا نلم بالموضوع إلماما بما تفرضه الضرورة. لأننا لا نميل للمقارنة بين الأديان، لأنها عقيمة فلكل دين أهله..

قد يلحظ البعض تكراراً للمعانى والنصوص فى الفصول، وهو أمر تطلبه السياق، فضلاً عن أنه مطلوب فى مجال الدعوات.

الباب الأول

خصائص ومكونات الإسلام

الفصل الأول

خصائص الإسلام

ظهر الإسلام فى شبة جزيرة العـرب حيـث تنبسـط الصحراء كالبحر وتنطلق الرياح كالعواصف. وبين أقوام لم يكدحوا بأيديهم فى الأرض ولم يحملوا على ظهورهم الحجر، مما شغل حياة الناس فى العهود القديمة، ولم تذل رقابهم لملك أو إمبراطور ولم يخضعوا لمران النظم وضبطها وربطهـا كانوا أحراراً يعيشون عيشة البـداوة وتحكمهـم الفطـرة أو العرف ويعيشون فى خيام أو فى بيوت سـاذجة ويتحملـون الحر اللافح نهاراً والبرد القارص ليلاً ويعبدون آلهـة مـن صنعهم فما كانت تملك تحريماً أو تحليلاً أو تفرض قداسة أو "تابو" من أى نوع، ولم يكن لديهم ميثولوجيـا كالميثولوجيـا اليونانية، أو الميثولوجيا العبرية (وهى التوراة وما أضـيف إليها من أساطير وروايات) تثقل كاهلهم وتعقد أفهامهم ..

كان العرب رغم هذا الشظف والمعاناة مؤهلين لحمـل حضارة جديدة لتوفر أهم عنصر إلا وهو الشجاعة والعـزة. ولم ينقصهم إلا العقيدة التى توحد صفوفهم والقيادة التى تكفل لهم الانتصار. وهذا هو ما قدمه الإسلام لهم إذ قدم العقيـدة الجامعة، كما قدم القيادة الملهمة.

وكان على الإسلام أن يعلم العرب الذين كانوا يعيشون حياة ساذجة، بدائية الكثير من الممارسات التـى لـم تكـن معروفة لدى أهل البداوة وأن يصقل خشـونتهم وفجـاجتهم ولهذا تضمن أبواباً عديدة لم يكن مفروضاً أن يتضمنها دين. ومعظم مفردات وعناصـر هـذه الأبـواب عـن العـادات الاجتماعية والآداب كالاستئذان والسلام والزيارة والضـيافة، وآداب الأكل والشرب. وتنظيف الإنسان لجسده مما يلحقـه من أقذار وما إلى هذا كله حتى قال أحد الصحابة إن الرسول علمهم كل شىء "حتى الخراءة"!.

ومن عجب أن بعض هـذه الآداب هـى مـن أكثـر الممارسات إتباعاً، وإنها أصبحت عرفاً سارياً ومتبعا، وفـى كثير من الحالات تعد متقدمة بين آداب الإتيكيت على غير ما يظن الأوربيون.

وورث الإسلام عن الصحراء حريتها، وتجلى هذا فـى مبادئ عديدة مثل مبدأ "البراءة الأصلية" التـى تجعـل كـل الأعمال حلالاً ما لم يصدر بشأنها تحريم من القرآن نفسـه بنص صريح لا يقبل تأويلاً. والنص على حريـة الاعتقـاد، وجعلها قضية شخصية، وبالتالى لا صلة لها بالنظـام العـام وفى عدم وجود المؤسسة الدينية التى تحرم وتحلل وفى جعل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجباً وفى تقبل التعددية الدينية، وترك أمر الفصل فيها إلى الله تعالى يـوم القيامـة. وكل نقطة من هذه النقاط كانت محل معالجة فى كتاب خاص من كتب "دعوة الإحياء الإسلامى".

وتماثل الحرية المساواة التى كان يوحى بهـا البسـاط الأصفر المترامى للصحراء دون جبال شاهقة تمثل التميز.. والتى كانت تفرضها الحياة البدوية، الساذجة، وعدم وجـود ملوك أو آلهة أو نظم أو حكومة مركزية تقنن الطبقية وتضع الناس بعضهم فوق بعض، وجعلت الإسلام يتوجـه للنـاس جميعاً، للبشرية التى رمز بها "بنى آدم" بل واعتبر الأهميـة والأولوية هى للتقوى وليس للحسب أو النسـب أو الجـاه أو الترف أو القوة من أجل هذا لم يعرف المجتمـع الإسـلامى

النظام الطبقى، ولا الألقاب الوراثية، ولا الحواجز ما بين الطبقة العليا والطبقة الدنيا، التى كانت مألوفة فى الإمبراطورية الرومانية، والفارسية وواصلت البقاء حتى الثورة الفرنسية وظلت بقاياها حتى الآن فى بعض المجتمعات. إن العرب لم يعرفوا الأرستقراطية المقننة حتى عندما وصلوا إلى المرحلة الإمبراطورية. فالحضارات القديمة لم تستطع أن تخترق أساس المساواة الذى غرسته البادية وعززه الإسلام ويماثل ذلك عدم وجود الكنيسة أو المؤسسة الدينية وأن يكون لرجالها درجات ومراتب وأزياء وتنظيم كهنوتى وحقوق فى التحليل والتحريم.. إن الإسلام يكاد يكون فى هذه كلها "علمانيا" أو مدنيا فالمسجد أرض فضاء، والصلاة يمارسها كل واحد فى بيته أو حقله، وأى واحد يحفظ شيئاً من القرآن يمكن أن يكون إماما. والعلاقة بين المؤمن وا مباشرة لا يمكن لأحد أن يتدخل فيها. ويظل المجتمع الإسلامى مجتمعاً مفتوحاً، وكانت صفات المقدرة والجدارة هى التى تعلى الأفراد، كما كان العلم والفقه مفتوحاً للجميع ويمكن لفرد من أقل الطبقات أن يصل بفضله إلى

أعلى المناصب، كما فعل "الموالى" أما التجـارة والحـرف فكانت هى الأخرى حرة.

وكانت البيئة الصحراوية البدوية قد استغنت عن الألقاب بالكنية أى حمل الأب اسم الابن الأول، فيقال عنـد التعظـيم "أبو فلان" أو "أم فلان" وتقبل الإسلام هذا بدءً من الرسـول حتى الخلفاء، وسهل هذا على الإسلام أن يعمق روح الأخوة، وأن يصطنع لقب "أخ" ليحمله المؤمنون تطبيقاً لما قاله القرآن "إنما المؤمنون أخوة" ولما قاله الرسول عن المـؤمنين إنهـم كالجسد الواحد، وكأسنان المشط. وإذا كان المجتمع السوفيتى قد توصل فى العصور الحديثة إلى لقب "رفيق" ليحمله أفراد هذا المجتمع، فإن الإسلام قد سبقه عندما أبـدع لقـب "الأخ" وساد هذا فى المجتمع الإسلامى حتى اليوم.

وكانت قوانين الميراث الإسلامية تفتت الملكية بحيث لا يظهر إقطاع كما كان فى القوانين الرومانية التى تمنح الابن البكر مزايا عديدة منها ميراث الأب مما أعطى "البكوريـة" امتيازاً. لقد رفض الإسلام هذا وساوى بين الأبنـاء جميعـاً ورفض الرسول أن يشهد على منح أحد الأنصار أبنـا مـن أبنائه منحة ثمينة قائلاً "هل أعطيت كل أبنائك مثلها" فلما رد

بالسلب رفض الرسول لأنه لا يشهد علـى ظلـم. وجعـل الميراث حصصاً محدده تبعا لدرجـة القرابـة أو الحاجـة. وكانت روح المساواة وسذاجة الحياة من القوة بحيث فضلت زوجة الخليفة الأموى الأول "معاوية" وأم ولى عهـده يزيـد بيتها فى البادية على قصرها المشيد فى دمشق وقالت:

لبيت تصفر الأرياح فيه
أحب إلى من قصر مشيد

وقال الشاعر:

القصر فالنخل فالجماء بينهما
أشهى إلى القلب من أبواب جبرون[1]

ولم يقتصر ذلك على الخلافة الأموية، بل استمر حتـى الخلافة العباسية التى خضعت للنفوذ الفارسى، وكان يظن أن تتأثر به، ولكن الجذور العربية والأصول الإسلامية، حالـت دون ذلك فلم يحمل أبو جعفر المنصور أو الأمين أو المأمون أو المعتصم الخ... ألقابا حتى آلت الخلافة إلى الترك والديلم

---

(١) القصر الذى عناه هنا هو قصر لسعيد بن العاص والنخل كان لسعيد بـين قصره والجماء وهى أرض كانت له فصار جميع ذلك لمعاوية بعد وفاة سعيد ابتاعه من أبنه وجيرون هى دمشق.

الخ... فاثقلوا أنفسهم بالألقاب. ولكن قوانين الميراث وقفـت عاملاً على تفتيت الملكية وحائلاً دون ظهور الإقطاع.

ويظهر الأثر الكبير للمساواة أن الدولة الإسـلامية لـم تعرف منذ أن ظهرت فى المدينة فى السـنة العاشـرة مـن الهجرة حتى إنهاء الخلافة العثمانية على يدى مصطفى كمال فى القرن الرابع عشر الهجرى ما يماثل عهود الإقطاع التى ظهرت فى أوروبا طوال القرون الخمسة أو الستة التى سبقت عهد النهضة (الرينسانس) وكان قوامهـا القنانـة أو عبيـد الأرض الذين كانوا منزلة ما بين الرقيق والأحرار إذ لم يكن لهم حق مغادرة الأرض، وكان عليهم أن يخدموا اللورد أيام الحصاد الخ... وأن يطحنوا فى مطحنته الخ... وأن يقدموا له إتاوات فضلاً عن حق الليلة الاولى البغـيض الـذى ظـل موجوداً فى بعض مناطق ألمانيا حتى القرن الثـامن عشـر. كما أن الأقنان لم يحرروا من قيودهم الطبقية فى روسـيا إلا فى منتصف القرن التاسع عشر.

ولم توجد محاكم خاصة للنبلاء يحاكمون أمامها بينمـا يكون النبيل هو القاضى فى المحـاكم الشـعبية. فقـد كـان المسلمون جميعاً – بما فيهم الخلفاء الراشدين – سواء أمـام

القاضى، وعندما أسلم ملك الغساسنة العرب – جبلة بن الأبهم وزار مكة وطاف بالكعبة وطأ إعرابى أزاره فلطمه لطمـة هشمت أنفه فشكاه الإعرابى إلى عمـر الـذى خيـره بـين القصاص أو إرضاء الإعرابى. فاستغرب جبله وقال "تقصـه منى وأنا ملك وهو سوقه؟ فقال عمر "الإسلام سوى بينكمـا" وأمهله فهرب جبلة، وعاد إلى مملكته فى الحيرة وأرتد إلـى النصرانية وأنقذ نفسه من هذا الدين الذى يساوى مـا بـين الملك والسوقة. ووقف على بن أبى طالب، وهو فـى قمـة الارستقراطية القرشية موقف المساواة مع يهودى اتهمه بأنه أخذ درعه. وسأل القاضى الإمام على عن شهوده فقال يشهد الحسن وقنبر. ولكن القاضى رد هذين الشاهدين فأولهما أبنه وثانيهما مولاه. ولم يكن عنده شهود غيرهما فحكم لليهودى، الذى أكبر هذه الصورة الرائعة للمساواة والعدالة واعتـرف بأن الدرع سقط من على فالتقطه وهو بعبده إليه.. فأمره على أن يحتفظ به.

وحقا إن هذه الصورة لم تتكرر عنـدما هـيمن الحكـم العضوض، ولكن لم يكن هناك أبداً محـاكم خاصـة. وفـى القرن الثامن الهجرى عندما اكتشف الإمام العـز بـن عبـد

السلام أن بعض المماليك الذين يمارسون الحكم فى مصـر لازالوا فى الرق فأعلن ضرورة بيعهم وضم ثمنهم إلى بيت مال المسلمين. وثار المماليك لهذه الإهانة الصـارخة ولكـن الشيخ لم يتنازل.. ووقف الشعب معـه. فـاجرى السـلطان مراسيم البيع ودفع الثمن من جيبه ووضعه الشيخ فى بيـت المال. بل حتى فى السلطنة العثمانية بكل ما فيها من جهالـة وغشومة، ما كان يمكن عزل الخليفة إلا بناء على فتوى من شيخ الإسلام..

ومما يوضح أثر المساواة التـى تأتـت مـن طبيعـة الصحراء ومن روح الإسلام معاً أن الرقيق فـى المجتمـع الإسلامى لم يتعرضوا للوحشية التـى تعرضـوا لهـا فـى المجتمع الرومانى أو على يد الدول الأوروبية المستعمرة.

وهناك صفة أخرى أصبحت أيضـاً مـن خصـائص الإسلام نتيجة لظهوره فى صحراء العرب، تلك هى القصـد والاعتدال فى المستويات المعيشية. إن الضـرورات التـى جعلت الموارد شحيحة، مع استحالة تنميتها فى هذا العهد، إذ لم يكن ثمة وسيلة لتـوفير الميـاه لـيمكن زرع الصـحراء وإجتناء ثمرات الزراعة. لهذا اتسمت الحياة البدوية بالتقشف

وكانت بضعة تمرات يمكن أن تكفى العربى – عند الضرورة – ولم يعرف العرب بذخ الترف. وأصبحت هذه الصفة التى كان منشؤها الأول الضرورة فضيلة تؤخذ بها النفس حتـى عندما تتيسر الأمور، وانغرس هـذا فـى المثـل الأعلـى الإسلامى للحياة فلم يكن هو الاستمتاع فى المأكل والمشرب والملبس والبناء الخ... حتى عندما تتوفر أسبابه، ولكن القصد والاعتدال. وكان لهذا أثره فى عدم الاستسلام للبذخ والثراء ومختلف صور الاستمتاع التى كانت فى صميم المثل الأعلى الأوربى. والذى دفعته لاستثمار المـوارد، وخلـق القـوى والمواد لجعل الحياة رخية، ثرية، حافلة بوسائل الاستمتاع.

ولا يقل عن هذا أهمية فكرة "الفطرة التى تتلاقى فيهـا فكرة الإسلام البسيطة مع طبيعة الصحراء العربية التى لـم تثقل بحضارات سـلطوية طبقيـة، وصـنوف مـن التـابو والمحرمات فوجدت الطبيعة البشرية طريقهـا حـراً طلقـاً. وتحدث الرسول عن إن الإسلام دين الفطرة، وأن كل واحـد يولد على الفطرة حتى يهودانه أو يمجسانه أبواه، أى يجعلانه يهوديا أو مجوسيا، ولم يقل يجعلانه مسلماً، لأنه مسلم بحكم الفطرة، وأن إسلامه لا يتطلب طقوساً تحقـق لـه الانتمـاء

للدين، كالتعميد بالماء مثلاً، ومن هذا المنطلـق – منطلـق الفطرة –لم يتقبل الإسلام كدين فكرة "الرهبنة" والابتعاد عن عالم الحياة الدنيا. والتخلص من الثروة والالتزام بالعفة – أى عدم المخالطة الجنسية حتى لو كانت بين الـزوجين. وقـال الرسول "لا رهبانية فى الإسلام" ورأى أن رهبانية الإسـلام جهاد لعدم الاستسلام للشهوات الجامحة وإنما الالتـزام بمـا توحى به الفطرة والطبيعة البشرية التى لا يمكن أن تتنكر أو تتجاهل أقوى الغرائز- الغريزة الجنسية – ثم من الحـرص على الملك – الذى يكفل قضاء ما تتطلبه حياة الإنسان. وقـد رفض الرسول مسلك مجموعة ارتأت أن تقوم الليل، وتصوم النهار، ولا تقرب النساء ورأى أن هذا يخالف الفطـرة، ولا يعد من سنة النبى الذى كان يصوم ويفطر، وينام ويصـلى، ويتزوج، ويقر الملكية.

وبحكم هذه الفطرة تقبل الإسـلام الطبيعـة البشـرية، وتعامل فيها – كما هى – وهو يرى الطبيعة البشرية كالنفط الذى فيه القار الثقيل الذى يستخدم لرصف الطرق ووظيفتـه أن يتقبل الوطأ وهو مفيد لأن هذه وظيفة نافعـة ومطلوبـة. ومنه البنزين الخفيف الذى تطير به الطائرات.. وما بين القار

التقبل والبنزين الخفيف تروح وتجئ النفس البشـرية. بـين نجدين من خير وشر، فجور وتقوى وفيها الإيثـار والأثـرة وهذا التصور حال دون أن يضيق الإسلام بالغريزة الجنسية كبعض الأديان والفلسفات بل وجعله يثيب عليها عندما توضع موضعها بالزواج. وقد عجب حتى الصحابة مـن أن يـأتى الإنسان وطره ثم يثاب عليه، فوجه نظرهم الرسول إلى أنـه لو قضاه بغير الطريقة التى شرعها الإسلام لكـان حرامـاً يعاقب عليه. فكيف يذكرون الحرام المعاقب وينسون الحلال المثاب.

* * *

وتبدت الطبيعة الخاصة للإسلام فى طريقـة معالجتـه **لقضية الخير والشر التى عنيت بها الأديان** ولـيمكن تفهـم وتميز التصوير الإسلامى نعرض هنا التصوير "التـوراتى" الذى أخذت به أوربا. وهو ما جاء فى سـفر التكـوين فـى الإصحاح الأول والإصحاح الثانى.

"وجبل الرب الإله آدم ترابا من الأرض ونفخ فى أنفـه نسمة حياة فصار آدم نفساً حية وغرس الرب الإله جنة فـى عدن شرقاً ووضع هناك آدم الذى جبله وأنبت الرب الإله من

الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل وشجرة الحيـاة فى وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر.

وأخذ الرب الإله آدم ووضعه فى جنة عـدن ليعملهـا ويحفظها وأوصى الرب الإله آدم قائلاً من جميع شجر الجنة تأكل أكلا. أما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها تموت موتا.. وقال الرب الإله ليس جيـداً أن يكون آدم وحده فأصنع له معينا نظيره. وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو أسمها فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميـع الحيوانات البرية. وأما لنفسه فلم يجد معينا نظيـره فـأوقع الرب الإله سباتا على آدم فنام فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحما وبنى الرب الإله الضلع التى أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم فقال آدم هذه الآن عظم من عظامى ولحم من لحمى هذه تدعى امرأة لأنها من أمرؤ أخذت لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسدا واحدا وكان كلاهما عريانين آدم وحواء.. آدم وامرأته وهما لا يخجلان.

وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التى عملها الرب الإله. فقالت للمرأة أحقاً قال الله لا تأكلان من كل شجر الجنة. فقالت المرأة للحية من ثمر شجر الجنة نأكل وأما ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا، فقالت الحية للمرأة لن تموتا. بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر. فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون وأن الشجرة شهية للنظر. فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان. فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر".

هذا هو التصوير التوراتى فلنر الآن كيف عالج القرآن الكريم القضية. وقد أشار إليها القرآن فى مواضع كثيرة لعل أبرزها ما جاء فى البقرة.

﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعًا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم(٢٩) وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون(٣٠) وعلم آدم الأسماء كلها ثم

عرضهم على الْملائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسماءِ هـؤُلاء إِن كُنتُم صادِقِين(٣١) قَالُوا سبحانَك لا عِلْم لَنَا إِلا ما علمتَنَا إِنك أَنْـتَ الْعلِيم الْحكِيم(٣٢) قَالَ يا آدم أَنْبِئْهم بِأَسـمائِهِم فَلَمـا أَنْبـأَهم بِأَسمائِهِم قَالَ أَلَم أَقُلْ لَكُم إِني أَعلَم غَيب السماواتِ والأَرضِ وأَعلَم ما تُبدون وما كُنتُم تَكْتُمـون(٣٣) وإِذْ قُلْنَـا لِلْملائِكَـةِ اسجدوا لآدم فَسجدوا إِلا إِبلِيس أَبى واسـتَكْبر وكَـان مِـن الْكَافِرِين(٣٤) وقُلْنَا يا آدم اسكُن أَنْتَ وزوجك الْجنةَ وكُلا مِنْها رغَدًا حيثُ شِئْتُما ولا تَقْربـا هـذِهِ الشـجرةَ فَتَكُونَـا مِـن الظالِمِين(٣٥) فَأَزلهما الشيطَان عنْها فَأَخْرجهما مِما كَانَا فِيـهِ وقُلْنَا اهبِطُوا بعضكُم لِبـعضٍ عدو ولَكُم فِي الأَرضِ مسـتَقَر ومتـَاع إِلَى حِينٍ(٣٦) فَتَلَقى آدم مِن ربهِ كَلِماتٍ فَتَاب علَيـهِ إِنه هو التواب الرحِيم(٣٧) قُلْنَا اهبِطُوا مِنْها جمِيعًا فَإِما يأْتِينكُم مِني هدًى فَمن تَبِع هداي فَلا خَوفٌ علَيهم ولا هم يحزنُون﴾.
{٣٨ البقرة}..

﴿ولَقَد خَلَقْنَاكُم ثُم صورنَاكُم ثُم قُلْنَا لِلْملائِكَةِ اسجدوا لآدم فَسجدوا إِلا إِبلِيس لَم يكُن مِن الساجِدِين(١١) قَالَ ما منَعك أَلا تَسجد إِذْ أَمرتُك قَالَ أَنَا خَير مِنْه خَلَقْتَنِي مِن نَارٍ وخَلَقْتَه مِـن طِينٍ(١٢) قَالَ فَاهبِطْ مِنْها فَما يكُون لَك أَن تَتَكَبر فِيها فَاخْرج

ِإنك ِمن الصاغِرين(**١٣**) قَالَ َأنظِرنِي ِإلَى يومِ يبعثُون(**١٤**) قَالَ ِإنك ِمن الْمنظَرِين(**١٥**) قَالَ فَبِمـا َأغْويتَنِـي لأَقْعـدن لَهـم صِراطَك الْمستَقِـيم(**١٦**) ثُم لآتِينهم ِمن بين َأيدِيهم ومِن خَلْفِهم وعن َأيمانِهم وعن شَمائِلِهم ولا تَجِد َأكْثَرهم شَاكِرِين﴾. {١٧ الأعراف}..

﴿وإِذْ قُلْنَا ِللْملائِكَةِ اسجدوا لآدم فَسجدوا ِإلا ِإبلِيس قَـالَ َأأَسجد ِلمن خَلَقْتَ طِينًا(**٦١**) قَالَ َأرَأيتَك هذَا الَّذِي كَرمتَ علَي لَئِن َأخرتَنِي ِإلَى يومِ الْقِيامةِ لأَحتَنِكَن ذُريتَه ِإلا قَلِيلاً(**٦٢**) قَالَ اذْهب فَمن تَبِعك ِمنْهم فَإِن جهنم جزاؤُكُم جزاءً موفُـورًا(**٦٣**) واستَفْزِز من استَطَعتَ ِمنْهم ِبصوتِك وأَجلِب علَـيهم ِبخَيلِـك ورجِلِك وشَارِكْهم فِي الأموال والأولادِ وعِدهم ومـا يعِـدهم الشيطَان ِإلا غُرورًا(**٦٤**) ِإن عِبادِي لَيس لَك علَـيهم سـلْطَان وكَفَى ِبربك وكِيلاً﴾. {٦٥ الإسراء}..

استبعد القرآن الكريم حكاية "الحية" التى كانـت أحيـل الحيوانات وإغرائها لحواء فأنقذ حواء من مسئولية الخـروج من الجنة وأعطى القضية شكلاً منهجياً، ومسـتمراً، ولـيس واقعة، عندما أحل محل الحية "الشيطان" الذى رمز به للشـر ويلحظ أن طابع كل الآيات فى هـذا بالسـياق هـو الرمـز

والمجاز والكناية بما فى ذلك حديث ا إلـى الملائكـة ورد الملائكة وتعريف آدم الأسماء وشخصية الشيطان الذى جسم به الإسلام الشر. على أن أهم قطعة فى السياق كله ولا نجد لها إشارة فى التوراة هى استجابة ا لطلب الشيطان إنظاره إلى يوم القيامة. وحريته فى استخدام كل طاقاته للإغواء هذه الاستجابة تجعل الحياة نوعاً من المبارزة بين الخير الممثـل فى هداية الأنبياء والشر الممثل فى غواية الشياطين وحريـة كل طرف من الطرفين فى استخدام وسائله لتحقيـق غاياتـه وقد لا يكون هناك ما هو أقوى تصويراً لديناميكيله، وفعاليـة وجدلية الحياة الدنيا من هذا التصور وهو يمنح الإسلام طابعاً جهادياً ويجعل من المسلم مكافحاً على الدوام فـى معركـة سلحه ا فيها بهداية الأنبياء.. وبالعقل وبالفطرة وفى مقابـل هذا، ولكى يتحقق "الابـتلاء" و"التمحـيص" ولكـى تظهـر "الإرادة" بأجلى معانيها سمح ا لقوى الشر بـأن تناصـب الإنسان العداء وأن تستخدم كل ما لديها من أسلحة، وتظهـر المعركة المؤمنين الذين يصمدون وينتصرون. كمـا تظهـر الضعفاء الذين يستسلمون وينهزمون وما بين هذه من فئـات شتى وطرائق قدداً ولم يستبعد الإسلام أن ينهزم المسلم فـى

معركة دون أن يخسر حرباً. ولا أن يذنب ثم يتوب فتُجب التوبة الذنوب، بل إنه استخدم "المقاصة" فالحسنات تذهب السيئات كما أن الله تعالى تسامح فى صغائر الذنوب أى التى لا تحقق أذى أو شراً وقد يطلق عليها "اللمم" وكأنه ألم دون أن يوغل – فاللمم صفة أكثر منها اسماً وهذا يمكن أن يلحظ فى ممارسات عديدة.

وهذا التصوير الذى يجعل الحياة سجالاً ما بين الخير والشر يوضح لنا حكمة سماح الله تعالى للشيطان بالوجود والعمل بكل أسلحته إلى يوم القيامة. فما كان يمكن للمبارزة أن تتم بغيره ولو لم يوجد لانتفى من الحياة عنصر الإرادة والمقاومة. ولم يعد لها معنى. فهذا هو مبرر ما قد لا يفهم للوهلة الأولى، واقعة وجود الشر، بإذن من الله تعالى.

ويمكن أيضاً أن يقال إن هذا هو مبرر التمييز بين الإنسان والسموات والأرض التى رفضت أن تقبل "الأمانة" بتعبير القرآن أو "الإرادة" أو "التحدى" وهى قبول الإنسان لهذه الأمانة وهى مخاطرة يحتمل أن يسلك فيها سبيلاً يسىء إلى السماء والأرض. ﴿إنا عرضنَا الأمانَةَ علَى السماواتِ

والأرضِ والْجِبال فَأبين أَن يحمِلْنَها وأَشْفَقْن مِنْهـا وحملَهـا الإِنْسان إِنه كَان ظَلُومًا جهولاً﴾. {٧٢ الأحزاب}..

لأن الإسلام بقدر ما يريد للإنسان السـمو والصـمود والانتصار فى معركة الخير. بقدر مـا يعلـم أن الطبيعـة البشرية قد لا تساعده دائما على هذا الانتصار. ويغلـب أن يهزم فى هذه المعركة ما لم يرزق هداية الأنبياء.

* * *

فإذا أردنا أن نلخص خصائص الإسلام لقلنا إن الإسلام ورث عن الصحراء البساطة، والحرية، والمساواة والقصـد التى ظلت صفة للمجتمعات الإسلامية حتـى عنـدما بلغـت المرحلة الإمبراطورية، أو انحطت وتدهورت فالذى اختلـف هو درجة الالتزام ولكنها كانت بدرجة ما موجودة بها.

بالإضافة إلى هذه الخصائص "الصـحراوية" للإسـلام، فإن فكرة الإسلام البسيطة النقية عن ا ، وسـيرد الحـديث فيها، وقيادة الرسول الباهرة البعيـدة عـن قيـادة الملـوك والأباطرة مما لم تكن لتتقبله بسـاطة وطبيعـة الصـحراء والإسلام، والصياغة الآسرة الجاذبة للقرآن وتوجيهاته كـان تكليلاً لهذه الخصائص وصهراً لهـا فـى بوتقـة الإيمـان

واستكمالاً لما كان ينقصها بحيث استطاع الإسلام أن يقـوم بثورته الإنسانية ويقدم إضافته الحضارية.

وأخذ الإسلام أفضل صوره، وقام بدوره أفضل قيام فى الفترة النبوية وخلال الأربعين عاما التى سبقت الفتنة وتحول الخلافة إلى ملك عضوض بعدها بدأ النزول وانطماس هـذه الخصائص شيئاً فشيئاً حتى بلغت غايتها فى القرون الثلاثـة الأخيرة عندما بدأت اليقظة الحديثة.

الفصل الثاني

مكونات الإسلام

العقيدة والشريعة

يقوم الإسلام على ركيزتين أساسـيتين همـا العقيـدة والشريعة وسنرى أن لكل واحدة من هذين طبيعتها الخاصة.

ومن أوائل العلماء الذين تنبهوا إلى هذا التقسيم العلامة المجتهد محمود شلتوت الذى أصدر كتاباً من خيـرة كتبـه يحمل اسم "الإسلام عقيدة وشريعة" جاء فيه:

"تلقى محمد عن ربه الأصل الجامع للإسلام فى عقائده وتشريعه، وهو القرآن الكريم، وكان القرآن عند ا وعنـد المسلمين، المصدر الأول فى تعرف التعاليم للإسلام، ومـن القرآن عرف أن الإسلام له شعبتان أساسـيتان، لا توجـد حقيقته، ولا يتحقق معناه إلا إذا أخذت الشعبتان حظهما مـن

التحقق والوجود فى عقل الإنسان وقلبـه وحياتـه، وهاتـان الشعبتان هما: العقيدة والشريعة .

العقيدة :

والعقيدة هى الجانب النظرى الذى يطلب الإيمان به أولا وقبل كل شئ إيمانا لا يرقى إليه شك، ولا تؤثر فيه شـبهة، ومن طبيعتها: تضافر النصوص الواضحة علـى تقريرهـا، وإجماع المسلمين عليها من يوم أن ابتدأت الدعوة مـع مـا حدث بينهم من اختلاف بعد ذلك فيما وراءها، وهى أول مـا دعا إليه الرسول وطلب من الناس الإيمان به فى المرحلـة الأولى من مراحل الدعوة وهى دعوة كل رسول جاء من قبل ا ، كما دل على ذلك القرآن فـى حديثـه عـن الأنبيـاء والمرسلين.

الشريعة :

والشريعة هى النظم التى شرعها ا وشـرع أصـولها ليأخذ الإنسان بها نفسه فى علاقته بربه وعلاقته بأخيه المسلم وعلاقته بأخيه الإنسان وعلاقته بالكون وعلاقته بالحياة.

العقيدة والشريعة فى تعبير القرآن :

وقد عبر القرآن عن العقيدة "بالإيمان" وعـن الشـريعة "بالعمل الصالح" وجاء ذلك فى كثير من آياته الصريحة: ﴿إِن الَّذِين آمنُوا وعمِلُوا الصالِحاتِ كَانَتْ لَهم جنـاتُ الْفِـردوسِ نُزلاً(١٠٧) خَالِدِين فِيها لا يبـغُون عنْها حِـولا﴾.. {١٠٨ الكهف}.. ﴿من عمِلَ صالِحًا مِن ذَكَرٍ أَو أُنثَى وهـو مـؤْمِن فَلَنُحيِينه حياةً طَيبةً ولَنجزِينهم أَجـرهم بِأَحسـن مـا كَـانُوا يعملُون﴾. {٩٧ النحـل}. ﴿والْعصـرِ(١) إِن الإِنسـان لَفِـي خُسرٍ(٢) إِلا الَّذِين آمنُوا وعمِلُوا الصالِحاتِ وتَواصوا بِـالْحق وتَواصوا بِالصبرِ﴾. {٣ العصر}.. ﴿إِن الَّذِين قَالُوا ربنَا الله ثُم استَقَاموا تَتَنَزلُ علَيهم الْملائِكَـةُ أَلا تَخَـافُوا ولا تَحزنُـوا وأَبشِروا بِالْجنةِ الَّتِي كُنْتُم تُوعدون﴾. {٣٠ فصلت}..

ومن هنا لم يكن الإسلام عقيدة فقط، ولم تكـن مهمتـه تنظيم العلاقة بين الإنسان وربه فقط، وإنما كان عقيدة، وكان شريعة توجه الإنسان إلى جميع نواحى الخير فى الحياة.

العقيدة أصل والشريعة فرع :

والعقيدة فى الوضع الإسلامى هى الأصل، الذى تبنـى عليه الشريعة والشريعة أثر تستتبعه العقيدة، ومن ثـم فـلا

وجود للشريعة فى الإسلام إلا بوجود العقيدة، كما لا ازدهار للشريعة إلا فى ظل العقيدة، ذلك أن الشريعة بدون العقيـدة علو ليس له أساس، فهى لا تستند إلى تلك القـوة المعنويـة، التى توحى باحترام الشريعة، ومراعـاة قوانينهـا، والعمـل بموجبها دون حاجة إلى معونة أى قوة من خارج النفس.

صلة العقيدة بالشريعة :

وأذن فالإسلام يحتم تعانق الشريعة والعقيدة بحيـث لا تنفرد إحداهما عن الأخرى، على أن تكون العقيدة أصلاً يدفع إلى الشريعة، والشريعة تلبية لانفعال القلب بالعقيدة، وقد كان هذا التعانق طريق النجاة والفوز بما أعد ا لعباده المؤمنين.

وعليه فمن آمن بالعقيدة وألغى الشريعة، أو أخذ الشريعة وأهدر العقيدة لا يكون مسلماً عند ا ، ولا سالكاً فـى حكـم الإسلام سبيل النجاة" انتهى.

ولكن الشيخ شلتوت رحمه ا رغم تمييـزه مـا بـين العقيدة والشريعة لم يذكر ما يقتضيه هذا التمييز من اختلاف فى الطبيعة والوسائل والهدف لكل منهما وهذا هو ما قامـت به دعوة الإحياء الإسلامى فى مراجعها. ففى كتاب "حريـة الاعتقاد جاء:

"الإسلام أساساً – وإن لم يكن حصراً – عقيدة وشريعة، وموضوع العقيدة هو البلورة التى قدمها الإسـلام للألوهيـة والرسالة واليوم الأخر وما تكون عليه العلاقة بـين النـاس وا ".

وموضوع الشريعة هو المعاملات والقانون والسياسـة والاقتصاد، وما تكون عليه العلاقة بين الناس بعضهم بعضا.

والعقيدة تتجه إلى الفرد، والقلب..

والشريعة تتجه إلى المجتمع والأوضاع..

والإسلام هو الدين الذى يجمع بين هـذين فـى إطـار واحد، محكم، وإن كان فسيحا. متينا وإن كان مرنا.. وفـى الوقت نفسه فإنه لم يجعلهما شيئاً واحدا لأنهما بحكم الطبيعة والاختصاص مختلفان.

وعبقرية الإسلام هى فى إحكام هذا الجمـع والفصـل، الأمر الذى لم يتأت لغيره من الأديـان والشـرائع والـنظم. فبعضها لم يجمع بين الفصيلتين واقتصر علـى واحـدة، أو حاول الجمع دون إحكام أو توفيق، بينما لم يفصـل بينهمـا البعض الآخر..

والعقيدة هى الأصل، كما ذهب إلى هذا الإمـام الشـيخ شلتوت، والشريعة هى الفرع، لأن الإيمان با ورسله وكتبه هو ما يميز الأديان عن النظم والفلسفات، وهو الأساس الذى ستبنى عليه المصداقية العظمى للشريعة {أنها منزلة من ا } فضلاً عن تأثير هذه الشريعة بروح العقيدة.

إن اختلاف طبيعتى العقيدة والشريعة استتبع اختلافاً فى الآليات وفى الأهداف..

فالعقيدة تتجه إلى القلب وتهدف إلى الإيمان وتعتمد على الوحى المؤيد بالعقل ولها بحكـم طبيعتهـا قداسـة، ولكـن الشريعة تتجه إلى العقل، وتهدف إلى تحقيق العدالة وتعتمـد على القوانين والنظم.

وليس للشريعة القداسة التى للعقيدة رغم أنهـا منبثقـة منها. ولكن لأنها تعالج موضوعات حيوية تتعرض للتغييـر والتبديل وتتطلب المرونة والتكيف مع الأوضاع.

ولهذه الاختلافات انعكاساتها الهامة، وإن كان جمهـور الفقهاء لا يميل لهذا التمييز، وحتى الذين أخذوا به كالشـيخ شلتوت، لم يتابعوا ما تستتبعه من تفرقة وتمييز فى الطبيعـة والوسائل والأهداف رغم أن هذه التفرقة هى التـى سـمحت

لعمر بن الخطاب بأن يتوصل إلى اجتهاداته المعروفة التـى خالف فيها بعض النصوص لانتفاء العلة التى سنت من أجلها فسقط الحكم بالتبعية.

وعندما تضمن الإسلام العقيدة والشـريعة فإنـه كـان يتجاوب مع تكوين الإنسان مـن روح وجسـم وأن للـروح طبيعتها وللجسم طبيعته ولكنهما لا زمان لكمـال الإنسـان فضلاً عن ثنائية أخرى ما بين الإنسان والكون يكون الإنسان فيها هو "روح الكون" بينما يقدم الكون القوى والمادة اللازمة لحياة الروح.

العقيدة

والعقيدة هى كل ما يتعلق با تعالى وبعثة الرسل وعالم الغيب – أى اليوم الآخر وما فيه من بعث وثواب وعقاب.

هذه هى العقيدة وهى صلب الإسلام، كما هـى صـلب الأديان الأخرى. فإنما تتميز الأديان عن الفلسفات وغيرهـا أنها هى التى قدمت تصوراً تعالى. ألحق به بعثة الرسول – وفى الإسلام اليوم الآخر. والإيمان با هو نقطة البدايـة وغاية النهاية ومنها تنبثق توجيهات الدين فى الكون والوجود والإنسان والحياة.

والعقيدة أسبق وأهم من الشريعة، وقد بدأت مع شـهادة الإسلام "لا إله إلا ا محمد رسول ا " وبهذا بعث الرسـول من أول يوم وعن هذا تقدم إلى أهل مكة يدعوهم للإسلام.

وظل الرسول فى مكة ثلاثة عشر عاما يدعو إلى عقيدة الإسلام ولو أن أحداً من الذين آمنوا فى الأيام الأولى للإسلام مات لكان من المحتمل أنه يشرب الخمر، وأنـه لا يقـرب الصلاة، ولا يصوم رمضان ولا يقدم زكـاة.. لأن معظمهـا إنما شرعت فى المرحلة المدنيـة عنـدما تكونـت الأمـة الإسلامية. أما فى مكة فكانت الدعوة مقصورة على العقيدة. وهذه النقطة توضح لنا سبق وأولوية العقيدة – صلب العقيدة أى الإيمان با ورسوله واليوم الآخر على كل شىء عـداها حتى على الشعائر التى سنت فى المدينة وألحقـت بالعقيـدة واعتبرت من مقتضياتها ومكملاتها وتضم الصلاة والصـوم والزكاة والحج. لأن من يؤمن با ورسوله واليـوم الآخـر ويقصر فى كل الشعائر فإنه لا يخرج عن عقيـدة الإسـلام وتضمه مظلة الإسلام وإنما يكون مقصراً فى فروض مهمـة تعد من مكملات العقيدة ومقتضياتها. وحتى فى الرأى السلفى

– السنى فإنه يعاقب بالنار ثم يخرج منها ويدخل الجنة لأنـه بعد كل شىء مسلم.

العقيدة تعتمد على الوحى بالدرجة الأولى لأن الإنسـان حتى وإن استشعر وجود الإله الخالق فإنه يعجز عن تصور ذات وطبيعة الإله. وقد عجزت البشرية عن التصور الإلهى الذى جاءت به الأديان السماوية، وأمضت قرونا طويلة فـى الوثنية.

من هنا فإن الاعتماد على الوحى أصل فى العقيـدة ولا ينفى هذا استخدام العقل لأنه هو الذى ينفى عن الـوحى مـا عساه أن يلحق به من إضافات أو إساءات فى النقل أو الفهم ولكن يظل الوحى هو الأساس.

والعقيدة تستهدف "الإيمان" وما يعنيه هذا الإيمـان مـن رضا واطمئنان وسعادة مبعثها الاهتداء إلى أصـل الحقيقـة والحكمة وخالق الأكوان والرمز الحى الخالد للقيم التى تهدى السلوك وتضبط التصرفات وتحول دون الاستسلام لجمـوح الأهواء واستشراء الشهوات. وفكرة ا تعالى هى واسـطة العقد فى كل الأديان وهى نقطة البداية كما هى نقطة النهايـة

فى كل دين ومنها تنبثق توجيهات الدين فى الكون والوجـود الإنسانى.

الإيمان با

والصورة التى يعرضها الإسلام – هى الحل الوحيد والسعيد أيضاً لقضية الكون والوجود.

لأنها تفترض وجود إله يمثل القوة كلها والحكمة كلهـا والقدرة كلها يخلق هذا الكون ويضع له القوانين التى يسـير عليها بدقه أجزاء من الثانية لا تفاوت ولا اختلاف.

أى شىء أعظم من هذه المليارات من البشر لكل منهـا فكر وعقل وإرادة وشهوات وكل منها يعمل ليظهر المجتمـع بكل مؤسساته، ثم اى شىء أروع من هذا الكـون بمجراتـه وشموسه ونجومه.. كل واحد منهـا يسـبح ويسـير بدقـة الثوانى.. وأى شىء أجمل من الزهـور والثمـار والشـجر والنبات ومملكة الحيوان وما تضمه من حشرات صغيرة إلى حيوانات كالديناصور والبحار وأسماكها من الحيتان الضخمة إلى الطحالب.. أى مخرج يستطيع أن يخـرج هـذا إلا ا تعالت قدرته.. إن هذه كلها هى آيات ا التى بسطها أمـام الإنسان ليتعبد ويتدبر ويتوفر له الوعى والفكر..

مع هذا فإن عالمنا الصغير المحدود الأرض تتحكم فيه ندرة الموارد كما يسئ إليه شح النفوس، ولهذا فإن ا تعالى أراد لنا عالما آخر، بعد الموت، وبعد فنـاء الأرض. يمثـل التحرر من الضرورات والنزعات التى تحكمت فـى العـالم الأرض ويوجد حياة ووفرة بلا حدود.. وصحة بلا أمـراض وسلاما دون قلق.. وعدلاً لا يجحد العاملين وضعهم وحقهم.

ا هنا يمثل العقل، والقصد، والغائية والحكمة والمقدرة والعدالة، فلو استبعدناه فبماذا نبرر وجـود هـذه الأكـوان وانتظامها العجيب.

المصادفات الشرود التى لا يتأتى لها انتظام أو منهجية.

التطور العشوائى الذى هو مجموع المصـادفات علـى توالى العهود.

الإلهة الغضاب القُلب الـذين نجـدهم فـى الوثنيـات والميثلوجيات.

وهل يكون التطور الذى يعتبر أن ملايين السنين تهيـئ الأمور وتحكم العلاقات وتبنى الأنسجة والأعضـاء.. حتـى تخلق إنساناً سويا من "اميبيا أو علقة"، ولو فرضنا هذا فـأنى

لهذا التطور أن يرسم مسارات النجوم والكواكب بأجزاء من الثانية.

هل هى الطبيعة التى يلوذ بها الأوروبيون، ويكلون إليها كل عمليات الخلق والتطور الخ... ويقيمون هذا لا على أسباب محددة، ولكن هرباً من ا   وما يعنيه من غيبيات وما يستتبعه من حساب وعقاب، وهذا الافتراض يتهاوى لو تساءلنا هل لهذه الطبيعة عقل وقوة خلق.. فإذا كان ذلك فإنها ليست إلا تعبيراً فجا عن ا . وإذا لم يكن فكيف يتأتى لمن ليس له عقل ولا قدرة على الخلق.. أن يخلق العقول ويحكم الوجود..

قد يقال إن التصوير الإسلامى   فرض عريض وخيال واسع وضعه الإنسان حلاً لمشكلته فنقول أليس هو الفرض الذى يحل المشكلة أفضل حل.. ولا يعارض العقل، بل إنه يفترض العقل. وبالتالى يتقبله العقل أليست العلوم نفسها قامت على أساس فروض طرأت على فكر العلماء بدت أولاً بعيدة ولكنها كانت سليمة فحققت الإنجازات.

فهذا كذاك...

وقد بلور الإسلام عقيدة ا بشكل قوى فرفض رفضـاً باتا تعددية الوثنية وتجسيم الإلهة كما رفض أن يكون مجرد "فرض" فلسفى لابد منه لاتساق الكون كما ذهب إلـى ذلـك الفلاسفة ورفض بالطبع أن يكون إلها إقليميا، أو إلها لجـنس واحد، كما رفض كل أثارة لشرك وأعلن التوحيـد المعجـز الذى هو السر الذى انفرد به ا وجعل الشهادة الإسلامية "لا إله إلا ا ".

وأبرز الصفات التى توجبها العقيدة الإسـلامية هـى القوة المطلقة التى لا حد لها والتى خلق بها هذا الكون مـن سماوات وأرضين وإنسان وحيوان والتى تجعله يحيى العظام وهى رميم ويعيدها مرة أخرى ثم الحكمة التى تجعـل هـذا الخلق كله منتظما يسير بدقه أجزاء الثانية وتتفاوت مفرداتـه وذراته لتحقيق الكيان الأكبر وأخيراً العدل الذى هو فضـيلة الفضائل وهى التى تربط كل العوالم بعضها ببعض وتنسقها.

لقد أثارت الصفات التى تصف ا تعالى بأنـه الجبـار المهيمن المتكبر شديد العقاب. انتقاد بعض المسيحيين وقارنوا ذلك بربهم رب المحبة الذى فداهم وأنقذهم من الخطيئة بدمه، والذى يدعو لأن يحبـوا أعـداءهم الـخ... وارتـبط "ا "

الإسلامى فى ذهن الأوروبيين بـالجبروت وا   المسـيحى بالرحمة، ويقول كتيب صدر عن مؤتمر للمبشرين سـنة ٢٩ "اعتقاد المسلمين فى ا   فى كونه إلها يطلب إلى الإنسان أن يحب أحباءه ويبغض أعداءه لكن المسيح أرانا ا   كمـا هـو إلها واسع القلب غفوراً رحيماً يطلب إلى الإنسان أن يحـب أعداءه وهو تصوير مبتسر غير دقيق لأن الإسلام يأمر "صل من قطعك وأحسن إلى من أساء إليك" ولأن ا   تعالى غفور رحيم، ولأن رحمة الأم بابنها تمثل واحد من مائة هى رحمة ا   الخ... وقد كتب على نفسه الرحمة ولا يظلم مثقـال ذرة وأن تك حسنة يضاعفها. إن تصور القرآن لقدرة ا   المطلقة شرط لتمام كمال التصور الإلهى. لأنه إذا وجد من يسـاويه فى القدرة، فلا معنى للوحدانية ويمكن أن يكون هناك إلهـة أخرى. وهذه هى الوثنية.

إن ا   تعالى – مع قدرته التى لا حـد لهـا وانفـراده بالألوهية يشهد الملائكة وأولى العلم على قيامه بالقسط ﴿شَهد الله َأنه لا ِإلَه ِإلا هو والْملاِئكَةُ وُأولُوا الْعِلْمِ قَاِئمًا ِبالْقِسـطِ﴾. فانظر إلى تعبير قائماً بالقسط عندما ينسبه ا   تعالى لنفسـه، نجد إن لا تعبير كهذا يبرز قداسة القسط – أو العدل.

الحق أنه لم يواجه دين قضية الألوهية، والخلق، والوجود بصراحة ووضوح مثل الإسلام. فاليهودية إلهها إله خاص ببنى إسرائيل لا يعنيه إلا مصلحة بنى إسرائيل ولا علاقة له ببقية البشر. ومع أنه الدين الأول الذى سجل رؤية عن خلق الله للعالم، فإنه ينتقل انتقالاً غريباً من العالم بأسره. ومن آدم وأولاده إلى إبراهيم وبنى إسرائيل. وما أن يبلغ هذه المرحلة حتى ينسى كل العالم الذى خلقه، وكل الوجود وكل بنى الإنسان، ولا يعنيه، ولا يتحدث إلا عن بنى إسرائيل.

وفكرة الألوهية فى المسيحية غامضة، مع أن فكرة المحبة والفداء هى من أنبل الأفكار إلا أن تجسيدها فى الإله تجعلها فكرة إنسانية أريد بلورتها فى طابع لاهوتى عن طريق التثليث. ولكن الفكرة كلها غامضة، تعد من إسرار الكنيسة وكانت وراء كل الانشقاقات المذهبية، كما صرفت كثيراً من المفكرين عن الإيمان بها. أما فى الإسلام فالفكرة واضحة، محددة صريحة لا خفاء فيها إلا شىء هو أن العقل البشرى يعجز عن تصور ذات الله، أو طبيعته وهو ما يعد أمراً طبيعياً إذا كان هو الخالق ليس فحسب للإنسان، ولكن للكون نفسه من أصغر الحشرات حتى أكبر المجرات.

ويديرها كلها بمنتهى الحكمة والدقة والكمال. فمن الطبيعى أن يعجز الإنسان عن فهم ذات ا ولو توصل إلى ذلك لكان هو إلها. وهو أمر لا يستقيم. وحسب الإنسان أن يعلم عن ا ما فتح ا أمامه الآفاق ليعلمه وما وضعه فى يده وعقله من قوى وملكات وأن يعلم أن ا تعالى وإن كان أصل القدرة كلها. وأن هذه القدرة لا حد لها. فإنه تعالى كتب على نفسه الرحمة، وأنه لا يظلم الناس شيئاً ولا مثقال ذرة. وإنه يضاعف لأصحاب الحسنات ثوابهم. وأنه يعلم النفس البشرية بما جبلها عليه من ضعف وقوة، وفجور وتقوى يجعل الوجود مبارزة ما بين غواية الشياطين التى رمز القرآن بهم للشر. وهداية الأنبياء وأن حياة المسلم يجب أن تكون جهاداً فى هذا السبيل. مع التسليم أنه ليس ملاكاً وأن فيه ضعفاً مغروساً. ولكن بحسبه أن ترجح حسناته سيئاته.. فيخرج فائزاً فى النهاية..

وقد كرم ا الإنسان وجعله خليفة على الأرض، وعلمه الأسماء وزوده بالعقل وسخر له قوى الطبيعة، وفى دين يقوم على التوحيد يكون هذا هو أقصى تكريم، ولكن هذا لا يعنى أن الإنسان هو المشغلة الوحيدة . فا خالق الشموس

والأقمار التى لا تكون الأرض وإنسانها إلا ذرة من رمال أو قطرة من بحر.. ورحمته وعنايته تضم كل نملة ونحلة، وكل خروف ونعجة. وعدالته تمتد حتى تسأل الشاة الجماء الشـاة القرناء لم نطحتها وهو يستطيع أن يخلق أناسى يكون لهم من الملكات أو الأشكال ما يعجز عن تصوره إنسان..

وا تعالى رغم قدرته المطلقة وضع سنناً ومبادئ يسير عليها الكون، وألزم نفسه بها لأنه هو الواضع لها. فـالالتزام بها التزام بإرادته ومشيئته فقال ﴿ولَن يؤَخر الله نَفْسًا إِذَا جاء أَجلُها﴾. وقال ﴿إن الله لا يغَير ما بِقَومٍ حتـى يغَيـروا مـا بِأَنفُسِهِم﴾.

ولا تجد كتابا سماويا يعنى بالطبيعة، والكون مثل القرآن فهو يتحدث أحاديث طويلة عن السماء التى رفعها بغير عمد، والأرض التى دحاها، وعـن السـهول والجبـال والريـاح والعواصف والأمطار التى تحيى الأرض بعد موتهـا وهـو يتحدث عن الليل والنهار وعن السباحة الدائمـة لكـل هـذه الكواكب، والصلاة التى لا نعلمها، وكيف أنه يخرج الميـت من الحى، والحى من الميت، ويولج الليل فى النهار ويـولج النهار فى الليل وكيف أن الشمس والقمـر والنجـوم كلهـا

مسيرات تسبح وتدور بدقة لا يمكن معها لاحداها أن يسبق أو يتأخر عما كتبه ا له.

وعندما نقرأ أسماء السور نجد سوراً تحمل اسم "البقرة" و"النمل" و"النحل" و"العنكبوت" و"الدخان" و"الحديد" و"التـين" و"الليل" و"الشمس" و"الضحى" و"الزلزلة" و"الفيل" مما يجعـل من لا يفهمون الإسلام يتساءلون ما لهذا الكتاب وهو كتـاب دين وهداية يعنى بهذه الموضوعات.

إن ا تعالى لأنه خالق الجميع، ولأن الجميع يشتركون فى عبادته والتسبيح له يضع الإنسـان وسـطها، كجـزء لا يتجزأ من هذا الكون، لا يستقيم أمره دون هذا الكـون، ولا يستقيم الكون أيضاً إذا شذ عنه، فالعلاقة وثيقة بين الإنسـان وبين الكون وبين هذين وبين ا . وبين الإنسان الطبيعة بمـا فيها من مناخ، وهواء وحيوان وبنات الخ... وقـد أعطـى الإنسان الملكات التى تجعله يسخر الكون للخير والصلاح لا للشر والفساد.

إن هذا النصوع والقوة والوضوح فى عرض فكرة "ا تعالى يعد من أكبر أسباب قوة وتماسك الإسلام" وإمكان فهمه والإيمان به..

وبالطبع يمكن للشانئين أن يتصـيدوا جزئيـة صـغيرة يظنونها نقصاً، ولكن هذا لا ينفى أبـداً أن معمـار الفكـرة الإسلامية عن ا تعالى والوجود معمار قوى مدعم.. وفـى الوقت نفسه أقرب التصورات إلى العقل لأنه يحـل مشـكلة المصادفة العشوائية أو التطور الذى يتكون عقله من تـوالى السنين دون أن يكون هناك دليل على هذا، ثم هو إذا صـدق بالنسبة للإنسان فإنه يعجز عن تعليل وجود الكـون وسـيره بدقة الثانية وأجزاء من الثانية؟.

لا مفر من ا إلا إليه، وحيثما تولوا وجوهكم فستجدون أمامكم الإله الإسلامى "ا " فلا يمكن فهم الكون إلا بـه، ولا يمكن الفرار منه..

وقد قلنا فى مناسبات سابقة إن ا تعالى الـذى جبـل الإنسان يعلم أن من النفوس نفوس وعرة غلب عليها الظلـم وحب السيطرة واستغلال الناس وتبلدت فيهم حاسة الرحمة. ولابد لمخاطبة هؤلاء من التقريع والتخويف من قوة أقـوى منهم لأن هذا هو المنطق الوحيد الذى يكبح جماحهم فالإسلام لا يدلل الظالم ولا يدير له الخد الأيسر ولكنه يوقفه ويكـبح

جماحه ويوجه إليه الخطاب باللغة التى يفهمها ويقدرها، لغة القوة.

لقد كانت القيمة الحاكمة فى الحضارة الأوربيـة هـى القوة، ولم تمجد القوة فى حضارة كما مجدت فى الحضـارة الأوروبية فهل من المفارقات أن تنقم أوروبا على الإسـلام إلهه القوى، أو أنها تريد أن تستأثر بالقوة ولا تريد أن تـرى إلها اقوى منها وإنما إلها كله رحمة ومحبة وتسـامح حتـى يغفر لها خطاياها.

والذين يبرزون عنصر القوة والجبروت فى ا ينسون أنه كذلك إله الرحمة والمغفرة وأنه لا يظلم أحدا مثقـال ذرة ويضاعف له الحسنات أضعافاً مضـاعفة. وأن رحمـة الأم بولدها هى جزء من مائة جزء من رحمة ا وينسون ألقاب الغفور – التواب – السلام – اللطيف – الرؤوف – العفو – الرحمن – الرحيم – الحليم، وأن كل سورة تقـرأ "بسـم ا الرحمن الرحيم" وأن الإسلام مشتق من السلام. وليس مـن العدل إبراز ناحية وإغفال نواح أخرى:

كما أنهم بالنسبة لعلاقته بالإنسان ينسـون أنـه جعـل الإنسان خليفة له فى الأرض. وفضله على كثير مـن خلقـه

وسخر له القوى الكونية.. وعلمه الأسماء كلها.. ولعله الدين الوحيد الذى فضل آدم على الملائكة وجعلها تسجد له.

وكل دارس للأديان يعلم أن الإسـلام يجابـه الأمـور بصراحة وواقعية وأنه يتعامل مع الطبيعة البشرية كما هـى وبالصورة التى تيسر لها الهداية وأنه عندما يلجأ إلى الثواب والعقاب الترغيب والترهيب إنما يعالج الجوانب الحساسة فى النفس البشرية، بل والتى تنعكس على المجتمع.. علـى أنـه يقبل المؤمنين ﴿الذِين يجتَنِبون كَبائِر الإثْمِ والْفَواحِشَ إِلا اللمم إِن ربك واسِع الْمغْفِرةِ﴾. ويتجاوز عن سيئات الذين قـدموا. وعملوا.. ﴿أُولَئِك الذِين نَتَقَبلُ عنْهم أَحسن ما عمِلُوا ونَتَجاوز عن سيئَاتِهِم فِي أَصحابِ الْجنةِ وعد الصـدقِ الـذِي كَـانُوا يوعدون﴾. {١٦ الأحقاف}..

واعتقد أن عزوف أوروبا عن الإسلام إنما يعـود إلـى طابعة الجاد القوى فيما يتعلق بالتزام الإنسان.. وأن المسيحية لم تكن مؤثرة على الفرد الأوروبى أو المجتمع الأوروبى إلا فترة القرون الوسطى والعهد الذى أطلق عليه ويل دورانـت فى موسوعته عن الحضارة عهد الإيمـان. عنـدما كانـت الكنيسة الكاثوليكية هى سيدة المجتمع والحاكمـة فيـه. وأن

ثورة المجتمع الأوروبى فيما سمى "حركـة الإصـلاح" وإن كان لها ما يبررها من ناحية تعصب وسيطرة الكنيسة علـى الحكام وعلى المفكرين إلا أنها كانت تتضمن معنى خافيا هو التحرر من سيطرة الدين نفسه وليس الكنيسة. ولـذلك فـإن حركة الإصلاح جاءت بأفكار تتحلل مما كانت تتمسك بهـا الكنيسة، بحيث لم تعد قيم المسيحية تـؤثر علـى المجتمـع الأوروبى، وإنما يؤثر عليه أدبيات "كانت" وجدلية "هيجـل" ورأس المال الذى دارت حوله مباحـث مـاركس ونظريـة فرويد عن الغريزة فهؤلاء هم أنبياء الحضـارة الأوروبيـة الحديثة، وإذا كان لها من أنبياء دينيين فقد نجدهم فى التوراة أكثر مما نجدهم فى الأناجيل، ولا يمنع هذا مـن أن تكـون الكنيسة بروستانتية أو كاثوليكية قوية غاية القوة لها أمـوال ضخمة وإقبال ووزن لأنها مطلوبة فى المجتمع الأوروبـى لممارسة الطقوس الاحتفالية التى حلت محل الدين وهذا شىء يريده المجتمع ولا يخسره شيئاً من حرياته – إنها تقـوم لـه بكرسى الاعتراف الذى يغفر له خطاياه..

ومن النقط الهامة فى تكييف الإسـلام لعقيـدة الله تعـالى نقطتان:

الأولى: أن الله تعالى لا يظلم مثقال ذرة، وأن تك حسنة يضاعفها هذا ما كرره القرآن وما دعمته أحاديـث، وهـذه المضاعفة قد تصل إلى سبعمائة ضعف لأن خزائن رحمة الله لا تنفذ والله تعالى وإن أوجب عقاب الآثمين فإن رحمته تفوق عدله.. وأنه يغفر الذنوب جميعاً ويتجاوز عن السيئات.

الثانية: أن الله تعالى وضع لسـير الكـون والمجتمـع مبادئ طبيعية ثابتة وألزم نفسه بها لأنها من وضع الله نفسه ولأن الطريقة التى خلق بها هذا الكون، والمجتمع لا تسير إلا بها، ومن هنا فإن الله تعالى يعملها ويجعلها محور التصرف. وليس هناك ما هو أصرح فى هذا المعنى من ﴿ولَن يـؤَخر الله نَفْسًا إِذَا جاء أَجلُها﴾. ﴿إن الله لا يغَير ما بِقَـوِمٍ حتـى يغَيروا ما بِأَنفُسِهم﴾.

ومعظم إشارات القرآن الكريم إلى الله تعالى تتركز فى هذه الجوانب لأن العقيدة الإسلامية ليس فيها لاهـوت علـى الإطلاق فهى بسيطة. ومنطقية، وإن كان العقل يعجز عـن تصور ذات الله تعالى. فليس فيها ما يخالف العقل ولكن فيها

ما يجاوز العقل.. وقد وجه القرآن المسلمين لأن لا يضربوا الأمثال لأنه ليس كمثله شىء ولا تناله الأنظار، كما أمـر الرسول المؤمنين أن يفكروا فى خلق ا وآلائه وليس فـى ذاته وصفاته. وهكذا كان الرسول وصحابته.

ولكن دخول جماهير غفيرة من الفرس والروم والتـرك الخ... فى الإسلام حاملين رواسبهم الحضارية القديمة مـن وثنية ويهودية ومسيحية أقحمت فى العقيدة الإسلامية قضـايا لم يكن لها وجود وقيل أيضـاً أن حمـل الـدعوة للإسـلام ومناقشة غير المسلمين تطلب إثارة هذه القضايا. ومن يقـرأ كتاب الملل والنحل للشهرستانى ويرى الحجم الكبير للتيارات العديدة الوافدة على الإسلام يكاد يؤمن بأن التوجهات التـى أثارها المعتزلة لم تكن خالصة لحرية الفكر والعقـل وإنمـا أقحمت على العقيدة الإسلامية الخالصـة البريئـة أخلاطـا وأوشابا من العقائد الأخرى ومن الفلسفات اليونانية الوثنيـة أساءت بها إلى الإسلام وكدرت صفوه وعسرت يسره.

وصور منطقهم فى الحقيقة ما ذكره "إخوان الصـفا" إن الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسيلها وتطهيرها إلا بالفلسفة.

ولم يكن لهذا كله ضرورة حقيقية، ولكنه صـورة مـن صور ما يحدثه التطور بالأديان، وأدى لظهور علم إسـلامى أسمه علم الكلام أو التوحيد بعيد كل البعد عن منطق وأسلوب القرآن فى البرهنة على وجود ا وصفاته، مما كان يغنـى عنه، وما يبنى البرهان على البداهة فى كل إنسان. ﴿أَم خُلِقُوا مِن غَيرِ شَيءٍ أَم هم الْخَالِقُون﴾. ﴿لَو كَان فِيهما آَلِهةٌ إِلا الله لَفَسدتَا﴾. {٢٢ الأنبياء}..

رسالة الرسول

لعل الإيمان برسالة الرسول هى أهون الـثلاث التـى تكون العقيدة. فقد عرف رسول الإسلام قبل أن يتلقى الوحى بالأمانة والاستقامة، وليس هناك ما يدعو ليتحول عن ذلـك، وقد عرضت عليه قريش المال والجاه والملك فرفض ذلـك وتمسك بالإسلام رغم ما ناله من اضطهاد. ومن ناحية أخرى كيف يتأتى أن يأتى بهذا القرآن البليغ الذى لم يعهـد، ولـم يسبق والذى تميز باعتراف الكفار أنفسـهم بالإعجـاز ولـم يجدوا ما يطلقون عليه إلا أنه سحر يفرق بين الرجل وآله.. وبأى قوة استطاع أن يسوس العرب ويقدم فى المدينة المنورة

مثالاً لأمة استكملت كل شروط المجتمع الأمثل.. علما بأنه لم يدخل جامعة ولم يتعلم على يدى فيلسوف..

لقد قلنا عن هذه النقطة فى كتابنا "روح الإسلام[1]".

"وعندما نطالب إلى الناس الإيمان بأن محمـداً رسـول موحى إليه من ا ، فنحن نطالـب إلـيهم أهـون اختيـارين وأكثرهما سلاماً.

ذلك أننا إذا وضعنا مآثر أكبر الزعماء والقـادة الـذين أنجبتهم البشرية، أمام مآثر محمد.. لبدت الأولـى ضـئيلة، قميئة معيبة أمام الثانية..

فقد كان محمد نبياً جاء بدين ناجح وسياسياً بنى أسـاس دولة ورثت الإمبراطوريات القديمة، ومشرعاً وضع قانونـاً عبقرياً يشمل العقوبة الجنائية والعلاقات الشخصية والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، وبليغاً جاء بجوامع الكلم واعتبرت أحاديثه قبسا من الحكمة. وقائداً عسكرياً مظفراً. ومثلا أعلى في الخلق الكريم، ونتيجة لهذا فإن اسمه لا يزال منـذ ألـف وأربعمائة عام حتى الآن يتردد خمس مرات كل يـوم فـي أربعة أركان العالم كلما أذن لصلاة. ولا يزال مثواه الأخيـر

---

(١) روح الإسلام جمال البنا الطبعة الثانية ص١١٥ (دار الفكر الإسلامى).

علماً منوراً يهرع إليه المؤمنون من أقطار الأرض يحـدوهم الشوق لكى يقفوا بين يديه في تلك البقعة التى قال عنها إنهـا "روضة من رياض الجنة ".

من ذا يسامى هذه المآثر، أو يظفر بمثل هذه المنزلة..

لقد كان الاسكندر فاتحاً عسكرياً مظفراً، وتتلمذ على يد "أعجوبة البشرية" أرسطو، ولكنه لم يكن المشرع ولم يكـن النبى، وما أكثر ما غلبته انفعالاته وورطتـه فـي منكـرات وآثام.

وكان "أعجوبة البشرية" ارسطو فريـداً فـي الفلسـفة والمنطق والآداب والعلوم، ولكنه لم يكن رجـل الدولـة ولا رجل الدين.. ولا القائد العسكرى.

وكان قيصر رجل دولة، ورجل سياسة وآداب وقائـداً منتصراً ولكنه لم يكن رجل الدين أو المشرع وفوق هذا فقـد كان رجل كل امرأة.. وامرأة كل رجل ..

وكان نابليون رجل دولة، ورجل سياسة وقائداً عسكرياً، ومشرعاً ولكنه لم يكن صاحب الدين أو رجل اللغـة والأدب أو المثل الأعلى في الأخلاق.

وكان كل من "شكسبير" و"جوته" علماً من أعلام الأدب والشعر والمسرح ولكنهما كانا أصفاراً في السياسة والتشريع والقيادة العسكرية أو الرسالة الدينية.

إن الشخصية الباهرة غير العادية للرسول العربـي قـد فرضت نفسها من الوهلة الأولى مع تلك الجملة التي ما كانت تشبيهات شكسبير وتهاويله لتصل إلى ما هو أبعد منها ".. لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أتـرك هذا الأمر ما تركته.. ".

فهل كان يمكن للإسكندر، أرقى ثمرة للثقافـة الهيلينيـة وتلميذ أرسطو أن يقول شيء كهذا

أي قائد، أو ملك أو إمبراطور أو نبي في العالم يستطيع أن يقول كما قال محمد عن أصحابه: "أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم.. اهتديتم"..

وأصحاب أي قائد ظفروا من الأجيال بتوقير وتبجيـل كما ظفر الصحابة ؟ إن مجد محمد الذي أنعكس عليهم امتـد إلى أصحابهم فقيل لهم "التابعون" وإلى أصحاب هؤلاء فقيـل "تابعو التابعين"..

أي جنود معركة نالوا مثل "الوسام" الذي منحه محمـد لجند بدر "إنه شهد بدراً، وما يدريك لعل ا   اطلع على أهل بدر فقال افعلوا ما شئتم"..

أي بشر يصل به الاعتزاز وتملك قياد البلاغـة وقـوة التصوير إلى أن يقول لأصحابه "لو كنتم فـي أهلكـم كمـا تكونون معي لصافحتكم الملائكة !!".

وكل هـ ـذا...

يصدر من عربي أمي لم يقرأ ولم يكتب ولم يتعلم علي يد فيلسوف..

فإذا لم يكن هذا وحياً، وإذا لم يكن محمد نبياً، فإن البديل الوحيد هو أن يكون محمد – كما كان يـري اليونـان والرومان – إلها، أو نصف إله.

ليس هناك مشكلة فى الإيمـان برسـالة الرسـول لأن الإيمان بها حل لهذه المشكلة، وإذا استبعدنا هذا الحل ظلـت المشكلة قائمة دون حل.

الإيمان باليوم الآخر:

هو أصعب ما فى العقيدة لأن من العسير علـى العقـل المادى أن يتقبل أن الناس بعد موتهم سيبعثون.. ثم يحاسبون – ويثاب المحسن بالجنة ويعاقب المسىء بالنار.

إن هذه الحقيقة الإيمانية هى فـى أصل عـزوف معظم الذين انصرفوا عن الأديـان ﴿وقَالُوا ما هِي إِلا حياتُنَا الدنْيا نَموتُ ونَحيا وما يهلِكُنَا إِلا الدهر﴾. كما هـى أيضـاً سـر عزوف كثيرين عن الإيمان بالجنة والنـار بـدعوى عـدم استساغة ذلك. وهى دعوى متعسفة تقـوم علـى هـوى أو عاطفة وليس على أساس من منطـق لأن المـادة لا تفنـى، والوجود أوجب من العدم والبقاء أقرب من الفناء فما الـذى يمنع ا تعالى، وهو القدير على كل شىء، والخـالق لهـذا الإنسان – أن يعبده؟ خاصة إذا وضعنا فـى اعتبارنـا مـا سنشير إليه فى فقرة لاحقة من استخدام المجـاز والحـرص على تحقيق الصدق الفنى وليس الصدق اللفظـى بحيـث لا يكون شرطاً أن يتم البعث بالصورة التى فى أذهاننـا. فـا تعالى يمكن أن يحققه بالصورة التى يراها..

وليس فى هذا كله مـا يستعصـى علـى المنطـق، أو يستوجب استحالة ولكن العامل الأعظم فـي جحـد البعـث والثواب والعقاب هو غلبة الألفة والاعتماد فى الإثبات علـى الحواس والعنصر المادى وأن فكرة الحساب والعقاب تضـع قيداً على الحرية الأوروبية حتى لو كان هذا القيد هو السلامة والعدالة، لأن إرادة الفرد المحررة من كل قيد هـى حجـر الزاوية فى الحضارة الأوربية.

وفكرة الثواب والعقاب ترتكز على قـرار مكـين فـى النفس البشرية، وباطل ما يدعيه البعض من أن البشرية قـد تسامت على الخضوع له، ففى مجال الأعمال – أى العمـل مع الشركات – وهو كتلة الاقتصاد، يظل أبرز دافع فيه هـو الثواب والعقاب، ولا تستشعر الشـركات رحمـة نحـو أى تقصير، وما لم يصلح العقاب فى المقصر فإنه يفصـل بـلا رحمة كما قد يعاقب من يقطف زهرة أو يلقى بقمامة الخ... بل إن الثواب والعقاب قد يأخذ شكل رد الفعل الطبيعى. فلـو لم يتيقن شخص من أنه إذا صفع الآخرين، فـإن الآخـرين سيصفعونه، لما تردد ولولا أنه يخشى التهور فى القيـادة أن يصطدم لما أبه .

وعلينا أن نعلم أن الأديان لم يكن لديها مناص مـن أن تنهج المنهج الذى أخذته بالفعل لأن البشرية كانت فى مرحلة طفولتها وفى إسار الوثنيات وكان لابـد أن تخاطبهـا بهـذا الأسلوب، وما كان يمكن للأديان أن تقضى مرة واحدة على مفاهيم ترسبت بحكم الأوضاع، إلا بما وضعه ا من وسائل ذالك

ثم هناك ما أشرنا إليه من وجود نفوس جافـة غليظـة قاسية لا ترتدع إلا بمثل هذا التخويف، وقد نزلـت الأديـان للناس كافة، بل إن عنايتها بمن هم فى حاجة للتقويم أشد من عنايتها بغيرهم ..

وقد استخدم القرآن الكريم المجاز والاسـتعارة عنـد الحديث عن الجنة والنار، والثواب والعقاب أولاً لأنه لا يمكن الحديث عن الغيب بطريقة السرد العادى التى تكشف عن هذا الغيب، بما لا يجعله غيباً. وثانياً لأن المجـاز والاسـتعارة الخ... تحقق أعظم تأثير، حتى وإن حل "الصدق الفنى" محل الصدق الحرفى أو اللفظى، وعندما نقول عن شخص ما إنـه بحر فى السخاء. أو أسد فى الشجاعة، فإن هذا يوجد انطباعاً أعمق وأكثر من أن نقول إنه شجاع وإنه كـريم، حتـى وإن

جعلناه بحراً وأسداً وهو فى الحقيقة رجل كالرجـال. وقـرر القرآن الكريم ﴿فَلا تَعلَم نَفْس ما أُخْفِي لَهم مِن قُـرةِ أَعـينٍ جزاءً بِما كَانُوا يعملُون﴾. {١٧ السجدة}.. فتضمنت الآية عدم العلم والخفاء، وروى ابن تيمية فى رسالة "الإكليل فى التشبيه والتأويل" عن ابن عباس أن ليس فى الجنة مما فى الـدنيا إلا الأسماء، فإن ا أخبر أن فى الجنة خمراً ولبناً وماء وحريراً وذهباً وفضة وغير ذلك ونحن نعلم قطعاً أن تلـك الحقيقـة ليست مماثلة لهذه، أى مما فى الدنيا، وما يقال علـى الجنـة يقال على النار.

ومن ثم فإن من يعزف عن الاستمتاع الحسى ويـرفض التعذيب الحسى فإن نفسه تستريح للتفسير على هذا الأسـاس أى أن كل ما جاء عن العذاب والثواب من ولـدان مخلـدين وحور عين ومهل يشوي الوجوه ألخ ... إنما يمثل بأسـلوب المجاز والرمز والصدق الفنى وليس الصدق اللفظى وعلـى ذوى المشاعر النبيلة والقلوب الرقيقة أن ينظروا فى آيـات رحمة ا ، ولهم أن يثقوا أن الآيات القارعة لم توضع لهـم، ولكن هناك نفوس كثيرة لا تتأثر إلا بهـا ولا يجـدى فـى إصلاحها إلا هذا الأسلوب.

وقد يجوز لنا أن نضيف إلى ذلك الأثر السـيكولوجى، فإن الإيغال فى أعماق النفس الإنسانية يثبت أن لهـا أوتـاراً حساسة يجعلها تستمع وتتفاعل معها أكثر مما تستمع وتتفاعل مع الأسلوب العلمى الذي يميز الخطأ والصواب ولكنه يقـف عاجزاً أمام النفس البشرية والإرادة فهنا تسـيطر العاطفـة والوجدان بحيث يكون لها من الأهمية ما يعـادل العقـل أو يفوقه ، ونفوس الناس فى هذا سواء لأنها فى أغوار وأعماق النفس، وإذا كان هناك اختلاف فهو فى الدرجة ولـيس فـى الماهية.. ولما كان القرآن كتاب هداية، لا تـتم إلا بالتـأثير على النفس، وما دام فى النفس ما لا يتجاوب إلا بالدق على هذه الأوتار، فلا حرج على القرآن إذا هو تعامل مع الـنفس الإنسانية بما يتجاوب معها، بما فيها من فجور وتقوى خاصة وأن المقصد فى النهاية هو الهداية، وهو مقصد نبيل.

على إنى لا أرى فى الاستمتاع الحسى حرجاً وأرى أن فى تنديد المجتمع الأوربى به نوعا من النفاق لأن الاستمتاع الحسى هو الثمرة المشتهاة والمطلوبة بعد العمل والكدح فـى المكاتب والمصانع وفى شتى مجالات العمل فـى المجتمـع الأوروبى فهم جميعا يعلمون أنهم سيحصلون فى النهاية على

الزى الجميل والطعام الشهى والخمر المعتق. وكلهـا متـع حسية ثم يتناولون العشاء فى مطاعم تقوم بالخدمة فيها فتيات نصف عاريات وقد تنتهـى الليلـة بـالرقص أو بعـرض استربتيز... ليختموا حلقة الاستمتاع الحسى فى بيوتهم مـع عشيقاتهم أو زوجاتهم فإذا كان ثواب الحضـارة الأوروبيـة المقرر والممارس هو هذا فلماذا يعـاب هـذا نفسـه علـى الإسلام. علما بأن جنة الإسلام هى لمن أحسن عملاً. وأنهـا تفتح أبوابها للكادحين والمستعبدين والمحرومين الـذين لـم يستمتعوا فى حياتهم وإنما أمضوها فـى المشـقات والعنـاء والتضحيات. فإذا كان الإسلام قد عرض منذ ألف وأربعمائة سنة صورة لهذا الاستمتاع الذى لم يكن تقدم المجتمـع فـى العالم كله يسمح به، ولم يصل إليها العالم إلا حـديثا وفـى المجتمعات الأوروبية/ الأمريكية الغنيـة وإذا كانـت هـذه الصورة قد دفعت الجماهير للخير والصلاح وتطبيـق القـيم التى يدعو إليها الإسلام من صدق وخيـر وحـب وحريـة وإخلاص فى العمل الخ... فأين الخطأ فى هذا؟ على الأقـل لقد قدم الإسلام صورة لاستمتاع كانت آفاق المجتمعات وقتئذ لا تسمح بها – اللهم إلا للملوك والأباطرة. وفى النهاية فـإن

الأمر لا يعدو أن يكون صدقاً فتوجد جنة تشابه – وتفوق – ما استهدفه المجتمع الأوروبى.. أو أن يكون هـذا أمـلاً أو أمانى.. وحتى هنا فإنه ساق الجماهير للعمل والكفاح والصبر والالتزام بالقيم وماتوا وعلى شفتيهم بسـمة الأمـل.. مـع ملاحظة أنهم ما كانوا يستطيعون الثورة على عالمهم المظلم، وقد فشلت ثورات الفلاحين فى إنجلترا وألمانيا ما بين القرن الثالث عشر والسادس عشر وتعرضوا لمزيد من التضحيات والكفاح المرير وتكرر هذا ولو بصورة مخففة فى النكسـات التى تعرضت لها إنجلترا على يدى مسز تاتشر وسياسـات الشركات عابرة القارات ومتعددة الجنسيات فى العالم بأسره.

إن عالمنا تحكمه ندرة الموارد وشح النفوس ولكن مـن قال إن عالمنا هذا هو العالم الوحيد أو الأمثل فى الكون؟ إن الكرة الأرضية فى الكون ليست إلا كحبة رمل فى صحراء.. وا تعالى الذى أوجدها (وللذين لا يؤمنون با أن يقولـوا الطبيعة أو التطور) لا يعجز عن إيجاد عـالم أخـر يزخـر بالموارد وينهى الشح من النفوس.

لقد صور الدوس هكسلى فـى كتابـه "العـالم الجديـد الشجاع" عالماً جديداً تحكمه التكنولوجيا التى وفرت الموارد،

ولكه حمل إلى عالمه الجديد رواسبه فجعله أكثر قوة وروعة ووحشية وطبقية وكان دليلاً على أن القصـور البشـرى لا يمكن أن يتصور "جنة" بالمعنى الإسـلامى لأن التصـورات البشرية غالبة عليه.

أما التعذيب فى نار الجحيم، فـإن مـا اقترفـه أكـابر المجرمين من قادة الجيوش الذين أوقدوا حروبا احترقت فيها الملايين وكل زعماء الشيوعية فى الشرق والغـرب وكـل الطغمة العسكرية فى الدول العربية والأعوان الذين سـاعدوا أو طبقوا ما أمروا به من منكرات فإنه يبدو عذاباً عـادلاً.. وإذا كانت عقوبة من يقتل واحداً هو القتل فكيف تحقق العدالة فيمن قتل مليونا أو أكثر؟ إن ما اقترفه هؤلاء القادة من إبادة الملايين هو وحـده الذى يفسر الآيـة.. ﴿كُلمـا نَضِـجتْ جلُودهم بدلْنَاهم جلُودًا غَيرها﴾. والقضية بعد ليست جديـدة، كما يظن، فقد عرضها على النبى نفسه أولى الناس بالـدفاع وأقربهم إلى الرحمة: أم فقد روى عن ابن عمر قال كنا مـع النبى فى بعض غزواته، فمر بقوم فقال "من القوم" قالوا نحن المسلمون، وامرأة تحصب (أى توقد) بقدرها ومعها ابن لهـا فإذا ارتفع وهج تنحت به فأتت النبى فقالت "أنت رسول ا ؟"

قال "نعم" قالت "بأبى أنت وأمى أليس ا أرحم الراحمين" قال "بلى" قالت "إن الأم لا تلقى ولدها فى النار" فأكب رسول ا صلى ا عليه وسلم يبكى ثم رفع رأسه إليها فقال "إن ا لا يعذب من عباده إلا المارد المتمرد الذى يتمرد على ا وأبى أن يقول لا إله إلا ا " رواه ابن ماجه.

فليس هناك مخالفة لمبادئ العدالة فى الجنة أو الجحـيم وإنما هى – على وجه التحقيق – إعمال لها..

وعلى كل حال فإن وجود النار فى الدار الآخرة جعـل المجتمع الإسلامى لا يستخدم النار عقوبة أو تعذيباً وطهـر كتاب العقوبات الإسلامية من استخدامها فى حـين أن النـار وإحراق المخالفين كان هو المبدأ الذى أسسته الكنيسة لأنهـا تمقت الدماء! "**ecclisia abhorreta sangune**" فإن العقوبـة المقررة أصبحت هي الحريق وسيق المخالفون إلي المحرقة زمراً فيما سمي "<u>مواكب الإيمان</u>!" **auto da fe** [١].

وهكذا نرى صورة من المفارقات. فالرحمة المسـيحية جعلت النار هى العقوبة المقررة. وقسوة الإسلام فى الآخرة

(١) وقد استمرت هذه "المواكب" فى أسبانيا من سنة ١٤٨١ حتى سنة ١٨١٣ .

استبعدت النار كعقوبة فى الحياة الدنيا. ولما كان الأوروبيون دنيويين فربما كان عليهم أن يشكروا الإسلام.

* * *

الشريعة :

الشريعة هى المكون الثانى الذى يأتى بعد العقيدة وقـد أوضحنا أن الأديان – كأديان تتبلور فى العقيدة ولكن هذا لا ينفى أن يكون لهذه العقيدة أصداء فى المجتمع، ومـا بـين الناس، وعلى الأوضاع الاقتصادية والسياسية الخ... من هنا عرفت كل الأديان بجانب عقيـدتها عـدداً مـن التحلـيلات والتحريمات يتصل بالسلوك والتعامل. كما كان على أديـان أخرى أن تضع خطوطـاً عريضـة فـى مجـال التنظـيم الاقتصادى والاجتماعى والسياسى. ومن الطبيعى أن يتـأثر كل دين فى وضعه شرائعه بالبيئة التى ظهر فيها مما يؤدى إلى تفاوت الشرائع بين الأديان لأن البيئات تختلف وتتفـاوت والمبدأ الإسلامى هو أن الدين واحد والشرائع متعددة.

وقد ظهرت الشريعة فى الإسلام فـى المدينـة عنـدما تكونت الأمة الإسلامية فصدرت مجموعة مـن التوجيهـات والموجبات تتفاوت ما بين أن تجعل بعض التصرفات واجبا

(أو فرضا) أو أن تكون حراماً. وقـد يكتفـى بالتوجيـه أو بالعقوبة الدنيوية.

ومع أن الشريعة مكون من مكونات الإسلام. وأن منها ما هو مذكور ومحدد فى القرآن الكريم وبالتالى تعد جـزءاً من الإسلام الملزم إلا أن درجة الالتزام بها تقل عن درجـة الالتزام بما جاء عن العقيدة التى لها قداسة خاصـة ويعجـز العقل البشرى عن الإلمام بها، وبالتالى عـن أى تطـوير أو ترخص فيها. أما الشريعة فإنها قامت فى جميع الحالات على أساس المصلحة أو العدل، فلا يكون تطويرها إذا تطلب ذلك العدل والمصلحة كفراً بها وانتهاكا لها ولكن تطبيقاً للمقصـد الذى من أجله سنت.

وبالإضافة، فإن طبيعة الشريعة كقاعدة للعلاقات الدنيوية داخل المجتمع يجعل المصدر الذى تعود إليه هو العقل الذى يوضح الخطأ من الصواب وليس النقل أو الضمير الذى يميز ما بين الخير والشر والحلال والحرام. كما أن وظيفتها تجعل المحور الذى تدور عليه العدل وتجعل أداة التطبيق التسـليم الطوعى فيما لم يفرض عليه ثواب أو عقاب. أو الالتزام فيما فرض عليه عقوبات.

والغرض الذى سنت من أجله الشـريعة هـو تحقيـق المصلحة ودرأ المفسدة والحكم بما يقضى بـه العـدل بـين الناس.

ولما كان هذا هو قصد الشريعة، فقد أقيمت على أساس "الحكمة" أو "العلة" التى تحقق هذا القصد. وهذا أمر يخضـع تكييفه لعدد من العوامل التى تتفاوت من عصر إلى عصـر، ومن أمة إلى أمة وقد تنتفى العلة التى من أجلها سنت بعض الأحكام بحكم التطور كما هو الحال فيما كان موجـوداً مـن رق، أو غنائم أو أنفال أو جزية فقد تجاوز التطور هذه كلها ولم تعد الأحكام التى أصدرتها الشريعة لها معنـى لانعـدام العلة التى وضعت لها. كما أن اختلاف الأوضاع وارتفـاع المستويات يتطلب تعديل بعض الأحكـام بمـا يتفـق مـع الأوضاع الجديدة فالمهم عند تحديد الموقف من الشريعة هو تحقيق المصلحة والعدل.. فإذا تطلب ذلك تعديلاً فى أحكـام وضعتها الشريعة.. فيجب الأخذ به دون تردد، ولا يعد هـذا انتهاكاً لها، بل على العكس بعد هذا تطبيقاً لها وهذا هو مـا فعله عمر بن الخطاب فى اجتهاداته المشهورة فقد وجـد أن مصرفا من مصارف الزكاة منصوص عليـه فـى القـرآن

الكريم قد انتفت الحكمة منه، فأوقفه، ووجد الناس تتهـاون فى الطلاق فجعل الطلقة الواحدة بالثلاث كأنها ثلاث طلقـات كما رفض تقسيم أراضى البلاد المفتوحة على الفاتحين لأنـه وجد أن الأرض تختلف عن الغنائم، وأن تقسـيم الأراضـى سيفسد الفاتحين ويحـول دون مصـلحة الأجيـال. وتقبـل المسلمون ذلك منه لأنهم يعلمون أنه إنما أراد المصلحة.

وهذا المبدأ – أى قابلية كل ما جاء فى الشريعة سـواء نص عليه فى القرآن أو قضى به حديث – للتعـديل تحقيقـاً للمصلحة وتوخيا للعدل هو مما لا يعد انتهاكـا للنصـوص وإنكما تطبيقا لروحها – العدل وهو المقصودة من سنها.

ويدخل في هذا ما جاء عن الحـدود وعـن الميـراث وغيرهما..

وقد أحاط بعض الناس قواعد الميراث بقداسة خاصـة، واعتبروا أن أى مساس بها هو انتهاك صريح للنص ومخالفة لما جاء به القرآن الكريم. ولم يكـن لـدى الأوائـل هـذه الحساسية ووجدت حالات عديدة لتطبيقات تخالف مـا جـاء بالنص، فقد كان زيد بن ثابت يعطى ثلث الباقى بعد نصـيب الزوج والزوجة إذا اجتمع الأب والأم وأحد الزوجين مع أن

الآية تقول ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. {١١النساء}..

أى أن القرآن يعطى الأم الثلث، ولكن زيد بن ثابت اجتهد فقرر لها ثلث الباقى لأنه رأى أن نصيب الأم بناء على الآية سيكون ضعف نصيب الأب وذلك يخالف النظام الإسلامى الذى يجعل للذكر مثل حظ الأنثيين إذا تساوى الرجل والمرأة فى درجة القرابة من الميت وجهتها، ولما سأل عبد ا بن عباس زيد بن ثابت هل فى القرآن ثلث الباقى أجاب زيد أنا أقول برأيى وأنت تقول برأيك. وأخذ أغلب الأئمة فيما بعد برأى زيد بن ثابت[١].

ومن الأمثلة الحديثة مسألة الأحفاد الذين مات أبوهم قبل جدهم، ولهم أعمام يحجبونهم عن الميراث بناء على المذاهب

---

(١)، (٢) موسوعة النظم والحضارة الإسلامية (٣) السياسة والاقتصاد للدكتور أحمد شلبى ص٩٧.

الأربعة. ثم كثرت شكوى هؤلاء الأحفاد من حرمانهم مع تساويهم فى الدرجة مع أبناء أعمامهم الذين سيكون لهم الميراث. فتقرر إعطاء هؤلاء الأحفاد نصيب أبيهم[٢].

فإذا كانت أحكام الميراث بالنسبة للمرأة قد تطورت العلة فيها بما يوجب تطويراً فى الأنصبة، فإن تعديل الأنصبة لا يكون فيه افتيات على النص وإنما إعمال للحكمة التى جاء من أجلها النص، المهم هنا هو سلامة وعدالة التعديل المطلوب فى الأنصبة وملاحظة كل الأبعاد وليس بعداً واحداً.

ويلحق بالاجتهاد فيما جاء بالميراث الاجتهاد فيما جاء بالزكاة. فقد حدث فيها تجميد لمصرف من مصارفها هو "المؤلفة قلوبهم" كما أضيف إلى مواردها موارد لم تكن مألوفة عند العرب الذين كانت ثرواتهم حيوانية من الإبل والشاة.

ومن المؤكد أن أحكام الشريعة منذ ألف وأربعمائة عام كانت أفضل الأحكام – ولكن الاختلاف الجسيم فى الأوضاع أصبح يتطلب تعديلها بما يحقق المصالح التى استهدفتها.

إن الأساس الأصولى لهذا هـو أولا: أن العـدل هـو واسطة عقد منظومة القيم الحاكمة (أى التى تستخرج منهـا الأحكام) وإعماله لا يكون مخالفاً للنصوص. ثانيا: أن هنـاك مصدر ثالث لتقنين الأحكام هو الحكمة واستهداف الحكمة لا يكون انتهاكا.

ومنذ سبعمائة عام تنبه فقيه إسلامى شهير هو ابن القيم إلى "أن ا أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل الذى قامت به السموات والأرض، فإذا ظهرت أمارات الحق وقامت أدلة العقل وأسفر صبحه بأى طريق كانت فُـثم شرع الدين ودينه ورضاه وأمره، وا تعالى لم يحصر طرق العدل وأدلته وإماراته فى نوع واحد وأبطل غيره من الطرق التى هى أقوى منه. وأدل وأظهر بل بين بما شـرعه مـن الطرق أن مقصوده إقامة الحق والعدل وقيام الناس بالقسـط فأى طريق استخرج بها الحق ومعرفة العدل وجـب الحكـم بموجبها وبمقتضاها.

والطرق أسباب ووسائل لا تراد لذاتها وإنمـا المـراد غاياتها التى هى المقاصد، ولكن نبه بما شرعه من الطـرق

على أسبابها وأمثالها ولن تجد طريقا من الطرق المثبتة للحق إلا وهى شرعة وسبيل للدلالة عليها[١].

وقال تحت عنوانه "بناء الشريعة" على مصالح العباد فى المعاش والمعاد.. "فإن الشريعة بناها وأساسها علـى الحكـم ومصالح العباد فى المعاش والمعاد، وهى عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكمة كلها فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور وعن الرحمة إلى ضدها وعـن المصـلحة إلـى المفسدة وعن الحكمة إلى العبث فليست مـن الشـريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل"[٢].

فأبن القيم هنا يخرج من الشريعة ما يخالف العـدل وإن دخل فيها بالتأويل. كما يسمح بدخول كل ما يحقق العدل وإن لم ينص عليه أو يأخذ القالب المقرر فى الشريعة.

وأشد صراحة من ابن القيم نجم الدين الطوفى فهذا الفقيه الحنبلى – مثيل بن القيم – نادى بأن المصلحة هى الهـدف الأسمى للشارع، فإن وجد نص يخـالف المصـلحة أخـذنا بالمصلحة وأولنا النص" وقد استمد هذا المبدأ مـن تفسـيره لحديث "لا ضرر ولا ضرار".

(١) إعلام الموقعين لابن القيم طبعة الكليات الأزهرية بالقاهرة ج٤ ص٣٧٣.
(١) المرجع السابق ج٣ ص٣.

ومثلهما الفقيه العز بن عبد السلام الذى كرر فى كتابه "الفوائد فى اختصار المقاصد والذى يطلق عليه القواعد الصغرى أن قصد الشارع جلب المصلحة ودرأ المفسدة".

ومن الفقهاء المحدثين ولى ا شاه الدهلوى الذى قال فى كتابة القيم حجة ا البالغة "إن ا تعالى لم يشرع الأحكام دون غاية، وإنما لغاية تدور دائما حول "دفع مفسدة، وجلب منفعة أو مصلحة" وندد بالذين يظنون أن الأحكام الشرعية لا تتضمن شيئا من مصالح العباد وأنه ليس بين الأعمال وما جعله ا جزاء لها من مناسبة وأن مثل التكليف بالشرائع كمثل سيد أراد أن يختبر طاعة عبد له. فأمره برفع حجر أو لمس شجرة مما لا فائدة فيه غير الاختبار، فلما أطاع أو عصى جوزى بعمله.

وقال الدهلوى "إن هذا ظن فاسد لأن لكل قُربة من القربات مفاد ومعان. فالصلاة قد سنت تؤكد ذكر ا ومناجاته والزكاة شرعت دفعاً لرذيلة البخل ولكفاية حاجات الفقراء، والحج شرع لتعظيم شعائر ا والقصاص شرع زجراً عن القتل، ولم يزل التابعون ثم من بعدهم العلماء المجتهدون يعللون الأحكام بالمصالح ويفهمون معانيها

ويخرجون للحكم مناطاً مناسباً لرفع ضر أو جلب نفع كمـا هو مبسوط فى كتبهم ومذاهبهم".

وأكد الشيخ محمد عبده أن من أصول الإسـلام "تقـديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض" "اتفق أهـل الملـة الإسلامية إلا قليلاً ممن لا ينظر إليه على أنـه إذا تعـارض العقل والنقل أخذ بما يدل عليه العقل".

وقبل هؤلاء جميعاً، وأهم منهم جميعاً القرآن الكريم، الـذى وإن كان قد أورد الأحكام والحدود كبعض آياته إلا أنه طلب من المؤمنين جميعا أن يتدبروا آيات ربهم وأن يتفكـروا فيهـا بـل وطلب إذا ذكروا بآياته أن لا يخروا عليها صما وعميانا، وجعـل الحكمة مصدراً من مصادر التشريع كالكتاب عندما قال "وأنزلنـا الكتاب والحكمة".

أفلا تكفى هذه الشواهد كلها فى إقناع المسلمين أن الإسـلام إنما يستهدف بما وضع من شريعة تحقيق الحكمة والعـدل فـى الظروف والملابسات التى كانت موجودة، فـإذا تغيـرت هـذه الظروف، وزالت الحكمة التى وضعت مـن أجلهـا فعلـيهم أن يفكروا فيما يحقق مقصد الشارع فى ضوء الأوضـاع الجديـدة، وإلا فإنهم يخرون أمام الآيات صماً وعميانا.

الباب الثاني

مرجعيات الإسلام

الفصل الثالث

القرآن الكريم

القرآن هو المرجعية العظمى للإسلام:

ولكى نفهم القرآن يجب أن نعرف أن القرآن هو معجزة الإسلام ووسيلته للهداية. وهذه الصفة المزدوجة هى مفتـاح معرفة القرآن لأنها هى التى جعلته ما هو عليه. بحيث مـا كان يمكن أن يكون غير ذلك ويكون فى الوقت نفسه المعجزة والهداية.

لقد جعل ا تعالى القرآن معجزة الإسلام إيذانا بأن عهد المعجزات الحسية التى رزقها الأنبياء السـابقون وارتبطـت بالأديان. قد انتهى. وأن عهداً جديداً يقوم على العقل والفكـر سيأتى ولن يظهر رسول آخر يأتى بمعجزة تَجـب معجـزة الإسلام. وكان الإسلام مصيبا فى تصوره للمستقبل: إذ لـم يظهر رسول آخر بمعجزة أخرى وأن العهـد الـذى سـيلى

الإسلام هو عهد العقل وأن المعجزة الوحيدة المقبولة فى هذا العصر لا تكون إلا كتاباً.

وما دام هذا الكتاب هو معجزة الإسلام فلابد أن تتـوفر فيه عناصر المعجزة، أى القوة الخاصة التى تبـرهن علـى صدقه وتحمل الناس على الإيمان به ويجب أيضاً أن يتحقـق هذا، لا بالنسبة للجيل الذى ظهر فيه الإسلام – والقوم الذين تلقوه أولاً ولكن يظل مع بقية الأجيال.. ومع مستقبل الأزمان ما دام الإسلام هو آخر الأديان..

هذه هى "المهمة المستحيلة" التى كان على القـرآن أن يقوم بها...

وقد قام بها قديماً ويقوم بها حاليا، وسـيقوم بهـا فـى المستقبل أيضاً...

كيف حدث هذا..

حدث هذا لأن القرآن الكريم استهدف النفس البشـرية، وجعلها محور آياته. وتم هذا لأن الإسـلام عنـدما اسـتبعد المعجزة الحسية التى تقوم على خرق نواميس الطبيعة كشفاء المرضى وكأحياء الموتى وشق البحر لموسى وعدم احتراق إبراهيم بالنار فإنه نقل مجال المعجزة من الطبيعة المادية إلى

الطبيعة البشرية وفى الوقت نفسه فإن هذه الطبيعة البشـرية هى التى تمكن لمعجزته البقاء مع توالى الأجيال.

والنفس البشرية واحدة على ممـر العصـور وعلـى اختلاف الأجناس. نعم هناك فروق جزئية ولكـن الطبيعـة الأساسية للنفس الإنسانية واحدة. وهى تقوم علـى غرائـز مغروسة ليمكن للإنسان البقاء، ومعرفة حسية تجعله حتى فى أشد مراحل حياته بدائية يتعرف على الأشياء عـن طريـق حواسه، كما رزق أيضاً عقلاً يعرف به ما تعجـز الحـواس عن تمييزه، ووجداناً وهو ملكه ما بين الغرائز والعقل. فيهـا عقلانية العقل وفيها عاطفية الغرائز.. وبهذه الملكات تميـز الإنسان عن الحيوان فعرف اللغة وأمكنه التواصل مـا بـين أفراده بعضهم بعضاً ثم عرف الكتابة فأمكنه التواصل ما بين الأجيال بحيث يبدأ كل جيل حيث انتهى الجيل السابق عنـه. وبفضل هذا "التراكم المعرفى" تقدم الإنسان..

خاطب القرآن الكريم هذه النفس. ولو أحصينا المرات التى أورد فيها القرآن كلمة نفس ومشتقاتها لكانت ٢٦٠ مرة وهو فى كل مرة يطرق ناحية من نواحى هذه النفس.

إن الأعمال الفنية العظمى التى رزقت الخلود فى الشعر والرواية بمـا فـى ذلـك شـعراء الإغريـق سـوفوكليس ويوربيدوس وارستوفان الخ... وشعراء أوروبـا شيكسـبير وجوته وهوجو وشلى ودانتى الخ.. وشـعراء العـرب مـن المتنبى إلى شوقى. حققت خلودها لأنهـا عالجـت إحـدى عواطف النفس البشرية – كالحب. أو الطموح أو الحسـد أو الطمع الخ... معالجة لمست أعماق الموضوع فمست دخيلـة كل واحد وتجاوب معها كل واحد. ورغـم أن موضـوعها واحد. فما أكثر الروايات والقصائد التى قامت علـى الحـب مثلاً فلا يتصور أن يغلق الباب أو ينتهى الحب بكثرة ما كتب عنه. لأن كل كاتب يعرض ناحية معينة، ولأن كل كاتب يقدم أسلوباً فنيا أدبياً ينبع من عبقريته الخاصة.

إذا كان هذا شأن العباقرة فى موضوع واحد كالحـب، فإن الأمر بالنسبة للقرآن كان أعظم وأرحب، لقد كان أمـام القرآن النفس البشرية بفجورها وتقواها ملاكهـا وشـيطانها جنتها ونارها.. وكان القرآن وحيـا إلهيـا ولـيس عبقريـة شخصية فجاء بما لم يستطع أن يأت به أو يجتمع له أحد من العباقرة.. لأن القرآن الكريم وإن كان قـد عـالج الـنفس

البشرية التى عالجها عباقرة الفن والأدب فإنه عالجهـا مـن منطلق "ا " وانتهى بها إلى "ا " وهذا شىء لـم يكـن فـى حسبان، ولا فى قدرة العباقرة، وهو ما يميز الأنبيـاء عـن الفلاسفة والشعراء.

وهناك فرق آخر، لقد عالج العبـاقرة جوانـب الـنفس الإنسانية لمجرد الكشف عما فى أعماقها من خير ونبـل أو خسة ونذالة. وليعرضوا لنا واقعها الحسن أو القبـيح. أمـا القرآن فإنه إنما عالج النفس الإنسانية باعتبارها مجال الهداية فإن ا تعالى لم يقدم القرآن كمعجزة فى اللغة والفن وليقارع به اللغويين والشعراء وليقدم وثيقة فنية تفوق كل ما وضـعه الشعراء والكتاب. ويصل إلى أعمق مما وصـلوا.. كـلاً إن القرآن الكريم إنما عالج النفس الإنسانية لغرض واحد هـو الهداية، لأن القرآن فى جوهره كتاب هداية.

هكذا تتضح لنا المعالم معلما إثر معلـم حتـى تظهـر الصورة بكل أطرافها وأبعادها. فقد كان لابد بالنسبة للعصر الذى ظهر فيه الإسلام ولما يعقبه من عصـور أن تطـوى صفحة الرسالات النبوية، فلا يظهر نبى، ومعنـى هـذا أن يكون لدى الإسلام معجزة لا تطوى مع جيلها أو تعتمد على

خوارق الطبيعة وإنما تظل فعاله – تحل محل رسالة الأنبياء – فى عهد العقل البشرى والمعرفة – فكان لابـد أن تكـون كتاباً. وكان لابد أن يكون هدف هذا الكتاب الهداية، وكـان لابد أيضاً أن تكون الوسيلة إلى ذلك هـى مخاطبـة الـنفس البشرية لأن مكونات هذه النفس ألا وهى الغرائز، والحواس، والعقل، والوجدان واحدة وخالدة على ممر العصـور، فمـا يتجاوب معها فى عصر الرسالة يمكن أن يتجاوب معها فـى بقية العصور.

وهذه الموجبات، التى أوجبت كل واحدة منها ما بعـدها من موجبات هى أيضاً التى أوجبت أن يكون القرآن كتاباً فنياً بالدرجة الأولى ويعالج النفس الإنسانية بالأدوات الفنية كـى يكشف أعماقها لا كما يفعل الأدباء والشعراء، ولكن ليهـديها ومن هنا فإن فنيته تمتزج بها القيم التى توجه النفس للهداية، هذه القيم التى قد تخاطب الوجدان من نبل أو حب أو إيثار أو شجاعة أو التى يستلهمها القرآن من صفات ا تعالى لأنـه هو مصدرها وقد يرمز لها بالأسماء الحسنى، وكـذلك فـإن فنيته تتضمن إشارات، وإيماءات إلى العلوم وقد يرمـز لهـا القرآن "بالأسماء" كما أنه بين الفينة والفينة ينتقل من مخاطبة

الغرائز والحواس إلى التنبيه على العقل وضرورة استخدامه لمعرفة الحق من الباطل، ولا يغض القرآن من قيمة العقـل ولكنه يعلم أن مفتاح الهداية ليس أولاً هو العقل وإلا لما كان هناك فرق بين الأنبياء والعلماء والفلاسفة. ولفضل العلمـاء على الأنبياء. إن مفتاح الهداية هو "الإرادة" وليس المعرفـة. لأن المعرفة قد تُعلم وقد لا تُعلم وهى إذا علمـت خاضـعة للإرادة التى تتحكم فيها بالدرجة الأولى الغرائـز والحـواس والوجدان. وكل الذين يدخنون مثلاً يقـرءون علـى علـب سجائرهم "التدخين مضر جداً بالصحة" ولكن هذه المعرفة لا تقوى على منعهم من التدخين، لأن هذا هو مـا تقـوم بـه الإرادة، ومن هنا كان التقاء القرآن مع عباقرة الفنانين فـى استخدامهم لأدوات الفن ومعالجتهم للـنفس البشـرية، وفـى الوقت نفسه كان افتراقه عنهم لأنه لا يريد مجـرد تعريـف الناس على أعماق النفس وما يضطرم فيها مـن عواطـف، ولكن أن يهدى الإنسان عن طريق المعالجة الفنية للنفس. فهو بعد المعالجة الفنية التى تهيئ الإنسان للقبول يلجأ إلى توجيه الإنسان أولاً بتعريفه على ا تعالى وبث الإيمان بقصـدية، وغائية الوجود، وأنه لا يوجد عبثا. وأن عليه إيثـار الخيـر

على الشر العقل على الهوى وعدم الاسترسال فيمـا تهـوى الأنفس من استمتاع أو شهوات الخ... وبهذا يهتدى الإنسـان لأن الهداية هى تغليب الخير على الشر، العدل على الظلـم الحرية على القيد الخ...

وقد وصل القرآن الكريم إلى الكمال فـى اسـتخدامه الوسائل الفنية إذ توفر له فيها كل ما يؤدى إليه العمل الفنـى من إثارة وتحريك للمشاعر بما فى ذلك موسـيقية التعبيـر وإحكام التصوير، ولمس الأوتار الحساسة، والتوجيـه للقـيم التى قد تنقص العمل الفنى، أو لا يلجأ إليها إلا فى صـورة ملتبسة وغير مباشرة. إن القرآن الكريم يصدع بها ولكـن بأسلوب يجعلها مقبولة فقد توفر للقرآن إحكام اللفظ وإحكـام المعنى ويغلب أن لا يتوافقاً فى معظم الأعمال الفنية الكبرى المعروفة..

ويجب أن نقول إن هذا التميز والمستوى الذى لم يجارى إنما يعود إلى أن القرآن موحى به مـن ا .. وقـد تـوحى الشياطين إلى بعض الفنانين فيما يقدمون، كما قـد يلـتمس البعض شعاعاً من الوحى الإلهى الذى لم يضن به ا تعالى على بعض العباقرة. ولكن الوحى كاملاً، أى عـن طريـق

سفير من ا هو جبريل فهذا ما لم يحـدث إلا للقـرآن. لأن الرسول نفسه ما كان يدرى ما الكتاب وما الإيمـان. ولأنـه وإن أوتى جوامع الكلم، فإن هذا تم بأسلوب يختلف تماماً عن الأسلوب القرآنى الذى أبدعه القرآن وشق بـه سـبيلاً بـين الشعر والنثر وهذا هو سر الإعجـاز الـذى أعيـا القـدماء والمحدثين. وسنرى أن سره لا يكمن فى الصياغة المعجزة، الآسرة، وإنما هو فى كل لفظة قرآنية. وفى اجتمـاع هـذه الألفاظ بعضها إلى بعض. إن اللفظة القرآنية موحيـة ولهـا رنين كرنين الفضة النقية وهى متفتحة تحمل أكثر من معنى ويكاد بعضها أن يكون مجنحا يطير إلى عوالم أخرى ويومئ إلى احتمالات جديدة.

وأول، وأهم، ما يحقق فى الصياغة القرآنية المعجـزة النظم الموسيقى. ذلك أن ملكة السمع أقوى، وأعـم وأكثـر مباشرة من أى ملكه أخرى كالبصر أو الفكر ومن هنا كانت أبرز خصيصه للصياغة القرآنية هى الـنظم الموسـيقى لأن القرآن – كما قلنا – كتاب هداية وعليه أن يستخدم ويسـتثمر أعم الملكات فى الإنسان..

وقد جاء النظام الموسيقى، وما يحدثه من إيقاع، مـن أن الكلمة القرآنية كما ذكرنا موسيقية لها رنين وأن ضم الكلمات بعضها إلى بعض لتصبح آية.. يوجد إيقاع الجملة الموسيقية. وقد لا يثير ذلك انتباه المسلمين الذين ابتذلتهم قراءة القـرآن قراءة آلية متكررة، ولكننا نجد هذا العامـل علـى أعظمـه بالنسبة للذين يسمعون القرآن أول مرة.. فهـؤلاء يؤخـذون بنظمه فوراً، ويحدث فى نفوسهم ما يشبه الدوار والانـدهاش ولدينا أمثلة فى القديم والجديد على ذلك أشهرها ذلك المثـال الكلاسيكى مثال عتبة بن الوليد الذى أوفدته قريش ليكسب لها محمداً بالقول اللين والعروض المغرية واستمع الرسول حتى فرغ فأخذ يتلو عليه قوله تعالى: ﴿حم(١) تَنزِيلٌ مِن الرحمـان الرحِيمِ(٢) كِتَاب فُصلَتْ آياتُه قُرآنًا عربِيا لِقَـومٍ يعلَمـون(٣) بشِيرًا ونَذِيرًا فَأَعرض أَكْثَرهم فَهم لا يسمعون(٤) وقَالُوا قُلُوبنَا فِي أَكِنةٍ مِما تَدعونَا إِلَيهِ وفِي آذَانِنَا وقْر ومِن بينِنَـا وبينِـك حِجاب فَاعملْ إِننَا عامِلُون(٥) قُلْ إِنما أَنَا بشَر مِثْلُكُم يـوحى إِلَي أَنما إِلَهكُم إِلَه واحِد فَاستَقِيموا إِلَيـهِ واسـتَغْفِروه وويـلٌ لِلْمشْرِكِين(٦) الَذِين لا يؤْتُون الزكَـاةَ وهـم بِـالآخِرةِ هـم كَافِرون(٧) إِن الَذِين آمنُوا وعمِلُوا الصالِحاتِ لَهم أَجر غَيـر

ممنُونٍ(٨) قُلْ أَئِنكُم لَتَكْفُرون بِالذِي خَلَقَ الأرض فِي يـ ـومين وتَجعلُون له أَندادًا ذَلِك رب الْعالَمِين(٩) وجعلَ فِيها رواسِـ ـي مِن فَوقِها وبارك فِيها وقَدر فِيها أَقْواتَها فِي أَربعةِ أَيامٍ سـ ـواءً لِلسائِلِين(١٠) ثُم استَوى إِلَى السماءِ وهِي دخَـ ـان فَقَـ ـالَ لَهـ ـا ولِلأَرضِ اِئْتِيا طَوعًا أَو كَرهًا قَالَتَا أَتَينَا طَائِعِين(١١) فَقَضاهن سبع سماواتٍ فِي يومين وأَوحى فِي كُل سماءٍ أَمرها وزينـ ـا السماء الدنْيا بِمصابِيح وحِفْظًا ذَلِك تَقْدِير الْعزِيزِ الْعلِـ ـيمِ(١٢) فَإِن أَعرضوا فَقُلْ أَنذَرتُكُم صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وثَمود﴾. {١٣ فصلت}..

فرفع عتبه يده وقال "حسبك"..

وما أن أقبل عائداً إلى قريش حتى قال أبو جهل "أحلف لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به".

وفى الصحيحين عن جبير بن مطعم قال "سمعت رسول ا يقرأ فى المغرب بالطور فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه. فلما سمعته قرأ "أم خلقوا من غير شـ ـىء أم هـ ـم الخالقون" خلت أن فؤادى قد أنصدع" وكان جبير حين سـ ـمع هذا لا يزال مشركاً وإنما كان قد قدم فى فداء الأسارى بعـ ـد بدر.

أما المثال الذى يعد حديثاً شيئا ما، فهو ما انتاب علماء الحملة الفرنسية الذين صاحبوا نابليون فى حملته على مصر عندما سمع بعضهم التلاوة القرآنية وانبهر علماؤهـا بهـذه الألحان المرسلة بلا إيقاعات أو آلات حتى ظنوا أنها نوعـاً من الغناء فكتبوا إلى حكومتهم قائلين "ليس لهذا الغناء سـلم نغمى محدد أو مميز ومع ذلك فإن نغماته تنهض على أسس تحظى باحترام يكفى كى يجعل منها نغمات يمكن تمييزها".

وفى الجزء الخاص بالموسيقى والغناء عند المصـريين من كتاب وصف مصر كتب علماء الحملة عـن محـاولتهم تدوين سورة الفاتحة بالعلامات الموسيقية كما سمعوها مـن قارئ يدعى الشيخ الفيومى حيث يعتـرف المسـيو فيـوتر الباحث الفرنسى بأنه من الشطط البحث عن إيقاع محسـوس فى هذه التلاوة ولا يمكن أداؤها على آلة موسيقية لأن الآلات الموسيقية لا تستوعب نبرات الرخامة فى هذه التلاوة.

وبكلمات قليلة يصف الباحث الفرنسى ما سمعه بأنه بالغ العذوبة مثير للعاطفة ولكل المشاعر الحية والباعثـة علـى الشجن".

وأورد إدوارد لين فى كتابه "المصـريون المحـدثون. عاداتهم وطرائقهم" نوتة موسـيقية لسـورة الفاتحـة كمـا سمعها...

وقد قال القرآن نفسه عن أثره فى النفوس.

﴿الله نَزلَ أحسن الْحدِيثِ كِتَابًا متَشَابِهًا مثَانِي تَقْشَعِر مِنْه جلُود الذِين يخْشَون ربهم ثُم تَلِين جلُودهم وقُلُوبهم إِلَى ذِكْـر اللهِ ذَلِك هدى اللهِ يهدِي بِهِ من يشَاء ومن يضلِلْ الله فَما لَـه مِن هادٍ﴾. {٢٣ الزمر}.. و ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أو لا تُؤْمِنُـوا إِن الذِين أُوتُوا الْعِلْم مِن قَبلِهِ إِذَا يتْلَى علَيهم يخِـرون لِلأَذْقَـان سجدًا(١٠٧) ويقُولُون سبحان ربنَا إِن كَان وعد ربنَا لَمفْعولاً﴾. {١٠٨ الإسراء}..

إن هذه الحقيقة، أعنى أن القرآن الكريم يمتلـك قـوة جاذبة آسرة بمجرد سماعه بحكم ما فى صياغته مـن نظـم موسيقى يفتح الأذن، ثم بتوجيهات سامية بحيث تتحقق الهداية لها دلالات هامة. منها أن قوة القرآن هى فى تحقيق انطباع عميق. القرآن هنا يؤثر فى الـنفس كمـا تـؤثر سـيمفونية موسيقية – يكون تأثيرها فوريا ويأخذ طابع الانطباع العميق. وهذا بدوره ما لا يجعل حاجة إلى تفسير القـرآن. كمـا لا

يجعل حاجة إلى وضع وسيط بين الفرد وا لتتحقق الهداية، لأن القرآن وحده كفيل بهذا. وهو ما يتفق مع أحد الخطـوط الرئيسية للقرآن وهو استبعاد الأحبار والرهبان أو على الأقل حرمانهم من حق التحليل والتحريم...

وأن يكون الأثر العام للقرآن هو الانطباع الذى يتلـوه الهداية لا يجعل الأهمية الأولى للفظة فى حد ذاتهـا وإنمـا تكون الأهمية فى إيقاعها الذى يحقق الهداية، ومن هنا فقد لا يكون هناك أهمية كثيرة للمشاكسة حول تعريف معنى لفظـة ما، لأن القرآن الكريم يمكن أن يكون قد أراد بها "الإيقـاع" أكثر مما أراد بها المعنى.

يساند هذا ويعززه "التصوير الفنى" الذى يأتى بعد النظم الموسيقى، ويشترك معه فى إعطاء الانطباع العام والفرق أن النظم الموسيقى يتحقق بالإيقاع والتصـوير الفنـى يتحقـق "بالمجاز" والمجاز هو استخدام تشبيه، أو استعاره يكون أكثر تأثيراً فى إعطاء المعنى من الكلمة المباشرة العاديـة. مـثلاً عندما نريد أن نصف رجلاً ما بأنه شجاع أو كريم فـالتعبير العادى هو أن نقول إنه شجاع كريم. ولكن التصوير الفنـى يلجئ إلى المجاز فنقول هو أسد فى الشـجاعة. بحـر فـى

السخاء. وهذا يعطى تأثيراً أعظم من التعبير العادى المباشر وهو يتسم بنوع من الصدق يطلق عليه "الصدق الفنى" الـذى يخالف الصدق الحرفى، ولكنه يتفق معه، بل ويفوقـه فـى إحداث الأثر.

وكان هناك داع آخر لاستخدام التصوير الفنى هو أنه لا يمكن بالنسبة للغيب الحديث بطريقة السرد أو إعطاء صورة واقعية لأن هذا لا يمكن ما دام الأمر غيبا. ولو حدث لما كان غيباً.

ومعظم ما جاء فى القرآن الكريم عن الجنـة والنـار وعن صفات ا تعالى أو الغيب، والعالم الآخر هو من باب المجاز والصدق الفنى أكثر مما هو من باب السرد العـادى والصدق الحرفى.

وفى النهاية تأتى القيم...

يأتى إعمال العقل وتطبيق القيم..

قال المستشرق نولدكه "كان غرض محمد الوحيـد فـى السور المكية تحويل الناس بطرق الإقناع عن عبادة الأصنام الباطلة إلى عبادة إله واحد. هذا هو الهدف الأساسـى فـى دعوته مهما تشعب الموضوع، إلا أن محمداً بـدلاً مـن أن

يتوجه إلى عقول سامعيه يقنعها بالبراهين المنطقية لجأ إلـى الفن الخطابى ليؤثر علـى عقـولهم عـن طريـق الخيـال والوجدان".

ونولدكه مع منزلته الكبيرة بين المستشرقين يبرز بعض الحقيقة وليس كل الحقيقة. فصحيح أن القرآن الكريم يعتمـد على النظم الموسيقى والتصوير الفنى الذى يخاطب الخيـال والوجدان. ولكن هذا لا يعد نقصاً ما دام المقصود به تحويلهم من عبادة الأصنام إلى عبادة الإله الواحد. وما دامت الطبيعة البشرية تتأثر أولاً بالوجدان ثم ثانيا بالعقل وهذا أمر ملموس ومشهود مما لا نجد أنفسنا فى حاجة للبرهنة عليه فـالقرآن سلك الطريق الطبيعى عندما خاطب الخيال والوجدان أولاً.

ولكن القرآن الكريم لم يقف عند هذا فإنه خاطب العقل كما لم يخاطبه كتاب سماوى آخر. وضرب الأمثلة المنطقية التى تعتمد على البداهة والفطرة السليمة والملكة المستقيمة.

وفى الحقيقة فإن لجوء القرآن إلى المؤثرات الوجدانيـة إنما كان باعتبارها وسائل لتهيئة النفس للغاية التى لا تستقيم الحياة إلا بها. وأجملها القرآن فى أولاً: إعمال العقل. وثانيا: الإيمان بالقيم والمثل النبيلة والسامية التى وضعها بالتفصيل.

ولا نجد كتاباً كالقرآن يحض أتباعه على أن "يسـيروا فـى الأرض" ليروا آثار السابقين وليبصروا بدائع خلـق ا فـى الأرض والسماء ويلتمسوا الحكمة حيثمـا كانـت وليأخـذوا أنفسهم بقيم الخير والعلم والرحمة والتقوى والمساواة الـخ... وقد وصل إلحاح القرآن على التفكير إلى درجة جاوزت مـا ذهب إليه عباس العقاد من أن "التفكير فريضة إسـلامية" إذ أصبح التفكير آلية إسلامية، للتوصل إلى الإيمان.

هذه كلها أمثلة على توجيه القرآن للنفس الإنسانية بعـد أن امتلكها بالنظم الموسيقى والتصـوير الفنـى والمعالجـة السيكولوجية إلى القيم. إلى الإخلاص إلى العدل إلى الصدق إلى المساواة..

مضامين وتفاعلات القرآن:

القرآن – كما ذكرنا – كتاب هداية، واستخدامه لصياغته الخاصة الآسرة إنما هى لتهيئة النفس لقبول هذه الهدايـة – فهى وسيلة – وليست غاية.. وهداية القرآن هدايـة شـاملة بمعنى أنها تعرض منهجاً حضارياً للحياة وهذا سر شـمول القرآن للجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

ومراجعة القرآن توضح لنا إنه يتضمن الموضـوعات الآتية:

التعريف با باعتباره الخالق لهذا العالم الـذى أبدعـه وأحكمه وخلق الإنسان فى أحسن تقـويم وزوده بالملكـات اللازمة وعلمه الأسماء (رمز للمعرفة) وأسجد له الملائكـة وجعله خليفة على الأرض. ووضع للكون والمجتمع أصـولاً ومبادئ يسيره بها وجعل هذه المبادئ والأسس هى محـور العمل وألتزم بها "وهى بعد كل شىء من وضعه" فقال ﴿ولَن يؤَخر الله نَفْسًا إِذَا جاء أَجلُها﴾. وقال ﴿إن الله لا يغَيـر مـا بِقَومٍ حتى يغَيروا ما بِأَنفُسِهم﴾.

أحاديث عن اليوم الآخر والبعث والجنـة والنـار مـع التأكيد أنه لا تظلم نفس مثقـال ذرة، وأن الحسـنة تحسـب بأضعافها وأن ا هو الرحمن الرحيم الغفور التواب الرحيم.

أحاديث عن الرسول ورسالته وما ينبغى أن يكون عليه وذكر للأنبياء الآخرين والإيمان بهم.

ذكر بعض فروض العبادة كالصلاة والصـيام والحـج والزكاة. ويفترض فى هذه أنها أوامر واجبة التنفيذ.

ذكر توجيهات وخطوط عامة عما ينبغى أن تكون عليه الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ويمكن القول أن عمادها العدل ويأتى الخطاب بضرورة تطبيقهـا دون ذكـر للوسائل على وجه التحديد.

ذكر بعض الجرائم كالسرقة، والزنا، الخ... مصـطحبة بعقوبات مقدرة.

ذكر أوامر أخرى كتوزيع الميراث، والغنيمة والقتال.

توجيهات أخلاقية مثل كرامة الإنسان والالتزام بالقيم من خير وإيثار وحب ومعرفة وحرية ومساواة وعـدل الـخ... والسير فى الأرض وإعمال الذهن فى عجائب هذا الكون من شموس وأقمار أو فى حضارات المجتمع الإنسانى.

توجيهات تتعلق بآداب اللياقة فى الزى والزيارة والأكل وملاحظة الحشمة فى زى النساء الخ...

ويمكن تقسيم هذه المضامين إلى ثلاثة أقسام...

القسم الأول: العقيدة ويضم ما جـاء عـن ا تعـالى والرسل واليوم الآخر وهو ما يجب الإيمان به بعـد فهمـه بالصورة التى أوضحناها فى باب "مكونات الإسلام".

ويلحق بها عادة الشعائر العبادية من صـلاة وصـيام الخ...

القسم الثانى: الشريعة ويدخل فيه كل مـا يمـت إلـى الاقتصاد والاجتماع والسياسة والحدود والميـراث والقتـال الخ... وهذه تتبع ما دامت الحكمة التى من أجلها صـدرت قائمة، فإذا زالت الحكمة فإن مبرر وجودها يزول. وعلى كل حال فهى قابلة للنظر فى ضـوء دوام اتفاقهـا مـع العـدل والمصلحة.

القسم الثالث: التوجيهات الأدبية والقيم الحضارية التـى يجب أن تستلهم وتُتبع قدر الطاقة لأنها هى فى أصل نـزول الأديان. وجزء ثمين من روح الأديان، وسر تماسك واتـزان المجتمع وبعده عن الشطط والانحراف ولكنها لا تقوم علـى عقوبات دنيوية وإنما تصدر عن الضمير والإيمان والتقـوى كما تضم كذلك توجيهات عن الآداب واللياقة.

ويجرى القرآن تفاعلات ما بين هذه المضامين وطريقة تحقيقها، فالإيمان والاعتقاد يقومان على الحرية دون أى دخل من السلطات أو ضغط من المجتمع، والأعمـال والعلاقـات تقوم على العدل ويفصل فيها القانون الملـزم لأنهـا تتعلـق

بحقوق مادية للأفراد لا يمكن التنازل عنها أو الحيف عليها. أما الفضائل وإتباع القيم فإن القرآن يضع مستوى يلحظ فيه القدرة وعدم مجاوزة الطاقة ويعد هذا المستوى هو المستوى الملازم. ويمكن أن نسميه المستوى الوسط ويضع القرآن مستوى أعلى من هذا هو مستوى الفضل والإحسان الذى يمكن للمؤمن أن يحقق فيه بقدر ما يدفعه إيمانه ورغبته فى القربى إلى ا وخدمة الناس والمجتمع. وقدرته على ذلك وفى الوقت نفسه يضع القرآن مستوى أدنى من المستوى الوسط لأنه يدرك طبائع النفوس وتفاوتها، ولا يريد أن يحرم من يغلب عليه الضعف البشرى من رحمه ا ، ومن قبول المجتمع، فيتسامح فى اللمم(١) ويتجاوز عن السيئات ما لم يرتب عليها شرور أو أذى الآخرين..

وفى جميع الحالات يضع القرآن آلية هامة تمثل التفاعل خير تمثيل هى المقاصة التى تقوم على التوبة وعمل الصالحات فى مقابل عمل السيئات بحيث يبدل ا سيئاتهم حسنات، وهو منتهى الكرم الإلهى لأن ا ان يعفو فحسب

(١) اللمم "الصغير من الذنوب نحو القُبلة والضمة والنظرة وما أشبهها وهو مقاربة الذنب وفى التنزيل" الذين يجتنبون كبائر الأثم والفواحش إلا اللمم. وهناك حديث عن أبى هريرة يجعل اللمم ما دون الجماع.

عن سيئاتهم، ولكنه أيضاً سيبدلها حسنات بمـا فعلـوا مـن الصالحات.

وتتفق هذه الآلية مع التصـور الإسـلامى الـديناميكى للمبارزة ما بين الخير والشر، وأنها سجال تكون الغلبة فيـه بالنهايات، وبالمجموع للحسنات بمقارنة مجموع السيئات..

وفى الفقه التقليدى، فإن الإنسان يحاسب على كل سيئة، ويثاب على كل حسنة، ولكن فى فقه دعوة الإحياء الإسلامى فإن موقعه إنما يتحدد على أساس نتيجة المقاصة ﴿فأما مـن ثَقُلَتْ موازِينُه(٦) فَهو فِي عِيشَةٍ راضِيةٍ(٧) وأَما مـن خَفـتْ موازِينُه(٨) فَأُمه هاوِيةٌ﴾ . {٩ القارعة}..

ملاحظـات بعض الأوروبيين

وغير المسلمين على القرآن:

لقد أثارت الطبيعة الفذة والخاصة جداً للقرآن حيرة كثير من كتاب وعلماء الغرب الذين لا يلمون بالعربيـة. وحتـى المتعاطفين منهم مع الإسـلام مثـل جيبيـون، وكارليـل، وجوستاف لوبون فإنهم نددوا بأسلوب القرآن الكريم وعـدم انتظامه، ووجود تفاوتات وتناقضات وتداخل وتفكك الخ...

وإلى حد ما فهم معذورون لأن من لا يعرف العربية يعجز عن فهم القرآن كله.. حتى وإن ألم ببعض ما جاء به، إلا أن معظم الباقى يظل غير مفهوم.

ومما يدعم وجهة نظرهم أن المستشرقين، وهم الذين يلمون بالعربية ويتخصصون فى الإسلاميات يعتمدون على كتب التراث وتفسيرات المفسرين. وهذه محشوة بالأكاذيب والإسرائيليات والأحاديث الموضوعة ولكن المستشرقين يعجزون عن تبين ذلك باعتبار أن مؤلفيها من كبار العلماء وأقطاب الفقهاء الخ... فيأخذونها مأخذ التسليم ويطلع الأوروبيون على كتابات المفسرين، والمفروض أنهم قد تخصصوا فى الإسلاميات فيتأثرون بها..

والجميع معذورون...

فنحن لا نطالب المستشرقين بتحقيق ما جاء فى كتب التراث ومقارنة ما جاء بها بالقرآن. إن هذا معناه أن يكونوا "ملكيين أكثر الملك" أى أكثر تفهما من الفقهاء أنفسهم.

والذين بنوا أحكامهم على آراء المستشرقين من الأجانب معذورون لأنهم لا يعلمون العربية وقد اعتمدوا على الذين يعلمونها.

ونشأت عن هذا حاجة ماسة لتبديد شبهات تـدور فـى أذهان الآخر عن القرآن. مما يتطلب كتاباً كبيراً. وسنشـير هنا مجرد إشارات بقدر ما يحتمله المجال.

فمن الملاحظات وجود أحكام متفاوتة فى الحالة الواحدة. وهذه النقطة لم تثر حيرة الأجانب وحدهم بل أثارت حيـرة علماء التفسير ووجدوا حلاً لها فى النسـخ! فنسـخوا هـذا التفاوت بحيث لا يسرى إلا الحكم الناسخ..

وقضية النسخ مرفوضة من كافة الاعتبارات فلا يمكـن القول إن آية ناسخة لآية أخرى ما دامـت الآيـة الأخـرى موجودة فى القرآن. إذ أن وجودها يـرفض نسـخها، ولأن الاستدلال بالنسخ أمر ظنى اجتهادى يختلف من واحد لآخـر ولا يمكن إثبات نسخ بدليل قطعى الحدوث وهذا لا يتأتى إلا للقرآن(١).

وقد فات هؤلاء العلماء أن القرآن لا يريـد أن يحمـل الناس على محمل واحد، أو أن يوقفهم على مثل حد السيف. إنه يريد السعة والتعددية لأنه نزل لكل الناس ولكل العصور ولابد أن يوجد التفاوت والاختلاف والتعدد ليأخذ كل جيل بما

---

(١) لقد عالجنا موضوع النسخ وفندناه فى سبعين صفحة كبيـرة مـن كتـاب "الأصلان العظيمان الكتاب والسنة" ونأمل أن يطبع فى وقت واحد.

يتفق معه. ولا يمكن لواحد يمسك بآية قرآنية أن يقال له أن هناك آية تخالفها وعليك أن تطرح آيتك وتأخذ بآيتنا، فهذا أمر مرفوض لأن القرآن الكريم لا يضرب بعضه بعضا، ولكن يكمل بعضه بعضا فلكل واحد الحق فى الإمساك بآية وإعمالها ما دامت مثبته فى المصحف وهو على هدى وهو يمسك بحجة.

كيف إذن يحقق القرآن التعددية فى المجتمع إذا كان لا يقرر إلا أمراً واحداً، كما يريد الذين ادعوا نسخ كل الآيات المتفاوتة. أو الذين يأخذون بآية ويرفضون بقية الآيات التى تختلف عنها.

وقد يقال إن هذا يحدث بلبلة، والإسلام لا يضيق بالبلبلة لأنها هى أول خطوة للوصول إلى الحقيقة والحقيقة نفسها متعددة الأبعاد. فإما أن يصل الناس بعد تبادل الآراء والمناقشات والتمحيصات إلى حل.. وإما أن يكون من حقهم تعدد الحلول.. وهذه كلها مطلوبة ومقبولة وهى التى تحول دون مصادرة حرية الرأى الآخر أو إرادة الشعب.

على أن استعراض الأحكام المتعددة للحالـة الواحـدة يوضح إن هذا التفاوت جاء لاختلاف المواقع أو الحالات وأن كل حكم له وضعه..

وهناك شبهة القتال **وأن الإسلام انتشـر بالسـيف.** لأن بعضهم ألتقط آية فيها حث على القتال والفحص الدقيق لآيات القتال فى القرآن الكريم آية آية وسورة سورة من الفاتحـة حتى المعوذتين يثبت أن القتال كان درءاً للفتنة أو أنه كـان فى سبيل حرية العقيدة ولم يؤذن للمسلمين بالقتال إلا بعد أن أوذوا وظلموا وأخرجوا من ديارهم فهل الاستسلام لهذا الظلم هو التصرف الأمثل. أو التصرف الأمثل هو دفعة والقتال فى سبيل العقيدة، والأرض وما يملكه الإنسان ويعيش عليه..

وفى كل الآيات كان القتال رداً على عنوان ولا يزيـد أقساها عن المعاملة بالمثل على أن لا يكون هنـاك عـدوان وتوصية بالعفو والصلح. فهو فى حقيقة الحال قتال فى سبيل حرية العقيدة، وليس فى سبيل فرض العقيدة.

ولا يشيرون إلى الحماية التى أوجبها القرآن للـذين لا يعادون المسلمين أو يخرجونهم من ديارهم ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللـه عن الَّذِين لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدين ولَمْ يُخْرِجوكُمْ مِن دِيارِكُمْ أَن

تَبروهم وتُقْسِطُوا إِلَـيهم إِن اللـه يحِـب الْمقْسِـطِين﴾. {٨ الممتحنة}.. ولا إلى التأبيد لكل الأديان الأخرى التـى قننتـه سورة الكافرون إذ نصت بصراحة إن المسلمين لن يؤمنـوا بالأديان الأخرى وإن الأديان الأخرى لن تؤمن بالإسلام إذن ﴿لَكُم دِينُكُم ولِي دِينِ﴾.

على كل حال فسنعود إلى هذا الموضـوع بنـوع مـن التفصيل فى فصل الجهاد والإرهاب فضلاً عـن إن لـدعوة الإحياء الإسلامى مرجعاً هو كتاب الجهاد الذى جـلا كـل جوانب هذا الموضوع.

ويلتقطون إشارة عن جـواز ضـرب المـرأة الناشـز ويتجاهلون الحقوق التى منحها الإسلام للمرأة والتى لم تتمتع بها المرأة الأوروبية إلا حديثا كحرية الذمـة الماليـة لهـا وكاحتفاظها باسمها بعد الزواج الخ... ويغضون النظر عـن أن القرآن لم يأت بجديد، فقد كانت المرأة تضـرب كالعبـد، فحرم هذا. ولا تزال المرأة تضرب فى المجتمع الأوروبـى والأمريكى، وهناك جمعيات لحماية النساء المضروبات وأن النسبة ليست هينة عندما تحسب بعدد البلاغات مع أن اللائى لا يبلغن أكثر من اللائى يبلغن. كل هذا حادث وواقـع فـى

أوروبا وأمريكا اليوم رغم كل ما حصلت عليه المرأة من حقوق لأن الأمر يتصل بالطبيعة البشرية ووجود الانحرافات بين الناس جميعا بنسب متفاوتة..

ولا يذكر الذين يوردون هذه الإشارة إنها الملاذ الأخير وقد تكون البديل عن الطلاق.

لقد جاء ذكر ضرب المرأة لمناسبة معينة. فعندما هاجر القرشيون من مكة إلى المدينة وجد نساؤهم أن نساء المدينة يتمتعن باستقلال وشخصية لا يتمتعن بها فبدأن التمرد على أزواجهن. وعندما صفع أحد الأزواج زوجته ذهبت للرسول تشكوه، فأمرها الرسول أن تصفعه كما صفعها. ولكن قبل أن تنصرف المرأة نزلت هذه الآية وقال الرسول أردنا أمراً، وأراد ا أمراً آخر وما أراده ا خير. أن القرآن الذى نزل من ١٤٠٠ سنة كان لابد أن يلحظ المستويات الاجتماعية وقتئذ، وكانت تتطلب عند الضرورة هذا الإجراء.

كما تجب الإشارة إلى أن القرآن وإن "أباح" ضرب المرأة فى تلك الحالة الشاذة – حالة النشوز – ضرباً غير مبرح، أى بما يشبه السواك أو القلم الرصاص فإن الرسول انتقد الذين يمارسون ذلك، بل أعلن إنهم ليسوا من خيار

المؤمنين. ويمكن أن يعد هذا تفسـيراً للآيـة بـأن شـرار المسلمين هم الذين يطبقون هذه الرخصـة، يـدعم هـذا أن الرسول نفسه لم يضرب خادماً، فضلاً عن زوجه وهذا يـنم عن طابع الضرورة الخاصة التى ألجأت القرآن إلـى هـذا النص. ويجب أن نذكر أنه حتى القرن الخامس عشر كان من الممكن بيع المرأة فى إنجلترا وبلاد كثيرة من أوروبا وأنهـا لم تتمتع بحقوق منحها الإسلام للمرأة منذ ألف وربعمائة عام.

كما يلحظ أن الآية تضمنت تحريما للضرب فى غيـر حالة النشوز.

لابد أذن من ملاحظة كافة أبعاد الصورة حتـى نكـون عادلين...

وقد يجد بعض الأوروبيين أو غير المسلمين حساسـية فى تعبير "الكافرون" ولم يكن منه مناص ليشمل كل الذين لا يؤمنون بالإسلام، كما هو دأب القـرآن فـى الإيجـاز وإن الأوروبيين منذ أن ظهر الإسلام حتى الآن ينظـرون إلـيهم كوثنيين(١).

---

(١) آخر ما وصلنا من إشارات ما نشرته مجلة نيوزويك فى عددها الصـادر فى ١٨ أكتوبر ٢٠٠٣ عن الجنرال الأمريكى وليـام بـوكين الـذى عينتـه الحكومة الأمريكية نائباً لوكيل وزارة الدفاع الأمريكية للاستخبارات والمكاف

ولا يشيرون إلى حق الحق الذى قرره للإسلام للاقليات فى ممارسة عقائدهم وشعائرهم دون أن يضاروا.. فى الوقت الذى تضار الأقليات المسـلمة فـى المجتمعـات الغربيـة والأوروبية دون أن تشفع لهم أو تحميهم حقوق الإنسان.

ويتملكهم الروع والوحشية إزاء قطـع اليـد للسـارق ويجهلون أن العقوبة رادعة بمعنى أنها تحقق الخير للمجتمع وأن تفشى الجريمة فى المجتمع الحديث واستشـراء الفسـاد يبرر – بل يوجب – الأخذ بنظرية الـردع. كمـا تطلبـت الشريعة ضمانات وصلت إلى حد أن يلقن القاضـى المـتهم الأفكار فيقول له "هل سرقت قل لا" فيقول لا فيخلى سـبيله. هذا حدث عمليا فى عهد أبى بكر وعمر. ولا أحد يسعد بقطع الأيدى. وقد تغير وجه الرسول حتى أصبح كـالتراب عنـد تطبيق هذا الحد أول مرة. ولو عرف الناقدون مفاسد السجون

بمعالجة قضية الإرهاب الإسلامى واصفا المعركة التى خاضـها مـع أحـد الثائرين الصوماليين المسلمين "كنت أدرك أن إلهى هو إله حقيقى، وأن إلهـه ليس سوى صنم" وأكد أن السبيل الوحيد لهزيمة الشيطان – يعنى الإرهاب هو أن تشن أمريكا حربا باسم المسيح بوصفها أمة مسيحية، وتقول لوس انجلوس تايمز إنه كان يكرر أن ما يقوم به ليس إلا حرباً صـليبية معتبـراً أن كـل المسلمين – وليس الإرهابيين – عبدة أصنام. (أنظر العربى القاهرية عـدد ٩ نوفمبر ٢٠٠٣ ص٨). ومعروف بالطبع أن بوش تحدث عن الحـرب علـى الإرهاب بأنها حرب صليبية وبهذا لحق بالجنرال غورو الفرنسى والمارشال اللنبى البريطانى.

وأنها حرمان للحرية وهى أول ما يحرص عليـه الإنسـان وإذلال للكرامة وإشاعة للجريمة وللشذوذ وحرمان الأسـرة من عائلها لعدلوا عن لطمهم وندبهم..

في جميع الحالات فإن الفصل فى المستجدات بالنسـبة لأحكام الشريعة يعود إلى التثبت من بقاء الحكمة أو عدمـه. ويمكن أن يوكل الفصل فى ذلك إلى المجالس التشريعية كما يمكن أن يؤدى فيه الرأى العام دوراً كبيراً.

الفصل الرابع

السُنة

كيف نستوثق لها وكيف نعملها؟

السُنة هي المرجعية الثانية للإسلام...

وقد أثرت على الفقه والفكر الإسلامى أكثـر مـن أى مصدر آخر، بما فى ذلك القرآن، وكانت هى التـى أعطـت المسلم شخصيته النمطية، ومن أجل هذا كانت محـل عنايـة خاصة منا سواء فى كتابات سابقة[1] أو فى هذا الفصل.

فعندما كان الرسول بين المسلمين، كانوا يـأتمون بـه، ويهتدون بهديه، وكان هو الذى يبين لهم ما أجملـه القـرآن فعلمهم كيف يصلون، وكيف يحجون وكيف يصومون وكيف يقدمون زكاتهم فضلاً عن الآداب التى تتبـع فـى الزيـارة

١) نوجه الأنظار إلى إننا عالجنا هذا الموضوع بإفاضة فى كتاب "الأصـلان العظيمان الكتاب والسنة" ٣١٨ صفحة. وكتاب "السنة ودورها فى الفقه الجديد" وهو الجزء الثانى من كتاب "نحو فقه جديد" ٢٨٠ صفحة. وكل ما جاء فـى هذا الفصل موثق فى الكتابين السابقين..

والسلام وتناول الطعام ووسائل النظافة والطهـارة الـخ... وهذه كلها لم يكن فى القرآن تفصيل لها.. لأن دور الرسول ومهمته كان تبيانها.

وهذه هى السنة العملية. وهى فى حقيقة الحال ما ينطبق عليه تعبير "سنة" لأن السنة هى العمل وليسـت الأحاديـث والأقوال، ولكن المحدثين استحوزوا على تعبير السنة وجعلوه الحديث بحيث أصبح مفهوم السنة هو الأحاديث.

والسنة العملية محل إجماع من المسلمين حتـى الـذين ينكرون السنة القولية أو المرويـات، فلولاهـا لمـا عـرف المسلمون كيف يقيمون شعائرهم، وهذه السنة العملية هى ما يتوارثها المسلمون وهى – أى كيفية الصلاة والصوم الخ... التى يمكن أن يقال عنها "المعلوم من الدين بالضرورة".

وعندما توفى الرسول جدت أمور لم يكن للمسلمين بها عهد وكان دأب الخلفاء الراشدين هو البحث عمـا إذا كـان الرسول قد قدم حلاً، ومن ثـم بـدأ البحـث عـن "أقـوال" و"أحاديث" الرسول. لأن ما جهله صحابى كـان يمكـن أن يعرفه صحابى آخر.

وكانت هذه حالات معدودة – كالتى رواها عبد الرحمن بن عوف عن الرسول عندما يحدث وباء أو طـاعون فـلا يخرج المسلمون من منطقته، ولا يدخلونها فحل مشكلة لعمر بن الخطاب عندما وقع طاعون عمواس بالشام، أو حالة مهر مطلقة أو ميراث إحدى القريبات الخ... مما تتضـمنه كتـب الحديث والفقه..

ومع التوسع السريع الذى انتـاب المجتمـع الإسـلامى وانتقال عاصمة الخلافة من المدينة الحجازية إلـى الكوفـة العراقية ثم إلى دمشق الشامية وإسلام مئـات الألـوف مـن الموالى واندماجهم فى المجتمع الجديد وتعدد حاجات المجتمع أصبح البحث عن حديث للرسول مهمـة ملحـة، وأصـبح الحديث شيئاً ثميناً، يوزن بثقله ذهبا لأنه يوجد الحل الشرعى لإحدى القضايا (لأن القـرآن – كمـا ذكرنـا – لا يـذكر التفاصيل).

وظهرت فئة تخصصت فى ذلك أطلق عليها "المحدثون" الذين ركبوا الصعب والذلول بحثاً عـن الأحاديـث وكـان الصحابى يسافر من المدينة إلى الفسطاط بحثا عن حديث.

وقد يصور ذلك ما ذكره بن عباس قـال "لمـا قـبض الرسول قلت لرجل من الأنصار هلم فلنسأل أصحاب النبـى فإنهم اليوم كثير قال واعجبا لك أترى الناس يفتقرون إليـك قال فتركت الرجل وأقبلت أسأل فإن كان ليبلغنى الحديث عن رجل فأتى بابه وهو قائل فأتوسد ردائى علـى بابـه يسـفى الريح على من التراب فيخرج فيرانى فيقول يا بن عم رسول ا ما جاء بك هلا أرسلت إلى فأتيك فأقول لا أنا أحـق أن آتيك فأسأله عن الحديث فعاش ذلك الرجل الأنصارى حتـى رآنى وقد اجتمع الناس حولى يسألوننى فقال هذا الفتى كـان أعقل منى".

وفى بعض الحالات، عندما لم يجد المحدثون حديثا عن قضية مماثلة، قد وجد منهم من "يضع" حديثا يحل المشـكل بالصورة التى ارتضاها. كما وجد بعض المحدثين أن الناس انصرفوا عن الحديث والقرآن إلى أقوال الفقهاء "فوضـعوا" أحاديث عن فضائل السور "احتسابا كما قـالوا" ويمكـن أن يكون هؤلاء "الوضاع الصالحون" كما أطلق عليهم قد أضافوا المئات من الأحاديث من "الرقاق" التى ترغب النـاس فـى الطاعات وترهبهم من المعاصى..

وعندما بدأت الفتن التى أدت إلى مقتل عثمان بن عفان والخلاف بين على ومعاوية. وضرب المسـلمون بعضـهم بعضاً واشتجرت رماحهم فى صفين انفسح المجـال لوضـع الحديث تأييداً أو تنديداً بهذا الفريق أو ذاك. وكان الناس قبلها يتناقلون الحديث بطيب خاطر وحسن نية ولا يسـألون عـن السند فلما حدثت هذه الفتن واستفاضـت الأحاديـث بـدأوا يسألون عن السند.. ومن المؤكد أن ألوفا من هذه الأحاديـث التى كانت تُتناقل بين الناس دون سند "وضع" لها سند عنـد المطالبة به..

وكان فى الناس من يحرص على حـديث رسـول ا ينشده بشق الأنفس تبركا بحديثه واستفادة من علمه، كما كان هناك أناس آخرون اهتبلوا الفرصة وحققوا لهؤلاء الطيبـين غرضهم، وكان وراء هذا كله مجتمع متعطش إلى الأحكام..

كما لم نعدم لفيفاً من أعداء الإسلام الذين نقمـوا منـه انتشاره وانتصاره فعمدوا إلى وضع أحاديث تحـل الحـرام وتحرم الحلال – كما قال أحدهم عندما قبض عليـه وسـيق للموت، ولا يخالجنا شك أن المئـات مـن هـذه الأحاديـث الموضوعة لا تزال موجودة فى كتب الصحاح.

وعلى كل حال، فإن ظاهرة الوضـع – سـواء تأييـداً لمذهب فقهى أو ولاء لنظام سياسى أو الوضع "احتسـابا" أو الوضع كيداً قضية تسلم بها كتب الأحاديث المعتمـدة التـى تتحدث عن الحديث الصحيح "كالشعرة البيضاء فـى الثـور الأسود" خاصة فى العراق الذى وصف بأنـه "دار ضـرب الحديث" وأشار إليه الزهرى "يخرج الحديث من عندنا شبرا فيرجع ألينا من العراق ذراعاً" وقـال الحجـازيون "نزلـوا أحاديث أهل العراق منزلة أحاديث أهل الكتاب لا تصدقوهم ولا تكذبوهم" ولم تقصر أسباب الوضع على كيد الإسـلام أو الدس فيه أو التقرب إلى الحكام.. بل أصبح الباعث عليه فى بعض الحالات ما تصوره الوضاعون من خدمة الإسلام فكل ما يرقق القلوب أو يثير الرهبة أو يحفز على العمل الصالح أو يثبط عن السؤات أو حتى يأخذ شكلاً أسلوبيا جميلاً كـان يمكن صياغته فى حديث ووضع سند له "تقربا إلـى ا " أو "حسبة"! أو كما قالوا "نحن نكذب له" (أى للنبـى صـلى ا عليه وسلم) لا عليه" وأجاز التساهل فى رواية هذه الأحاديث عدد من الأئمة منهم أحمد بن حنبل وعبد ا بـن المبـارك

وقال ابن عبد البر "أحاديث الفضائل لا يحتاج معها إلى مـن يحتج به".

روى عن عبد ا بن المسور (أبو جعفر المدائنى) أنـه كان يضع الحديث عن رسول ا ، ولا يضع فيه إلا العبـادة والزهد، فقيل له: لم تفعل ذلك؟ قال إن فيه أجراً.

وروى النووى: وقد سـلك مسـلكهم بعـض الجهلـة المتسمين بسمة الزهاد. ترغيباً فى الخير فى زعمهم الباطل.

وقال سلمة بن شبيب سمعت إسماعيل بن أبـى أويـس يقول "كنت أضع الحديث لأهل المدينة إذا اختلفوا فى شـىء فيما بينهم".

ويقول يحيى بن معين: ما رأيت الصالحين يكذبون فـى شىء أكذب منهم فى الحديث.

وذكر ابن الصلاح إن هناك ٦٥ صنفاً مـن صـنوف الحديث منها ٤٢ للحديث الضعيف ويقول الحـازمى "علـم الحديث يشتمل على أنواع كثيرة تبلغ المائة، كل نوع منهـا علم مستقل لو انفق الطالب عمره لما أدرك نهايته.

وقال ابن عباس كنا إذا سمعنا رجلاً يقول "قال رسـول ا " ابتدرته أبصارنا وأصغينا له بآذاننا فلما ركـب النـاس

الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف. وفى رواية أخرى قال إنا كنا نحدث عن رسول ا ، إذا لم يكن يكـذب عليه فلما ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه.

وتتحدث هذه الكتب عن أحمد بن حنبل الذى ألم بمليون حديث وأن البخارى عرف ستمائة ألف ومالك خمسمائة ألف حديث وأبو داود كذلك خمسمائة ألف مع أن هـؤلاء الأئمـة عندما وضعوا كتبهم لم يكتبوا إلا ما يعادل ٥% مما ألموا به فمسند الإمام أحمد بن حنبل ضم ٣٠ ألف حديث وموطأ مالك ضم خمسمائة وأحاديث البخارى ما بين خمسة آلاف وسبعة آلاف وسنن أبى داوود ٤٨٠٠ حديثاً فنسبة ما أثبته هـؤلاء الأئمة فى كتبهم بالنسبة إلى ما ألموا به يوضـح أن المـدى الذى وصل إليه الوضع فى عهدهم قد يصل إلى قرابة ٩٥% من هذه الأعداد "المهولة".

وتثير السُنة قضيتين: الأولـى قضـية الثبـوت والثانيـة قضية مدى حجية السُنة.

قضية الثبوت:

أشرنا إلى شيوع الوضع الذى أخذ شكلاً وبائيـا صـعد بعدد الأحاديث إلى مليون حديث (أو كما يقولون ألف ألف).

وذكرنا أسباب ذلك من تأييد أو معارضة للمذاهب السياسـية أو المذهبية أو نتيجة للخلافات التى استعرت فـى المجتمـع الإسلامى فى المائة الأولى بعد الهجـرة أو كيـداً للإسـلام أو"حسبة" أو اختلافا للتوصل إلى حكم مبنى علـى حـديث. ولكننا لم نشر إلى السبب الذى أفسح المجـال لبلـوغ هـذا الوضع. هذا السبب هو عدم تدوين السنة حتى مرور المائـة سنة الأولى، عندما أمر الخليفة عمر بن العزيز باتخـاذ أول إجراء لتدوينها.

وقد حاول المحدثون الإدعاء بأن السـنة كتبـت أيـام الرسول واحتجوا بصحيفة عمرو بـن العـاص "الصـادقة" وقراب سيف على بن أبى طالب وحديث "اكتبوا لأبى شـاه وهذه مجرد مماحكة، فلم يكن فى قراب سيف على بن أبـى طالب إلا ثلاثة أحاديث. أما صحيفة عمرو بن العاص فسيرد الحديث عما شابها من شبهات. وتصريح الرسـول بكتابـة خطبه بناء على طلب "أبى شاه" يدل على أن الكتابة إنما تتم بأذن وتصريح من الرسول.

فضلاً عن الحقيقة الواقعة، أن أبا بكر لم يدون السـنة، وأن عمر لم يفعل وكذلك عثمان (رغم أنه جمـع القـرآن)

وكذلك على. وظل الأمر كذلك حتى عمر بن عبـد العزيـز عندما بدأ أول محاولة لتدوين السنة، وهذه الواقعة التاريخيـة تنفى أى تدوين للسنة.

قال السيوطى نقلاً عن الذهبى "فى سنة ثلاث وأربعين ومائة شرع علماء الإسلام فى هذا العصر فى تدوين الحديث والفقه والتفسير وصنف ابن جريج بمكـة ومالـك الموطـأ بالمدينة والأوزاعى بالشام وابن أبى عروبة وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة ومعمر باليمن وسفيان الثـورى بالكوفـة وصنف بن أسحاق المغازى وصنف أبو حنيفـة رحمـه ا الفقه بالرأى، ثم بعد ذلك بيسير صنف هيثم والليـث وابـن لهيعة ثم ابن المبارك وأبو يوسف وبن وهب.. وكثر تـدوين العلم وتبويبه، ودونت كتب العربية واللغة والتـاريخ وأيـام الناس وقبل هذا العصر كان الناس يتكلمون من حفظهـم أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة[١]".

إن هذه الواقعة التى لا نرى أنفسنا فى حاجـة لإثباتهـا بجانب إنها بالطبع أفسـحت المجـال للوضـع، وبالتـالى، لزعزعة عملية الثبوت، فإن لها دلالة أعظـم فيمـا يتعلـق

(١) السيوطى تاريخ الخلفاء – دار النهضة ٧١ ص٤١٦.

بحجية السنة، سنشير إليها فى الفقرة التالية المتعلقة بحجيـة السنة أما هنا فإننا نوردها باعتبار أنها من أكبر الأسباب التى سمحت بالوضع، وغلى تصعيب عملية تنقية وفرز الأحاديث التى يحتمل نسبتها إلى الرسول، والأحاديث التى يقطع بأنها موضوعة عليه. وإطار الاحتمال يتسع بحيث يصعب التثبت الدقيق.

إن هذه الحقيقة أى عدم تدوين السنة تثبـت أن تـداول الحديث كان شفاهيا لما لا يقل عن مائة سنة حافلـة بـالفتن والانشقاقات والخلافات. فهل يعقل أن يؤخذ بما يسفر عنـه التناقل الشفهى لمدة مائة عام؟.

إننا لو دعينا خمسة أو ستة فى وليمة ولو سألناهم بعـد أسبوع عما دار من حديث لتفاوتت أراءهم تفاوتاً بالغاً فمـا بالك إذا كانت المدة مائة عام ينقل فيها جيل عن آخر.

لقد قدم لنا القرآن الطريقة التى يثبت بها الحق فى آيـة الدين، بسورة البقرة ٢٨٢. وعنى – على غيـر عادتـه – بإثبات تفاصيلها وتأكيدها فاشترط الكتابة، وان تكون الكتابـة بحضور شاهدين، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان، وأن لا يمتنع الشهود، ولا يضاروا، ويكتبوا بدقه ﴿ولا تسأموا أن

تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله، ذلكم أقسط عند ا   وأقـوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا﴾. فإذا كانت هذه هى طريقة القرآن فى دين بضعة دنانير. فأولى أن يكون ذلك فيما تستحل بـه الفروج والدماء.

فلو قال قائل إن أسلوب التناقل الشفاهى طوال مائة عام قبل التدوين أسلوب لا يتوفر فيه التوثيق والتحرير والإشهاد الذى تثبت به الحقوق. وبالتالى فلا يعول عليه. لكان له سند قوى لا من طبائع الأمور، ولكن أيضا من موجبات القـرآن الذى أشترط التوثيق والشهود لإثبات الحـق، ولعلـه كـان يستطيع أن يستشهد بالأحاديث المتواترة أى التى قيـل إنـه اجتمع عدد كبير من الرواة يروى كل واحد منهم من الآخـر حتى الوصول إلى الصـحابى، والتـى يعتبرونهـا مؤكـدة ويلحقونها بالقرآن، هذه الأحاديث تكاد معظمها التى تكـون مؤتفكات وأساطير فبعضها عن شق صدر الرسـول وعـن معجزاته وعن المهدى وعن الدجال الخ...

ولكن رأى البعض أن عوامل خاصة أو طارئة وجـدت تشفع لطريقة التناقل الشفهى مثـل قـوة حافظـة العـرب، والاعتماد على الذاكرة قبل أن يعرف أو ينتشـر التـدوين.

والقداسة التى كانت تحوط النص النبوى. ولأن الرسول كان عادة يتكلم ببطأ ويكرر حديثه كما كان الصحابة يراجعونـه حتى لا يفوتهم حرف ولا يقومون إلا "كأنما زرع فى قلوبنا" وهذه كلها وإن أوضحت المبررات التى أدت لاستخدام هـذه الطريقة، فإنها لا تغير طبيعتها – وهى إن الاعتماد شفاها أو "عنعنة" على السند لتقدير حالة الحديث وصحته من عدمه لا يمكن أن تقبل وإنها دون أقل شك سمحت بدخول الكثير مـن الأحاديث الموضوعة أو الضعيفة أو الركيكة.

إننا لو قبلنا – جدلاً، ومن باب التجاوز – مبـدأ السـند على أساس الراوى العدل عن الراوى العدل كما وضع ذلـك الشافعى لجابهتنا حقائق جديدة تهدم البقية الوهنانة الباقية من دواعى الأخذ به.

من ذلك الاختلاف الكبير فى تقدير عدالة الراوى وهذا أمر طبيعى لأنه يتعلق بشخصية الراوى، أى بجانب إنسانى لا يمكن ضبطه بمعايير حسابية، أو علمية، ومن هنـا جـاء الاختلاف ما بين المحدثين فمنهم من يرفع راويا إلى عنـان السماء بينمـا يخسـفه محـدث آخـر إلـى درك الأرض! والاختلاف فيما بين البخارى ومسلم يوضح أن الاختلاف فى

تقدير العدالة وتقييم الراوى وصل إلى هذين الحجتين وكتـب الرجال مثل "ميزان الاعتدال" حافلة بهذا بما يضيق المجـال عن الإشارة إليه.

وقد كان الإمام أحمد بن حنبل يستبعد كل من قال بخلق القرآن أو ذكر عنه هذا. فضلاً عن ميول مذهبيه. فقـد روى البخارى لمروان بن الحكم طريد رسول ا والذى نسب إليه قتل طلحة وروى عن المغيرة بن شعبه والى معاويـة علـى الكوفة وكان كلما صعد على المنبر شتم عليا ومدح معاويـة" وروى لعمران بن حطان صاحب الأبيات المشهورة فى رثاء عبد الرحمن بن ملجم قاتل على بن أبى طالب.

يا ضربة من تقى ما أراد بها

إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا

إنـى لأذكـره يوماً فأحسبه

أوفى البـرية عنـد ا ميـزانا

ولم يرو عن على إلا بضعة أحاديث فى بعضها لمزاً له ولم يرو عن أبى حنيفة ولو حديثاً واحداً.

وروى عن عكرمة رغم كل ما قيل عنـه وأن مسـلم استبعده.

ولم يخل كتاب من الكتب الستة مـن أخـذ بأحاديـث ضعيفة أو موضوعاً.

فصحيح مسلم تضمن حديث خلق التربة يـوم السـبت وحديث قول أبا سفيان لما أسلم أريد أن أزوجـك أم حبيبـة الخ...

أما الحاكم صاحب المستدرك فقد قال الأمام العينى فـى البناية فى شرح الهداية عرف بتساهله وتصحيحه للأحاديـث الضعيفة، بل والموضوعة.

وقيل إن أبا داود يخرج أحاديث عن الضعفاء ويسـكت عنها. وكذلك المدلسين بالعنعنة والأسانيد التى فيها من أبهمت أسماؤهم.

وعن الترمذى قال الحافظ الذهبى فى سير أعلام النبلاء "قاضٍ له بإمامته وحفظه وفقهه، ولكنه يترخص فـى قبـول الأحاديث ولا يشدد ونفسه فى التضعيف رخو".

وقال الشيخ السباعى فى كتاب السنة (ص٤٥٥ الطبعـة الثانية) "وسنن ابن ماجة دون السنن الثلاثة فى الدرجة قـال السيوطى فى شرح المجتبى "تفرد فيه بإخراج أحاديث عـن رجال متهمين بالكذب وسرقة الأحاديث وبعض تلك الأحاديث

لا تعرف إلا من جهتهم مثل حبيب كاتب مالك والعلاء بن زيد وداود بن المحبر وعبد الوهاب بن الضحاك وغيرهم".

وحتى صحيفة عمرو بن العاص "الصادقة" وجد من يقول "ما يسرنى إنها لى بفلسين"[١].

إن الذين وضعوا علوم الحديث بقدر ما كانوا نقدة يحرصون على أن لا ينسب للرسول ما لم يقله، فإنهم كانوا من ناحية أخرى حريصين على أن لا يفات حديث يحتمل النسبة إلى الرسول. كانوا ناقدين، وكانوا جماعين وهاتان صفتان متناقضتان وهى السر فى بداية التنازلات عن التشدد، فأُلحق الحديث الحسن بالحديث الصحيح، ودعم الحديث الضعيف بتعدد الروايات حتى اعتبر الحديث الموضوع أسوأ الأحاديث الضعيفة، فأدخل حظيرة الأحاديث وهو منها براء، وكان هناك عدد كبير من رواة المسانيد والصحاح يقبلون رواية الضعفاء قال النسائى (لا يترك الرجل عندى حتى يجتمع الجميع على تركه) ويقول ابن الصلاح عن النسائى "أن النسائى يخرج أحاديث من لم يجمع على تركهم فإنه يريد بذلك إجماعاً خاصا.. فإذا وثق عبد الرحمن بن مهدى

---

(١) تأويل مختلف الحديث لابى قتيبة. المكتبة الأزهرية ص٧٧.

الراوى وضعفه يحيى القطان فإنه لا يتركه لما عـرف مـن تشدد يحيى".

اعتبر المحدثون أن الصحابة جميعاً عدول وأدخلوا فيهم كل من رأى الرسول ولو للحظة واحدة، وهو تقرير يخـالف المنطق وطبائع الأشياء، والآيات العديدة التى لا تجعل للنسب ميزه، فمن باب أولى الصحبة. كما أدخلوا فيهم الأطفال كعبد ا بن عباس والحسن والحسين بن على والنعمان بن بشـير وأنس بن مالك وأبى سعيد الخدرى اللذين قالت عنهما عائشة "ما علم أنس بن مالك وأبى سعيد بحديث رسول ا ، وإنمـا كانا غلامين صغيرين". وقد عمر أولهما أنـس بعـد وفـاة الرسول ٨٢ عاماً، وعمر الثانى أبو سعيد الخدرى ٦٤ عاما وبلغ عدد الأحاديث التى رواها أنس ١٢٨٦ والأحاديث التى رواها أبو سعيد ١١٧٠ بل ادخلـوا الجـن الـذين عرفـوا الرسول!.

ويمكن أن يقال هذا على جابر بن عبد ا الـذى خـدم الرسول غلاما وبلغت عدد الأحاديث التـى رواهـا ١٥٤٠ حديثاً.

ولكن مذهب المحدثين أن سماع بن خمس سنين صحيح (جامع مسانيد الإمام الأعظم للخوارزمى) ص٣٤٨.

ويلحظ أن رواية الأطفال (عبد ا بن عباس – النعمان بن بشير – أنس بن مالك – أبو سعيد الخدرى – جابر بـن عبد ا) هى أعظم قدر من الأحاديث وهؤلاء الـذين مـات الرسول وهم أطفال عمروا بعده ما يقارب ثمانين عامـاً، أى أن القليل الذى علق بأذهانهم بحكم صغرهم كـان لابـد وأن ينسى بالبقاء بعده عشرات السنين..

وبقدر ما دافع المحدثون عن صغر سن هؤلاء الأطفال الرواة، بقدر ما دافعوا عن صحة روايتهم بعد أن بلغوا أرذل العمر فجاء فى تعقيب لأحد العلماء عما أثاره الشيخ الكوثرى عن هرم أنس بن مالك وأثر ذلك على روايته.

"وزعمه أنه هرم غير قويم لأن الهرم أقصى الكبر ولم يبلغ أنس أقصى الكبر أما من جهة كبر السن فقد قيل إنه لـم يجاوز المائة وقيل جاوزها بثلاث سنين وغلّطوا من قال إنه جاوزها بسبع سنين وقد كان فى عصره من قومه وغيـرهم من عاش فوق ذلك فبلغ حسان مائة وعشرين سـنة وكـان سويد بن غفلة يؤم الناس فى قيام رمضان وقد أتى عليه مائة

وعشرون ثم عاش حتى تم له مائة وثلاثون وبلغ أبو رجـاء العطاردى مائة وسبعا وعشرين سنة وبلغ أبو عمرو سعد بن إياس الشيبانى مائة وعشرين سنة وحسان الصحابى من قوم أنس وسويد وأبو رجاء وأبو عمرو كلهم ثقات أثبات مجمـع على الاحتجاج برواياتهم مطلقا ولم يطعن أحد فى أحد مـنهم بأنه تغير بآخر وأما من جهة قوة البدن فلم يزل أنس صالحا حتى مات لم يعرض له وهن شديد وأما من جهة كمال العقل وحضور الذهن فلم يزل أنس كامل العقل حاضر الذهن حتى مات"(١).

كذلك أجاز المحدثون الرواية بالمعنى بعد أن اتضح لكل من لديه أثارة من عقل استحالة الرواية باللفظ عينه الذى قاله الرسول.. بعد تلك المدة الطويلة، ومن عشرات الرواة عبـر مائة عام، فضلاً عن اعتراف عدد من كبار المحدثين فقـال سفيان الثورى إذا قلت لكم إننى أحدثكم كمـا سـمعت فـلا تصدقونى إنما هو المعنى.

(١) ص١٠١ طليعة التنكيل بما فى تأنيب الكوثرى من الأباطيل. تأليف عبـد الرحمن بن يحيى المعلمى (مطبعة الإمام ١٠ الدماشة عابدين مصر) وهو رد على كتاب كان قد أصدره الشيخ محمد زاهد الكوثرى بعنوان تأنيب الخطيب على ما ساقه فى ترجمة أبى حنيفة من الأكاذيب. "والخطيب هـو الخطيـب البغدادى مؤلف الموسوعة المشهورة تاريخ بغداد".

وروى عن أبى سعيد الخدرى قال كنا نجلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عسى أن نكون عشرة نفـر نسـمع الحديث فما منا اثنان يؤديانه متطابقا غير أن المعنى واحد.

وقد يتسامح عندما يكون اختلاف اللفظ فى مثل "قام" بدلاً من وقف أو جلس بدلاً من قعد، ولكن المبدأ لا يمكن التسليم به فى نصوص يمكن أن تعد قاعـدة قانونيـة. لأن اللفـظ المترادف قد يتضمن معان أخرى تفسد الاستدلال.

كان من قواعد المحدثين أن رواية الأكابر عن الأصاغر جائزة، وذهب بعضهم كالزرقانى أن "ما روى عن الصحابى بما لا مجال للرأى فيه موقوفاً عليه، فإن له حكـم المرفـوع وإن احتمل أخذ الصحابى له عن أهل الكتاب تحسينا للظـن به!!!"، ومن هذا القبيل رواية أبى هريرة عن كعب الأحبار.

ولم تقف العلاقة ما بين أبى هريرة وكعب الأحبار عند رواية حديث أو اثنين، إذ يبدو أن كعب الأحبـار اسـتطاع بدهائه، ولما يعرفه من حرص أبى هريرة على التحديث أن يخالطه مخالطة وثيقة قال بشر بن سعيد "كنا نجـالس أبـى هريرة فيتحدث عن رسول الله ويحدثنا عن كعب الأحبار ثم يقوم فأسمع بعض من كان معنا يجعل حديث رسول الله عن

كعب وحديث كعب عن رسول ا   وفى رواية يجعل ما قاله كعب عن رسول ا   وما قاله رسول ا   عـن كعـب" رواه مسلم وأنظر ابن كثير فـى البدايـة والنهايـة ج٨ ص١١٨ وساعد على ذلك أن أبا هريرة كان يدلس أى يـروى عـن الرسول ما لم يسمعه من الرسول نفسه دون أن يذكر ذلك.

وروى العبادلة الثلاثة (عبد ا   بن عمر بن الخطـاب، وعبد ا   بن عمرو بن العاص، وعبد ا   بن عبـاس) عـن كعب الأحبار أيضاً.

وأخيراً فإن عدداً من الفقهاء أجـاز وضـع الأحاديـث بطريقة ملفوفة أو غير مباشرة. قال أبو العباس القرطبى فى شرح صحيح مسلم "أجاز بعض فقهاء أهل الرأى نسبة الحكم الذى يدل عليه القياس الجلى إلى رسـول ا   نسـبة قوليـه فيقولون فى ذلك قال رسول ا   صلى ا   عليه وسـلم كـذا، ولهذا تجد كتبهم مشحونة بأحاديـث تشـهد متونهـا بأنهـا موضوعة لأنها تشبه فتاوى الفقهاء ولا تليق بجزالة كلام سيد المرسلين.

ويروى عن أبى لهيعة – كما أخرج فى الحلية – عـن رجل من الخوارج "إن هذه الأحاديث دين فـانظروا عمـن

تأخذون دينكم، فإننا كنا إذا هوينا أمراً صيرنا له حديثا" فـإذا كان عدوى الوضع أصابت الخوارج ولـديهم الكثيـر مـن التقوى والورع، فما بالك بأهل التساهل والترخص.

وقال خالد بن يزيد سمعت محمد بن سعيد الدمشقى يقول إذا كان كلام حسن لم أر بأساً من أن أجعل له إسناداً انظـر شرح النووى لمسلم ج١ ص٣١.

* * *

هذه الغشاوات المتكانفة والشبهات المترادفة والملابسات المريبة تنم عما ساور الكثيـر مـن الشـكوك فـى صـحة الأحاديث، بل حملت بعض الناس علـى أن ينكـروا السـنة القوليه (المرويات) ويرون الاكتفاء بالسنة العملية.. وذهـب الخوارج إلى استبعاد كل من اشترك فى التحكـيم وصـفين. وهو الموقف الذى وقفته المعتزلة لأن أحد الفريقين مخطـئ دون أن نعرفه بعينه" وكان واصـل ابـن عطـاء لا يعتـد بأحاديث الآحاد والحديث عنده "خبر مجمع عليه".

ووجد من المحدثين أنفسهم من يرى أن صحة الحـديث لا توجب القطع به لجواز الخطأ والنسيان على الثقة، وأنـه

يفيد الظن وهذا يسرى على كل حديث الآحاد لا فرق فى ذلك فى أحاديث الشيخين (البخارى ومسلم وغيرهما).

كما اشترط أبو حنيفة ثمانيـة شـروط لـيمكن الأخـذ بالحديث..

وعند معالجتنا للإرسال فى كتاب "السنة" قلنا "وقد يهون أمر الإرسال إذا علمنا أن اتصال الرواة فى الفترة مـا قبـل التدوين مما لم يكن موضوعاً لتحقيق وكل ما أمكن التثبـت منه هو ما بين راوى كالبخارى وشيخه كالحميدى أما هـل كان هناك اتصال ما بين الرواة واحداً مع الآخـر مـا بـين الحميدى حتى من روى عنه ومن روى عنه حتى الـراوى عن الرسول فليس هناك توثيق له خاصة وأنه لم يكن يسـأل عن السند حتى فتنة عثمـان وكـان علـى المتـأخرين أن يفترضوه افتراضاً ما لم يكن هناك دليل على عدم الصلة بين راويين كموت أحدهما قبل ولادة الثانى. وعلى هذا فقد تكون معظم الأحاديث التى وصلتنا مرسلة دون أن نعلم".

ولكن اكتسح الجميع مد عال يقول "إذا صح الحديث فهو مذهبى" وتحت هذا الشعار دخلت الأحاديـث الحسـنة فـى

الأحاديث الصحيحة ودخلت الأحاديث الضعيفة فى الأحاديث الحسنة، ودخل الموضوع فى الأحاديث الضعيفة.

أن مأساة المحدثين أنهم فى سـورة انـدفاعهم لجمـع الأحاديث استحوزت عليهم فتنة الحديث التى قال عنها عبـد الرحمن بن مهدى "فتنة الحديث أشد من فتنة المال والولد، لا تشبه فتنته فتنة. كم من رجل يظن به الخير قد حملته فتنـة الحديث على الكذب" يقول ابن رجب تعليقاً على ذلك "يشـير إلى من حدث من الصالحين من غير اتقان وحفظ فإنما حمله على ذلك حب الحديث والتشبه بالحفاظ فوقع فى الكذب على النبى صلى ا عليه وسلم، وهو لا يعلم ولو تورع واتقى ا لرأى الكف عن ذلك فسلم".

والحقيقة إن المحدثين كانوا أسرى الإسناد الـذى ملـك قلوبهم وغيب عقولهم فأصبحوا تبعا له، وفى ضوء ذلك نفهم قبول المحدثين لأحاديث لا ريب فى إنها دست علـى النبـى لأنها تمسه، ومع ذلك دافع عنها المحدثون دفاعـاً حـاراً.. فتقبلوا أن يسحر الرسول حتى لا يدرى ما يقول، وأن يزيـد فى سورة النجم "تلك الغرانيق العلا وأن شفاعتها لترتجـى" وأنه أمر زوجه أبى حذيفة بأن ترضع سالما مولاها بعـد أن

أصبح رجلاً حتى يمكنه أن يدخل عليها، وأنه كان يطـوف على زوجاته جميعا فى اليوم الواحد بزعم أنه أوتـى قـوة أربعين رجلاً الخ...

مدى حجية السُنة

أشرنا فى الفقرة الثانية عن "الثبوت" إلى عـدم تـدوين السنة. وأثره فى إشاعة الوضع وزعزعة الثبوت، ويسوغ لنا هنا أن نقول إن عدم الكتابة لم يكـن إهمـالاً أو إغفـالاً أو تقصيراً، ولكنه كان استجابة لأمر الرسول بعدم تدوين السنة، ومن أجل هذا لم يستحل أى واحد لنفسه كتابة السنة.

وأحاديث النهى عديدة عن الرسول، وعـن أبـى بكـر وعمر وعدد كبير من الصحابة الذين كانوا يرفضون كتابـة الحديث وإن حدثوا. وقد حاول المحدثون اللـف والـدوران والادعاءات لعل أبرزها أن النهى كان خشية اختلاط الحديث بالقرآن، وهو إدعاء ركيك لأن كل من يلم بالعربية يعـرف الصياغة المتميزة للقرآن الكريم التى لا يقربها أى حديث.

والسبب الحقيقى كان خشية أن يعكـف النـاس علـى الأحاديث ويهملوا القرآن.. وهذا هو ما صرح به الرسـول نفسه.

فعن أبى هريرة قال "خرج علينا رسول ا   ونحن نكتب أحاديثه، فقال: ما هذا الذى تكتبون؟ قلنا: أحاديـث نسـمعها منك، قال: أكتاب غير كتاب ا ؟ أتدرون ما ضل الأمم قبلكم إلا بما كتبوا من الكتب مع كتاب ا ، قلنا: أنتحدث عنك يـا رسول ا ؟ قال: تحدثوا ولا حرج، ومن كذب على فليتبـوء مقعده فى النار". يقول أبو هريرة: فجمعنا ما كتبناه وألقينـاه فى النار[1].

وفى حديث آخر لأبى هريرة قال: بلـغ رسـول ا   أن أناساً كتبوا حديثه فصعد المنبر وقال: ما هذه الكتـب التـى بلغنى أنكم قد كتبتم؟ إنما أنا بشر، من كان عنده شىء فليأت به. يقول أبو هريرة: فجمعناها وأتلفناها[2].

روت السيدة عائشة عن أبيها أبى بكر قال: جمع أبـى الحديث عن رسول ا ، وكان خمسمائة حديث. فبـات ليلـة يتقلب كثيراً، فلما أصبح قال: أى بنية! هلمى الأحاديث التـى عندك. فجئته بها. فدعا بنار وأحرقها[3].

---

(١) تقييد العلم.
(٢) تقييد العلم.
(٣) تذكرة الحفاظ.

ولما ولى عمر بن الخطاب وقف موقفاً متشدداً ضد كتابة السنة. فقد روى عنه عروة بن الزبير قال استفتى عمر أصحاب رسول ا بكتابة السنن، فأشاروا عليه أن يكتبها. فطفق يستخير ا شهراً ثم أصبح يوما فقال: إنى كنت أريد أن أكتب السنن، وأنى ذكرت يوماً قبلكم كتبوا كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب ا ، وإنى وا لا أشوب كتاب ا بشىء أبداً، وقال: لا كتاب مع كتاب ا .

وعلم عمر أن بعض الصحابة يحتفظون لديهم بأحاديث كتبوها عن النبى صلى ا عليه وسلم فصعد إلى المنبر وخطب فقال: أيها الناس! بلغنى أنه قد ظهرت فى أيديكم كتب، فأحبها إلى ا أعدلها وأقومها، فلا يبقين أحد عنده كتاب إلا أتانى به فأرى رأيى به، فظن الذين كتبوا عن رسول ا أنه يريد أن ينظر فيها، فأتوه بكتبهم، فجمعها وأحرقها بالنار وقال: أمنية كأمنية أهل الكتاب. ثم كتب إلى الأمصار: (من كان عنده من السنة شىء فليمحه).

ولما طُعن عمر من قبل أبى لؤلؤة كان يحتفظ ببعض الأحاديث عن رسول ا ، فقال لأبنه: ناولنى الكتف يا عبد

ا ! قال: أنا أكفيك محوها. قال: لا وا لا يمحوها غيـرى فمحاها بيده[1].

وتمسك الصحابة بنهى النبى عن كتابة أحاديثه، وكـان بعضهم يكتب الحديث ليحفظها فإذا حفظـه كـان يتلفـه أو يوصى عليه بإتلافه قبل موته.

وحدث أبو سعيد الخدرى فقال: استأذنت رسـول ا أن أكتب حديثه فأبى أن يأذن لى[2].

ويقول زيد بن ثابت: إن النبى نهانا أن نكتب حديثه[3].

وأمسك التابعون عن كتابة الأحاديث وكان بعضـهم إذا سمع حديثاً كتبه ليحفظه فإذا حفظه محاه أو أتلفه قبل مماته.

هذه الشواهد كلها تثبت النهى عن تدوين السنة..

وعند التساؤل عن السبب قبل أنهم خشـوا اختلاطهـا بالقرآن. وهذه دعوى لا يمكن أن تقف لأن أسلوب القـرآن متميز ولا يمكن محاكاته.

والحقيقة أنهم خشوا من عكوف الناس علـى الحـديث وترك القرآن. وان يحدث لهذه الأمة ما حدث لأمـم أخـرى

---

(١) طبقات بن سعد.
(٢) البخارى.
(٣) تقييد العلم.

عكفت على كتب من وضع أيديهم وتركوا كتبهم المنزلة وهو ما صرح به عمر بن الخطاب وغيره.

وأى واحد يقرأ ما أورده الصحابة والتابعون ينتهى إلى هذا الرأى.

وهذه الحساسية كان لها ما يبررهـا. فهـؤلاء الأئمـة استشفوا بظهر الغيب ما سيحدث، فأرادوا تبرئة أنفسهم منه.

فقد روى عن سعيد بن المسيب أن رجلاً طلب إليـه أن يكتب له حديثاً، فقال له: أتجعلونه مصاحف تقرؤونها؟ كـان نبيكم يحدثنا فنحفظ، فاحفظوا كما حفظنا عن نبيكم.

وروى سعيد بن جبير عن عبد ا بن عباس مثل ذلك. فقال لرجل: (أنا لا نكتب العلم ولا نكتتبه) والمقصود بـالعلم هو السنة.

وروى أبو نضرة قال: قلت لأبى سعيد الخدرى: إنـك تحدثنا عن رسول ا حديثاً حسناً. فلو كتبنـاه، قـال: لـن اكتبكموه ولن أجعله قرأنا.

وروى الأسود بن هلال عن عبد ا بن مسعود قـال: أتى عبد ا بصحيفة فيها أحاديث، فدعا بماء فمحاهـا ثـم

غسلها ثم قال، وا   لو أعلم أنها بدير هند لبلغتها. وبهذا أهلك أهل الكتاب قبلكم حين نبذوا كتاب ا   وراء ظهورهم.

وروى عن زيد بن ثابت أنه دخل مرة على معاوية بن أبى سفيان، فسأله حديثاً وأمر رجلاً أن يكتبه، فقال زيـد: إن رسول ا   أمرنا أن لا نكتب شيئاً من حديثه.

وقال الخطيب البغدادى: كان غير واحد من المتقـدمين إذا حضرته الوفاة أتلف ما كتبه من السنة، أو أوصى بإتلافه، وقد ذكر عدداً من التابعين الذين أتلفوا ما كتبوه قبل وفـاتهم، منهم إبراهيم النخعى المتوفى سنة ٩٦ هـ.

* * *

هذه الأحاديث عن الرسول بالنهى عن كتابـة حديثـه، وتطبيق أبى بكر وعمر وعامة الصحابة ذلك لابد لهـا مـن سبب..

فلماذا نهى الرسول عن تدوين حديثه؟.

لابد أن هناك حكمة..

تلك الحكمة هى أن دور الرسول هو تفصيل ما أجملـه القرآن. وكان أكثر هذا الأجمال فى مجال العبـادات علـى نقيض ما قد يتصور البعض إذ يفترض أن يحـدد الكتـاب

المنزل من ا تفاصيل العبادات. ولكن هذا أمر استبعده القرآن الكريم فلم تتضمن آياته تفصيلاً حتى فى الصلاة، أو الصيام أو الحج أو الزكاة الخ... لأن القرآن – باعتباره دستور الإسلام، وباعتبار الإسلام آخر الديانات، فإن معنى هذا أن ما سيقرره من تفاصيل سيصبح ملزماً لكل الأجيال. وا تعالى يعلم أن الزمان والمكان واختلاف الأجناس والأعراف.. كلها تضيق بالتفاصيل وتطور فيها، أو حتى تستبعد بعضها، ولما كان القرآن يعلم هذا فإنه لم يذكر إلا الكليات التى يريد لها التأبيد والذى لا يكون عليها خلاف بين الأجيال لأنها مما يسلم بها العقل ويوجبه الضمير ويتقبله المجتمع..

ولكن ليس معنى هذا أن تترك التفاصيل دون إيضاح، إذ لابد أن يعلم الناس تفاصيل الصلاة والزكاة والحج والصيام الخ... وهذا هو الدور الذى وكله القرآن الكريم للرسول.

وقد قام الرسول بهذا، وبين للمسلمين تفاصيل الكليات التى أجملها الإسلام.

ولكنه – فى الوقت نفسه – نهى عن أن يكتب حديثه، لأن الرسول الذى كان خلقه القرآن – يعلم بالطبع الحكمة

التى من أجلها استبعد القرآن ذكر التفاصيل، إلا وهـى أن لا يثقل على الأجيال بتفاصيل قد تتعارض مع التطور – ورأى الرسول أنه إذا دون حديثه فإنه سيكتسب صفة التأبيد، وبهذا يتعارض مع ما أراده ا من عدم إلزام الأجيال بالتفاصيل.

وكان الحل أن يطبق المسلمون حديثه، ويتنـاقلوا هـذا الحديث من أب لابن ويطبق ما دام سائغاً ومتفقاً مع التطـور وتظل هذه العملية مائتى سنة، أو خمسمائة سنة مثلاً، ولكنها لا تظل إلى النهاية، إذ سيأتى وقت يختفى الحديث المتناقـل ويفقد أثره أو تظهر دواعى ترتفق على الـنص السـنى، أو غير ذلك. وعندئذ يكون على المسلمين أن يلتجأوا إلى القرآن الكريم ليستلهموا منه أحكاماً تفى بحاجاتهم وتتفق مع القرآن أو يعودوا إلى "الحكمة" قرينة الكتاب لالتماس الحل.

وليس فى هذا ما يمس السنة، لأن الأمر بعدم التـدوين إنما جاء من الرسول ولأن الرسول قرره فى بعض الأحاديث التى سبقت الإشارة إليها وفى حديث عوف بن مالـك قـال: خرج علينا رسول ا وهو مرعوب متغيـر اللـون فقـال: "أطيعونى ما دمت فيكم، وعليكم بكتاب ا عز وجل فـأحلوا حلاله وحرموا حرامه" وفى رواية "خطبنا رسول ا بالهجير

وهو مرعوب فقال: "أطيعونى ما كنت بين أظهركم وعليكم بكتاب ا أحلوا حلاله وحرموا حرامه" هذا الحديث الذى اجتمع فيه أربعة من الصحابة يروى بعضهم عن بعض ينبئ بأن الرسول استشرف أن المسلمين سيحلون السنة دون أن يكون موجوداً ليظهر ما تطرق إليها من خطأ أو نسيان أو وضع محل القرآن الكريم فتملكه الكرب[1].

وروى كذلك عن الرسول أنه قال "لا أحل إلا ما أحل ا فى كتابه، ولا أحرم إلا ما حرم ا فى كتابه" وفى رواية "لا يمسكن الناس على بشىء فإنى لا أحل لهم إلا ما احل ا ولا أحرم إلا ما حرم ا ".

والأحاديث عن الرسول عديدة فى أن الحرام هو ما حرمه القرآن والحلال هو ما أحله القرآن وما بعد ذلك عفو..

وروى عن الصحابى أبى إمامة انه سئل هل اوصى الرسول فقال لا فقيل له كيف. وقد أمر كل مسلم أن يعد وصيته فقال "أوصى بالقرآن".

(١) أنظر الحديث فى زيادات محاسن الاصطلاح على مقدمه ابن الصلاح للبلقينى تحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن (دار المعارف بمصر) ص ٦٨٤ – والحديث أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد ١٧٠/١ وقال رواه الطبرانى فى الكبير ورجاله موثقون .

* * *

فإذا قيل إن الرسول لم يأمر بشىء من عندياته، وإنمـا عن وحى قلنا إن الوحى السنى الذى أصدر بمقتضاه أحكامه يختلف عن الوحى القرآنى.. وإلا لكان هناك وحيان..

إن لدينا أوصافاً دقيقة لكيفية نزول الوحى القرآنى على الرسول ونعلم منها وجود جبريل وتلقينه الرسول وما اقترن به ذلك من ثقل حتى لتنوء الناقة وتكاد تبرك. وقـد يسـمع الرسول مثل صلصلة الجرس أو دوى النحل وقـد يتفصـد عرقاً فى الليلة الشاتية ويتمخض هذا كله عن آيات قرآنية.

ولكننا لا نقرأ عن وصف كهذا بالنسبة للوحى السنى – وحى البيان – وإنما نقرأ تعبيرات للرسول تنم عـن وحـى ولكن ليس بالوحى الذى كان جبريل ينزل عليـه بـالقرآن، ولكن يلهمه الرسول. فنعرف عدداً من الأحاديث تبدأ بكلمـة "أمرت" أو "نفث فى روعى" مثل:

إن روح القدس نفث فى روعى أن لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها. فاتقوا ا واجملوا فى الطلب.

أتانى آت من ربى فقال صل فى هذا الوادى المبـارك وقل عمرة فى حجة .

أُمرت بأن أسجد على سبعة أعظم.

أُمرت بقرية تأكل القرى يقولون يثرب وهـى المدينـة تنفى الناس كما ينفى الكير خبث الحديد.

أمرت بيوم الأضحى عيداً جعله ا لهذه الأمة.

من هنا نعلم أنه ليس كل ما جاء فى السنة – حتى لـو كان صحيحاً – يكون ملزماً، لما عرضنا من أسباب.

ويجب الإشارة إلى أن الفقهاء استبعدوا جزءً كبيراً مـن الأحاديث باعتبار أنها لا تعد تشريعاً وأن سؤالاً قدم إلى لجنة الفتوى بالأزهر "هل من أنكر استقلالية السنة بإثبات الإيجاب والتحريم يكون كافراً فرد الأزهر فى فتوى منشورة" وبعـد مقدمات عديدة.

"ومما سبق يتضح أن الإيجاب والتحـريم لا يثبتـان إلا باليقين القطعى الثبوت والدلالة، وهذا بالنسبة للسنة لا يتحقق إلا بالأحاديث المتواترة، وحيث أنها تكاد تكون غير معلومة لعدم اتفاق العلماء عليها[1] فإن السـنة لا تسـتقل بإثبـات الإيجاب والتحريم إلا أن تكون فعلية أو تضاف إلى القـرآن الكريم. وعلى هذا فمن أنكر استقلال السنة بإثبات الإيجـاب

---

(١) وكيف با تكون متواترة ثم يقال إنها تكاد تكون غير معلومة لعدم اتفـاق العلماء عليها! (تعقيب من المؤلف).

والتحريم فهو منكر لشىء اختلاف فيه الأئمة ولا يعد مما علم من الدين بالضرورة فلا يعد كافراً[1]".

فضلاً عن أن لهذا التكييف سند آخر هـو أن الحكمـة بصفة عامة هى المرجعية الثالثة، فإذا حكمنا بهـا فإننـا لا نكون قد خرجنا عن المرجعيات التى قررها الإسلام".

* * *

موقف دعوة الإحياء من السُنة :

لقد عنيت دعوة الإحياء الإسلامى بتوثيق وشرح كل ما جاء فى هذا الفصل فى كتاب خاص هو كتاب "السنة ودورها فى الفقه الجديد" وهو الجزء الثانى من كتاب "نحو فقه جديد" وفى فصل خاص عن الحكمة فى كتاب "التعددية فى مجتمع إسلامى" ويمكن لمن يريد التفصيل والأسانيد أن يرجع إليهما.

إن دعوة الإحياء الإسلامى ترفض تماماً فكـرة جحـد السنة واستبعادها والاكتفاء بالقرآن على أساس ما قدمناه من شكوك قوية فى مصداقيتها وصحة ثبوتها. مع شيوع الوضع وسقم الطريقة التى اتبعها المحدثون في تحديد درجة الحديث

---

(٢) نشرت الفتوى بكتاب الشيخ محمد الغزالى تراثنا الفكرى ص١٧٥ – ١٧٩ ومجلة الأحرار بتاريخ ٩٣/٨/٥.

بحال رجاله، لأننا لا نستطيع أن نجزم أن هذا قد حال بالفعل دون وصول أحاديث تصح نسبتها للرسول. وما دام ليس فى استطاعتنا الجزم، وما دام فى كل قاعدة استثناء، وما دام المتن – هو المعول فى الاعتبار – يمكن أن يكون حكيماً متفقاً مع القرآن. وما دام هذه الأحاديث فيها أصالة وإبداع وفيها عبق النبوة الذى يختلف عن طريقة الفقهاء أو الفلاسفة فهذه المقدمات توجب علينا التسليم بأن فى هذا الكم "المهول" من الأحاديث الموضوعة والركيكة والسقيمة والمشبوهة.. أحاديث أخرى صحيحة النسبة للرسول..

ونعتقد أن أى مسلم سليم الطوية، لا يمكن أن يرفض السنة، وأن هذا لابد وأن يحيك فى صدره لأنه قد يصل إلى إنكار الرسول نفسه، فما الرسول إلا أقوال وأفعال ترتبط بها أقوال فإذا جحدناها، فكأنما نجحد الرسول فأين هذا من القرآن الكريم الذى لا يفتأ يتحدث عن "ا والرسول". إن الرسول هو قرة عين المسلمين، ومهوى قلوبهم وهو عصمتهم وأسوتهم وقدوتهم ومنقذهم فى الدنيا وشفيعهم فى الآخرة وهم يحبونه فوق ما يحبون أنفسهم. إن عقم أسلوب التناقل الشفاهى لا يجوز أن يتطور إلى إنكار السنة لأن

السنة هى أعمال الرسول ودوره الضخم. وهـذه الأعمـال والدور لابد وان تقترن بأقوال وتوجيهـات. فكيـف نأخـذ بالأعمال دون ما اقترنت به من أقوال؟ والأقوال هى الـنقط على الحروف.. بل إننا يمكن أن نذهب إلى ما هو أبعد، وهو أن رسالة رسول الإسلام لا توجه للمسلمين فحسب، وإنمـا للناس كافة لأنه رسول للناس كافة وتعد السنة تراثه للعـالم أجمع، وليس للمسلمين فحسب ولا يمكنهم التصـرف منهـا تصرف المالك فيما يرث.

وهناك ناحية هامة كشفت عنها دعوة الإحياء الإسلامى ولا نرى إشارة إليها فى المراجع التراثيـة. تلـك هـى أن الرسول لا يبلغ القرآن فحسب، ولكنه يقدم أيضاً الحكمة..

والآيات التى تثبت هذا عديدة مثل:

﴿يتْلُو علَيهم آياتِك ويعلمهم الْكِتَاب والْحِكْمـةَ ويـزكيهم إِنك أَنْتَ الْعزِيز الْحكِيم﴾. {١٢٩ البقرة}..

﴿يتْلُو علَيكُم آياتِنَا ويزكيكُم ويعلمكُم الْكِتَـاب والْحِكْمـةَ ويعلمكُم ما لَم تَكُونُوا تَعلَمون﴾. {١٥١ البقرة}..

﴿واذْكُرن ما يتْلَى فِي بيوتِكُن مِن آياتِ اللهِ والْحِكْمةِ إِن الله كَان لَطِيفًا خَبِيرًا﴾. {٣٤ الأحزاب}..

﴿يتْلُو عليْهم آياتِهِ ويزكيهم ويعلمهم الْكِتَاب والْحِكْمةَ وإِن كَانُوا مِن قَبلُ لَفِي ضلالٍ مبِينٍ﴾. {٢ الجمعة}..

ومعروف أن الشافعى الذى لفتت انتباهه كلمة الحكمـة تصور أنها السنة، ولكن استعراض مواضع استخدام القـرآن لها يقطع بأنها ليست السنة. لأن القرآن أضفى الحكمة علـى كل الأنبياء تقريباً إبراهيم وسليمان وداود وعيسـى ولقمـان الخ... مما ينتفى معه أن يكون معنى الحكمة هو السنة.

وذهب ابن رشد إلى أن الحكمة هى الفلسفة وقد قـارب الاثنان (الشافعى وابن رشد) الصواب بصفة عامة وبصورة غير مباشرة، لأن الحكمة يمكن أن تدخل فى إطـار السـنة، ولأن الحكمة يغلب أن تتفق مع الفلسفة **ولكن تظل الحكمة لها شخصيتها المميزة...**

وأدعى قوم أن "الواو" ليست للمغـايرة بحيـث تكـون الحكمة شيئاً آخر عن القرآن الكريم الـذى تعطـف عليـه. ويقولون إن العطف بالواو فى القـرآن قـد يكـون للتبيـين والتوضيح وليس للمغايرة. ولكن السياق فـى نظرنـا يـأبى هذا...

وناحية ثانية أغفلها الكتاب، تلك هى أن الأنبياء ليسـوا مجرد مبلغين فحسب، ولكن لهم دور فـى تربيـة وتعلـيم المؤمنين ليكونوا دعاة، وقادة فيهم خلائق القادة والدعاة وليس صنع هؤلاء بالأمر الهين، ولا يمكن – حتى للقرآن وحده – أن يصنعهم لأن ذلك يتطلب معايشة وثيقة، وموالاه، ومتابعة وتوجيه، وأمر ونهى وتصحيح وأسوة وقدوة إلى آخـر مـا يكون على المربى أن يقوم به نحو من يربيه. ويجب أن نعلم أن الأنبياء عمليا هم أعظم قادة لأعظم ثورات وأن هذا مـا كان يمكن أن يتم لولا وجود "كادر" أشرف علـى توجيهـه أعظم المربين وأكثرهم حكمة. ومن أجل هذا نجد أن القرآن يستخدم كثيراً تعبير "ويعلمهم الحكمة" كما يجعل من الرسول أسوة وقدوة. والمعنى التعليمى والتربوى بارز، وقـد علـم الرسول صحابته بحيث ظهر منهم أمثال أبى بكـر وعمـر وعلى وأبى عبيده وخالد بن الوليد الخ... ممن تعلموا علـى يدى الرسول "الحكمة" أى وضع الشىء موضعه دون إفراط أو تفريط والالتزام بالقيم والسيطرة على أهواء النفوس وهذه كلها علمهم الرسول بأقواله حينا. وبسـيرته حينـا آخـر.. وواضح أن هذا الدور يعتمد على ملكات الرسول الشخصـية

ودرجة ذكائه وكياسته ومعرفته بالنفوس وأصول المجتمعات الخ...

إن الرسول يمثل الجانب البشرى فى الرسـالة والمثـل الأعلى الإنسانى الذى يكون على المسلم أن يسـتلهمه فـى سلوكياته وأخلاقه فيكون حليماً عند الغضب محسنا يصل من قطعة ويحسن إلى من أساء إليه. ولا يسـمح للشـهوات أن تضله عن غايته أو تسترقه الخ... ما يعرف به الرسول من كرائم الأخلاق – ومما كان من أكبر أسباب نجـاح الـدعوة الإسلامية. إن تركيز الفقه السلفى على مرويات قوليه عبادية تنسب إلى الرسول وإغفاله ما أنصف به من كرائم الأخـلاق والعبقرية العملية كان له أثر سيئ فى تضخم **الطبيعة القوليه دون الفعلية وساعد على وجود انقسام فى شخصية ونفسية المسلم. فهو يقول كلاماً حسنا ويقدم عملاً سـيئاً ولا يجـد تناقضاً فى ذلك. ولو أخذنا السُنة بمعنى "الرسول" لكان من المحتمل أن لا يوجد هذا النقص الكبير.**

إن خلائق وصفات الرسول كزعيم أمة، وقائد جـيش، وإدارى دولة. من أهم ما يجب أن يدرس للقيادات السياسـية وأن تخصص له أبواب فى النظام السياسى وفن القيـادة لأن

الرسول يقدم توجيهات، ويسلك سلوكاً هو الأمثل للقيادة وهو ما يجنبها مزالق الزهو والترف والاستئثار وهى المقاتل التى تؤتى منها القيادات. لقد كان افتقاد هذا العنصر هو سبب مـا اتصفت به القيادات من الموبقات التـى لوثـت عبقـريتهم وأساءت إلى طريق حكمهم. بل إن الفقهاء قد اعتبروا هـذا القسم من السنة مما لا يعد تشريعاً فلا عجب إذا كانـت أول عروة من عرى الإسلام انحلت هى الحكم والمفروض أن لا تتكرر المأساة وأن يعنى المعاصرون بما أغفلـه الأسـلاف بحيث تكون قيادة محمد محل دراسـة مـن كـل الزعمـاء السياسيين وتدرس باعتبارها جزءاً لازماً من القيادة السياسية ويحاسب الزعماء بدرجة اتباعهم أو انصـرافهم عنهـا. إن القدوة نظام تربوى إسلامى من أكثر النظم فعالية.. وقد قـال ا ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسـُولِ اللـهِ أُسـوةٌ حسـنَةٌ﴾. {٢١ الأحزاب}..

إن قضية الحكم بأسرها تتأثر بسياسة القـادة وتنسـحب نتيجة حماقاتهم على شعوبهم وقد تؤدى سياسـة متهـورة أو هزيمة عسكرية لتأخر الشعوب لمئات السنين.. فأهمية هـذا العامل مما لا يحتاج إلى برهنة..

على أن الرسول لم يكن فحسب زعيماً لأمة، أو رأسـاً لدولة أو قائداً لجيش فحسب. إنما كان أيضاً أبا رؤوفا وزوجاً عطوفاً وصديقا مخلصاً باراً بوعده. صادقاً فى كلامه، وهذه كلها يجب أن تكون نُصب أعين المسلم كزوج، وكأب، ومـا أعظم ما كان المجتمع الإسلامى يتغير لـو عامـل الأزواج زوجاتهم كما كان الرسول يعامل زوجاته بالمحبة، والرقـة، والمداعبة والمشاركة فى عمل البيت.

وما كان أعظم التغيير لو علم الآباء كيف كان الرسول يعامل أبناءه. ويحنو عليهم وأنه لم يضرب أحد قط لا غلاماً، ولا خادماً هذه كلها كان يجب أن تكون محل دراسـة مثـل أركان الوضوء وطريقة الصلاة الخ...

* * *

وقد وضعت دعوة الإحياء الإسلامى أثنى عشر معياراً قرآنيا لضبط السنة. فما اتفق معها أخذنا به وما اختلف معها توقفنا فيه، وذكرت هذه المعايير بالتفصيل فى كتاب السـنة ودورها فى الفقه الجديد – وهو الجزء الثانى من كتاب "نحو فقه جديد".

وفيما يلى أهمها :

التوقف أمام الأحاديث التى جاءت عن الغيب و**المغيبات بدء من الموت حتى يوم القيامة والجنة والنـار** فهذه هى ما استأثر ا تعالى بعلمها. وحتى لو كشف عنها للرسول. فليس لكى يقولها الناس لأنها لن تعد غيبا وقد قالت السيدة عائشـة رضى ا عنها من "زعم أن محمداً يعلم ما فى غد فقد أعظم الفرية على ا " وتحدث القرآن مراراً وتكراراً عن السـاعة ووضح للرسول. ﴿فِيمَ أَنْتَ مِـن ذِكْرَاهـا**(٤٣)** إِلَـى ربـك منتَهاها**(٤٤)** إِنما أَنْتَ منذِر من يخْشَاها﴾**.** {٤٥ النازعات}..

التوقف أمام كل الأحاديث التى جاءت **بتفسير المبهمات فى القرآن، وكل ما جاء عن نسخ** فى القرآن أو وجود آيات أو سور ليست فى المصحف. والتوقف عن الأحاديث التـى جاءت عن **أسباب النزول.**

وتوقفنا هو لسـبب موضـوعى وآخـر شـكلى أمـا الموضوعى فهو أن ا تعالى أراد لهذه المبهمات أن تظـل مبهمة ولو أراد العلم بها لذكره. ولكن ذكر هـذه المبهمـات يخالف أصلاً قرآنيا هو الاقتصار على الكليـات، والتركيـز على المغزى وليس السرد القصصى، والتفاصيل بالإضـافة

إلى تمييعها للأسلوب، وتشتيتها للاهتمام الذى يكـون علـى حساب المغزى، وهى بعد تثير قضـية الإثبـات التـاريخى المعقدة التى قلما يتوصل إليها.

أما السبب الشكلى فهو أن هذه الأحاديث تحكم روايـات معظمها ركيك وسقيم ومشبوه ويناقض بعضها بعضـاً فـى التنزيل الحكيم قطعى الثبوت. ولا يمكن لمثلها أن تتصـدى لمثله. فهى مرفوضة شكلاً وموضوعاً.

وأى واحد يقرأ القرآن ثم ينظر فى هذه الروايات فكأنما انحط من حالق أو خر من السماوات العلا إلى درك الأزقـة المظلمة.

التوقف أمام أحاديث **تخالف الأصول القرآنية – بوجـه خاص العدل** – وما جاء به القرآن مـن تحديـد المسـئولية الفردية، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى.

التوقف أمام الكثير من الأحاديث التى جاءت عن المرأة بدءاً من خلقها من ضلع أعوج حتى حجابها حتى لا تظهـر إلا عينا واحدة. وطى كل الأحاديث التى جاءت عن **الزواج والطلاق وأحكام الرقيق وأحاديث الفىء والغنائم والجزيـة الخ...** باعتبارها خاصاً بمرحلة معينة انتهت وطويـت. وأن

الباقى منها كالزواج والطلاق الخ... يعالج فى ضوء الثوابت القرآنية وما تلهمه الحكمة من أحكام.

التوقف أمام الأحاديث المتكررة عن **معجزات الرسـول** من شق الصدر أو حنين الجذع الخ.. لأنها تخالف القاعـدة المحورية فى الإسلام وهى: أن معجزة الإسلام هى القـرآن وأنه لم يحدث أن حمل الرسول أحداً على الإيمـان نتيجـة لمعجزة جلاها وإنما حملهم على الإيمان بما كان يتلـو مـن قرآن.

وذكر هذه المعجزات يوهن من أثر القرآن، ومن حقيقة أن الإسلام عندما جعل معجزته كتابا كان يؤذن بعهد العقـل والفكر والكلمة، وينهى عهد المعجزات والإذعان والخرافة.

ونصوص القرآن صريحة فى نفى كل معجـزة سـوى القرآن. ﴿أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾. {٥١ العنكبوت}..

التوقف أمام كل الأحاديث التى **تكفـل ميـزة خاصـة لأشخاص أو أماكن أو قبائل الخ..** لأنها تخالف قاعدة رئيسية من قواعد الإسلام هى أن الميزة إنما تكون بالعمل والتقـوى وليست بالأحساب أو الأنساب.. وأن ا تعالى اصطفى بنى

إسرائيل، ولكنهم لما لم يقوموا برسـالتهم غضـب علـيهم وأنزلهم أسفل سافلين مما يوضح أن الحظوه عنـد ا   إنمـا تكون بالعمل، كما أن هذه الأحاديث تخالف أحاديث عديـدة تنفى أن يكون للقربى أثر " يا صفية يا فاطمة أعملى فإنى لا أغنى عنك من ا   شيئاً ".

وطبقاً لهذا فإن الأحاديث عن فضائل قريش، بما فيهـا "الأئمة من قريش" أو غيرها من قبائل العرب أو الفـرس أو الترك الخ.. وكذلك الأحاديث عن فضل مدن أو أماكن معينة باستثناء مكة لوجود البيت العتيق بها، والمدينة لوجود مثوى الرسول بها والمسجد الأقصى "الذى باركنا حوله"..

التوقف أمام الأحاديث التى تخالف الآيات العديدة فـى القرآن الكريم **عن حرية الاعتقاد.**

هناك أحاديث **جاءت بما لم يأت به القرآن، نحن نحكم عليها فى ضوء القرآن فما لا يخالف القـرآن يقبـل ومـا يخالفه يستبعد.** فتحريم زواج المرأة على عمتهـا وخالتهـا. وتحريم لحم الحمر الأهلية أمور لا نرى مانعا فيها، ونجـد فيها قياساً سليماً.

وهناك أحاديث مثل المسح على الخفين فـنحن نتقبلهـا كرخصه من حق الرسول تقريرها لأنه "رحمة للعـالمين" و "عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم" وأنه "لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم" وهى تتفق مع مبدأ التيسير، وهو أصل إسلامى جاء به القرآن والرسول فـنحن نتقبل شاكرين هـذه الرخصة، ونرى أنهـا مـن صـلاحية الرسول أما غسل الأقدام فى الوضوء فنحن نرى له حكمة لا تخفى، وإن كنا نجيز إعمال الآية[1]، أى المسح..

ولكننا نتوقف عند حديث الـرجم لأنه يخالف النصوص القرآنية التى جاءت عن الزنا، ولأنه يمثل عقوبة أقسى ممـا جاء فى القرآن. وللرسول أن يسن ما فيه تخفيف ورحمـة. بحـكم ما سمح به القرآن له وأشرنا إليه. ولكن لا يجوز أن يسن حكماً أقسى مما جاءت به الآيات "لست عليهم بجبار"..

ويبدو أن الرسول طبق ما جاء فى التوراة خاصـة وأن التطبيق الأول للحد إنما كان على يهوديين. ويعد هذا العمـل من اجتهاد الرسول ولعله طبق مبدأ "شرع ما قبلنا شرع لنـا ما لم يخالف".

(١) نحن نرى أن الآية ٦ من سورة المائدة تقتضى كسر "أرجلكم" عطفا على "برؤوسكم" وأن هذا هو ما يحكم به السياق .

التوقف أمام **كل الأحاديث التى تنذر بعقاب رهيب على أخطاء طفيفة، وتعد بنعيم مقيم لكل من يتلو أوراداً أو يصلى نوافل..**

الأحاديث التى جاءت **عن الأكل والشرب واللبس والزى والركوب** وما إلى ذلك من شئون الحياة الدنيا لا تعد ملزمة فى كل شئ وإنما هى أخبار عن واقع الحياة اليومية فى جزيرة العرب فى القرن الأول للهجرة، وتؤخذ كجزء من التاريخ.

استبعاد كل الأحاديث التى تنص على طاعة الحاكم، "وان ضرب ظهرك وأخذ مالك". والصلاة خلف كل بر وفاجر الخ...

استبعاد حديثين عن الميراث نسخا ما جاء فى القرآن..

الحديث الأول: عن عبد الله بن عباس عن النبى أنه قال: (ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فهو لأولى رجل ذكر).

ويقصد بأهل الفرائض هم الورثة الذين حددت الشريعة ميراثهم بسهام مقدرة من التركة، ومعنى الحديث إعطاء هؤلاء الورثة فروضهم أولاً، وإعطاء ما بقى منها إلى أقرب

رجل إلى الميت من جهة الأب، وهم العصبات الذكور الذين كانوا يرثون لوحدهم فى الجاهلية، وحرمان مـن هـم فـى درجتهم من نساء وذوى أرحام من الميراث معهم.

الحديث الثانى: رواه الترمذى وابن ماجة عن النبى إنه قال (اجعلوا الأخوات مع البنات عصبة).

هذا الحديث يجعل الأخت إذا اجتمعت مع البنت، ولـم يكن معها أخ، كالأخ العصبى فى الميراث. ترث مثله ما بقى من فرض البنات، وتحجب عن الميراث مثلما يحجـب الأخ من يليه من العصبات الذكور.

وهذا الحديث يتعارض أيضاً مع آية الكلالة رقم (١٧٦) من سورة النساء، لأن الأخت لا ترث بمقتضاها شـيئاً مـع البنت.

كما أن هذا الحديث يناقض حديث (ألحقـوا الفـرائض بأهلها) لأن الأخت ليست بصاحبة فرض مع البنت وليسـت برجل ذكر، إذ لو كانت صاحبة فرض لوجب أن تأخذ سهماً مقدراً من التركة، لا أن تأخذ ما بقى من فرض البنات.

إذا طبقنا هذه المعايير على كتب السُنة، بما فى ذلـك الكتب الستة، بما فيها البخارى ومسلم – فسـنتوقف أمـام

عدد كبير – بالمئات – من الأحاديث التى يعتبرونها صحيحة. وما علينا من حرج فى هذا، لأننا إنما نعمل القرآن. ولأن القضية ليست قضية كم وعدد فرُب حديث واحد يعدل ألف حديث. وفى هذا وأمثاله مقنع لنا وصيانة لحديث الرسول العظيم من هذا الحشف البالى التى جاءت به المرويات.

الفصل الخامس

المرجعية الثالثة

الحكمة

ألف علماء الإسلام أن يقولوا إن أصول الفقـه أربعـة. القرآن والسنة والاجتهاد والإجماع. وقد أثار الإمـام أحمـد والشافعى الشبهات أمام الإجماع بما يهده هداً. أما "الاجتهاد" فإنه لا يمثل أصلاً، ولكن آلية وهو بالكيفيـة التـى حـددها الفقهاء وسيلة محدودة لعلها تعطى عكس معناها لأنها تقيـد الاجتهاد باتحاد العلة على نقيض كلمة معاذ بن جبل "أجتهـد رأيى ولا آلو".

وهذا يعنى إن للإسلام أصلين.. هما القرآن والسنة، وقد أفسد المفسرون استلهام القرآن بالإسـرائيليات كمـا لـوث المحدثون السنة بلوثات الوضع.

فى الوقت نفسه غفل الفقهاء عن أصل كـان يمكـن أن يكمله ويصلحه وينفى عنه الشوائب والافتياتات. ذلـك هو الحكمة.

هذا الأصل الذى جاء النص عليه صريحاً فى القـرآن وقارنا الكتاب بالحكمة مثل:

﴿ويعلمهم الْكِتَاب والْحِكْمةَ﴾ .{١٢٩ البقرة}..

﴿ويعلمكُم الْكِتَاب والْحِكْمةَ﴾ .{١٥١ البقرة}..

﴿واذْكُروا نِعمةَ اللهِ علَيكُم وما أَنزلَ علَيكُم مِن الْكِتَـابِ والْحِكْمةِ يعِظُكُم بِهِ﴾ . {٢٣١البقرة}..

﴿واذْكُرن ما يتْلَى فِي بيوتِكُن مِن آياتِ اللهِ والْحِكْمةِ إِن الله كَان لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ . {٣٤ الأحزاب}..

﴿هو الَّذِي بعثَ فِي الْأُميين رسولاً مِنْهم يتْلُو علَيهِم آياتِهِ ويزكيهِم ويعلمهم الْكِتَاب والْحِكْمةَ وإِن كَانُوا مِن قَبـلُ لَفِـي ضلالٍ مبِينٍ﴾ {٢ الجمعة}..

كما مهدت له، ودلت عليه الإشارات العديدة فى القرآن عن العقل، والفكر، والتدبير والسير فـى الأرض والاتعـاظ بالحضارات القديمة الـخ... والتعـرف علـى السـماوات والأرض والجبال، والكون بأسره.

ولفتت كلمة الحكمة نظر الشافعى، وأعتبر إنها السـنة، لأنه لم يتصور أن يقدم الرسول شيئاً مع القرآن إلا السنة.

ولكن استعمال القرآن للكلمة ينفـى ذلـك نفيـا تامـا، والعجيب من الشافعى رحمه ا كيف لم يلحظ ذلك.

لقد استخدم القرآن كلمة الحكمة فى آيات عديدة:

﴿وقَتَلَ داوود جالُوتَ وآتَاه الله الْملْك والْحِكْمةَ وعلمـه مِما يشَاء ولَولَا دفْع اللهِ الناس بعضهم بِبعضٍ لَفَسدتْ الْأَرض ولَكِن الله ذُو فَضلٍ علَى الْعالَمِين﴾. {٢٥١ البقرة}..

﴿وشَددنَا ملْكَه وآتَينَاه الْحِكْمةَ وفَصلَ الْخِطَـابِ﴾ . {٢٠ ص}..

كما أتاها "الحكمة" لقمان:

﴿ولَقَد آتَينَا لُقْمان الْحِكْمةَ أَن اشْكُر لِلهِ ومن يشْكُر فَإِنما يشْكُر لِنَفْسِهِ ومن كَفَر فَإِن الله غَنِي حمِيد﴾ . {١٢ لقمان}..

كما أتاها عيسى :

﴿ويعلمه الْكِتَاب والْحِكْمةَ والتوراةَ والإِنجِيلَ﴾ . {٤٨ آل عمران}..

﴿ولَما جاء عِيسى بِالْبينَاتِ قَالَ قَد جِئْتُكُم بِالْحِكْمةِ ولِأُبين لَكُم بعض الذِي تَخْتَلِفُون فِيهِ فَاتقُوا الـلـه وأَطِيعـونِي﴾. {٦٢ الزخرف}..

بل أتاها النبيين :

﴿وإذْ أخَذَ الله مِيثَاقَ النبيين لَما آتَيتُكُم مِن كِتَابٍ وحِكْمةٍ ثُم جاءكُم رسولٌ مصدقٌ لِما معكُم لَتُؤْمِنُن بِهِ ولَتَنْصرنه قَـال أأقْررتُم وأخَذْتُم على ذَلِكُم إِصري قَالُوا أقْررنَا قَالَ فَاشْـهدوا وأنَا معكُم مِن الشاهِدِين﴾ . {٨١ آل عمران}..

كما تكلم عن الحكمة بصفة مجرد :

﴿يؤْتي الْحِكْمةَ من يشَاء ومن يؤْتَ الْحِكْمةَ فَقَـد أُوتِـي خَيرًا كَثِيرًا وما يذكر إلا أُولُوا الألْبابِ﴾. {٢٦٩ البقرة}..

﴿ادع إِلَــى ســبِيل ربــك بِالْحِكْمــةِ والْموعِظَــةِ الْحسنَةِ﴾.{١٢٥ النحل}..

﴿حِكْمةٌ بالِغَةٌ فَما تُغْن النذُر﴾ . {٥ القمر}..

يعزز هذا أيضا النصوص المتـواترة والمتعـددة فـى القرآن عن الحث على التفكير وإعمال العقول والتدبر فيمـا خلق ا وأوجده من آيات وسـنن والتعـرف علـى آثـار الحضارات القديمة وما تركوه من جنات وعيون الخ.. وأدل على هذا ما جاءت به الآية ٣٧ من سورة الرعـد ﴿وكَـذَلِك أَنزلْنَاه حكْمًا عربِيا ولَئِن اتبعتَ أهواءهم بعدما جـاءك مِـن

الْعِلْمِ ما لَكَ مِن اللهِ مِن وَلي ولاَ واقٍ﴾ فنجد هنا الجمع مـا بين القرآن والحكم والعلم فى سياق واحد.

ورأى ابن رشد إن الحكمة هى الفلسـفة، إذ أن معنـى الفلسفة هو الحكمة، ونحن وإن كنا نتفهم تفسير ابـن رشـد للحكمة فإننا نؤثر التعريف العام – أى العقل والعلم ووضـع الأمور مواضعها، والفهم وإدراك روح الإسـلام ومقاصـده وقيمه. لأن الفلسفة قد تثير معنى اصطلاحيا يحصر الحكمـة فى متاهات علم الكلام ويركز الاهتمام على ذات ا تعالى – كما عند المعتزلة – وكان أحرى بهم أن يستخدموا الحكمـة فيما يحقق الخير للمجتمع والناس ومـا يصـلح الأوضـاع الاقتصادية والسياسية وينقلها إلى عالم الحياة الـدنيا الـذى تكون مفيدة وفعاله فيه، وليس إلى عـالم الغيـب وذات ا تعالى فضلاً عن أننا نهينا عن تقصيه **وعمليا فـإن اعتبـار الحكمة هى الفلسفة وعكوف الفقهاء عليها أدى إلى إفسـاد الفلسفة، وإفساد الدين معاً.**

إن هذا التفسير لمعنى كلمة "الحكمة" التى ترددت فـى القرآن الكريم كأصل من أصول رسالة الأنبياء يعيننا فى تفهم السبب فى **ذكر القرآن الحكمة جنباً إلى جنب القرآن. وأنـه**

لم يقتصر على الكتاب وحده هذا السـبب هـو أن الكتـب السماوية سواء كانت قرأناً أو إنجيلاً أو توراة هى بالدرجـة الأولى كتب هداية، وقد تضمنت أصول وقواعد ومبادئ هذه الهداية، ولكنها لم تتضمن تفاصيل وجزئيات ذلك. كمـا لـم تتناول جوانب أخرى عديدة تزخر بها الحياة الإنسـانية، ولا يمكن أن يتضمنها كتاب واحد، وفى الوقت نفسه فلا يمكـن تجاهلها أو إغفالها، فهناك الآداب من شعر أو نثر أو رواية، وهناك الفنون من تمثيل وموسيقى ورقـص، وهـذه الآداب والفنون تبلور العواطف والأحاسيس وما يجيش بـه القلـب، وهناك الفلسفة وطرائقها فى البحث وهناك قبل هـذا كلـه، العقل الإنسانى الذى يستبد به الفضول والاستشراف للمعرفة ونشوة الكشف عن الأفاق المجهولة، والتجربة.. بحيث يغير، ويبدل فى حياة الناس وأوضاع المجتمع، ويكون ما أراده ا له – وحيا ذاتيا فى نفس كل فرد يحمل النفثة الإلهيـة فـى الإنسان، ويبدع نماذج وتجليات للحكمة التى تعـزز الـدين وتستكمل نقصه، وتحقق للحياة الإنسانية الثـراء، والـوفرة، والتعددية، وتربط ما بين القديم والجديد، الشـرق والغـرب اللغة العربية وغيرها من اللغات.

ولو أقتصر ا تعالى على ذكر الكتاب دون ذكر الحكمة لكان من المحتمل أن يتعسف فهمه وتفسيره فئات من النـاس أو أن يتخذوا منه أداة تحقق مآرب خاصة، واتجاهات معينة ولضاقت مجالات الحياة بالإنسان ووقعوا فى قبضة "كهنوت" يعسر لا ييسر ويغلق لا يفتح ويضيق لا يوسع، وهذا هو ما حدث للأسف الشديد، عندما تجاهل العلماء "الحكمة" فحرموا الفكر الإسلامى الإفادة من ثمار الحضارات البشرية، قديمـة وجديدة شرقية، وغربية. فحجروا واسعا، وحبسوا أنفسهم – والإسلام – فى دائرة مغلقة.

إن "ثورة المعرفة" فى العصر الحديث وتدفقها من أربعة أركان العالم ووصولها عبر المطـابع والقنـوات الفضـائية والإنترنت وخدمات التصنيف وضع تحت أيدى البحاث كـل كنوز العالم القديم، وكل مستجدات العصر الحـديث بحيـث أصبح "الكتاب" أى القرآن يمثل دليل العمل والإطار العريض للخطوط الرئيسية، أما ما يملأ الحياة فهى هذه العلوم والفنون والمعارف التى تتدفق فيما يشبه الفيضان مـن كـل الـدول المتقدمة. وأصبحت رمز ثروة وقوة العصر الحديث. وتدخل كلها فى إطار الحكمة، ومن هنا يتضح السبب فى نـص ا

عليها مرجعاً وأصلاً من أصول الإسـلام لأنهـا هـى أداة التعددية والانفتاح والإفادة من كل معارف العالم وهى بعـد، ما يحقق العزة والمنعة والقوة للمسلمين.

وقد طبق الرسول توجيه القرآن عندما قـال "الحكمـة ضالة المؤمن أنا وجدها فهو أحق بها"، وقال "اطلبوا العلـم ولو فى الصين"، ووجه أصحابه لتعلم اللغات وأخذ بـاقتراح سلمان شق الخندق الخ...

* * *

على أن إرفاق كلمة الحكمة برسالة الأنبياء – جميعا – داود وسليمان وعيسى وموسى ينم علـى إن للحكمـة دوراً خاصاً فى مهام الأنبياء.

لقد أشرنا من قبل إلى أن الأديان فـى حقيقتهـا ثـورة جماهير وأن الرسل هم قادة هذه الثورة، وهذه الثورة تقـوم كليا على الجماهير، وبصورة مباشرة وهذه المهمة تتطلـب قوى وملكات متميزة لعل أفضل التعبير عنهـا لا تتـوفر إلا بتوفر الحكمة.

بهذه الحكمة قاد الأنبياء ثورات الدين قيادة مثلى لـيس فيها بطش أو جبروت وليس فيها استعلاء واستكبار ولـيس

فيها استسلام واستخذاء ثم هى تعنى بعامة الناس – جنود هذه الثورة – كما تعنى بخاصتهم، الذين هم "أركان حرب الأنبياء وخلفاءهم فى القيادة.

وهذا يتضح – بوجه خاص فى طريقة قيـادة الرسـول لثورة الإسلام.. ثم طريقة تربيته للقيادات الإسلامية.

فبأى تأسيس ثقافى نظرى – وعملى استطاع الرسـول تحقيق ذلك لولا الحكمة التى تعود جزء منها إلى قوة ملكاته العقلية والنفسية لأن ا تعالى لا يصطفى إلا من هـم أقـدر الناس وأصلحهم. ثم يعود جزء آخر إلى وحى.

بهذه الملكات، وبهذا الوحى استطاع الرسول أن يصـنع أبا بكر، وعمر، وعلى، وأبا عبيده وغيرهم من قاد الإسلام.

وقد نلحظ الفرق مـا بـين تربيـة الأنبيـاء وتربيـة الطواغيت..

فالرسول بصر أصحابه بنقاط الضعف التى يؤتى منهـا القادة كالزهو والغرور وتوقع التبجيل والاحترام وتقبل المديح والإطراء. فنقول..

من أحب أن يتمثل له الرجال وقوفاً فليتبوء مقعده مـن النار.

حسب المرء من الأذى أن يشار إليه بالأصابع.

إذا قابلتم المداحين فاحثوا فى وجوههم التراب.

وقال لمن مدح آخر "قطعت عنقه".

وحذرهم من الاستسلام للمظهر والرغبة فـى الثـراء "تعس عبد الدرهم.. تعس عبد القطيفة".

وعلمهم الصدق فى القول.. والوفاء بالوعد، والابتعـاد عن السؤال.. وتحريم المسألة..

وعلمهم عمليا كيف يكون التواضع، كيف يحتفى بـابن أم مكتوم بعد أن عاتبه ا عتابا شديداً، حتى كانت الجارية لتأخذ بيد الرسول وتذهب به فى أى سكك المدينة شاءت.

ومع أنه كان يربى قاده. فإنه عرفهم بحقيقـة الولايـة ومسئوليتها الثقيلة.. فقال "ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً لا يفكه إلا العدل أو يوبقه الجور" وتحدث عن الولاية "أولها ملامة وأوسطها ندامة وآخرهـا خـزى يـوم القيامة"، "إنها أمانة وخزى وندامة يوم القيامة إلا مـن أخـذ بحقها وأدى الذى عليه فيها" "نعمـت المرضـعة، وبئسـت الفاطمة".

وقال "ليس من والى أمه قلّت أو كثرت لا يعدل فيها إلا كبه ا تبارك وتعالى فى النار". وقال "لا يسترعى ا تبارك وتعالى عبداً رعية فيموت يوم يموت وهو لها غاش إلا حرم ا عليه الجنة". وقال "يا عبد الرحمن (ابن سمرة) لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أعطيتها عن غير مسألة أُعنت عليها" وقال "ويل للأمراء، ويل للعرفاء ويل للأمناء ليتمنين أقوام يوم القيامة أن ذوائبهم كانت معلقة بالثريا يتذبذبون بين السماء والأرض ولم يكونوا عملوا على شئ".. وقال "تجدونه من خير الناس أشدهم كراهية لهذا الشأن حتى يقع فيه" وقال "شر الرعاة الحطمة" ووضع مبدءاً عاماً بالنسبة للطاعة "لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق"، ومبدءاً بالنسبة للولاية "لا يولى من يطلبها"، وتبرأ ممن يدخلون على الأمراء فيصدقونهم بكذبهم "الفتح الربانى – مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى – من ص ٢٠ – ٢٢ الجزء ٢٣". إن الصحبة الطويلة لأبى بكر، وعمر بن الخطاب، وعلى ابن أبى طالب هى التى صنعت هؤلاء الخلفاء الراشدين الثلاثة الذين ضربوا المثل فيما يكون عليه الحكم الأمثل.

فمن أين استقى الرسول، أو استمد هذه القدرة الفذة على صنع الأبطال إلا من الحكمة، والحكمة الإلهية بوجه خاص.

كان أرسطو أعجوبة العالم القديم، والمعلم الأول وكـان هو الذى اشرف على تربية الإسكندر – ولا جـدال أن لـه نصيباً مما أتصف به الإسكندر من مقدرة، وهمه ومضـاء. ولكن أرسطو لم يستطع أن ينزع مـن نفـس إسـكندر داء السلطة من زهو، وغرور، واستبداد، وموبقات ومـا كـان ليستطيع أن يجعل منه "عمراً" يذكر إنه خفـق أحـد النـاس بدرته لأنه وقف وسط الطريق فلما رأه بعد عام سأله أتعتزم الحج فى عامك هذا فقال نعم، فأخذ بيده وذهب به إلى بيتـه وعاد وفى يده كيس فيه ستمائة درهم، وقال له خذها فاستعن بها، وأعلم أنها بتلك الخفقة فقال الرجل ما أذكرها يا أميـر المؤمنين فقال عمر ولكنى لم أنسها، ولا يسـتطيع أن يفعـل مثل ما فعل أبو بكر عندما شيع أسامة حافياً، وإسامة راكبا. ورفض أن يركب هو أو أن ينزل إسامة.. فهذه ثمـار مـن شجرة النبوة.. وحكمتها.. لا يمكن أن يؤتاها فيلسوف مثـل أرسطو..

الفصل السادس

مرجعية دخيلة

الفقهاء والمذاهب الفقهية

إذا تكلمنا عن الفقهاء – ونحن نعنى بهـم ا لمفسـرين والمحدثين وأئمة المذاهب الفقهية كإحدى مرجعيات الإسـلام – فإن هذا إنما يكون بحكم الأمـر الواقـع ولـيس بحكـم الأصول. لأنه طبقاً للأصول فإن المرجعيـة هـى القـرآن. والسنة المنضبطة بالقرآن. والحكمة المنبثقة من العقل، ولكن التطور أدى لأن يظهر الفقهاء مع تطور المجتمع الإسـلامى من مجتمع المدينة الساذج المحدود إلى مجتمع دمشق وبغداد. عندما أصبح للإسـلام إمبراطوريـة، وتعـددت الحاجـات القضايا والحقوق والواجبات الخ... فقضى التطـور بـأن تتخصص مجموعات للدراسات الدينية.

وكان هؤلاء الفقهاء نابغين يعملـون بـروح الإيمـان والتفانى ويهدفون إلى خدمة الإسلام ولكن عدداً من العوامل تحكم فيهم منها.

صعوبات العمل: وعدم توفر وسائل التصنيف والتوثيق والإحاطة بالمادة وقيام الثقافة الفقهية على أساس الشيخ وهى طريقة لها حسنات عديدة ولكنها تقصر المعرفة على شـيخ واحد، وتسمح لمؤثرات التعصب بالتغلغل فى الدراسة، ولكن لم يكن منها مناص فى هذا العصر فى الشرق، كما لم يكـن منها منـاص فـى الغـرب خـلال الفتـرة التـى أطلـق عليها**Scholastic**. لعدم ظهور المطبعة والاعتمـاد علـى الكتاب المخطوط.

وقد حاول الفقهاء التغلب على محدودية هـذه الطريقـة بالسفر، والأخذ عن عدد من الشيوخ ولكن هذه الطريقة كانت أظهر فى "المحدثين" منها فى "الفقهاء" وعلى كل حال فإنهـا خضعت للصعوبات والضرورات التى كانت تكتنفها بحيـث حالت بين كثيرين من المحدثين والرحلة التى كانوا يتمنوها، وإن سمحت لآخرين بها.

سياسة الحكم: هذه السياسة التـى بـدأت مـع الملـك العضوض وعهد معاوية بن أبى سفيان، ومضت قـدما فـى الخلافة العباسية والتركية وحاصرت حريـة الفقهـاء، وأدت إلى صدام ما بين الفقهاء والحكام، وعرضت الأئمة الأربعة:

مالك وأبى حنيفة والشافعى وابن حنبل لاضطهاد جسيم مـن الخلفاء العباسيين من أبى جعفر المنصور حتـى المـأمون، وأدت هذه السياسة إلى اختزال جوانب الحرية والعدالة فـى الفقه الإسلامى وعدم أخذها ما تستحقه من عناية، تطبيقا لما جاء فى القرآن والسنة فى مقابل تضخم فقه العبادات، وهـو الفقه الذى لم يتعرض له الحكام.

مآخذ التخصص، وضيق الأفق الفنى: واللجـوء إلـى تحايلات لتبرير التأصيل، وكان السند الأعظم فى هـذا هـو تفسيرات شاذة أو أحاديث موضوعه.

التأثر بالمنطق الأرسطى: وهو من أكبر العوامل التـى جعلت الفقهاء يبتعدون عن المنهج القرآنى/ النبوى فقد تـأثر الفقه تأثراً عميقاً بالمنطق الأرسطى حتى قال الغزالى قولتـه المأثورة عن أن الجاهل به "لا يوثق بعلمه أصلاً" ووضع له مقدمة كبيرة من كتابه المستصفى، وقد ظهر أثـر المنطـق الصورى فى إعطاء الفقه الإسلامى قالباً صوريا شكليا ثبوتيا جامداً يوغل فى الافتراضات النظرية، ويتعمق فى مباحـث الألفاظ والتعبيرات والتعريفات قدر ما يبعد عن فعالية الحياة، وعالم العمل والجماهير والمشكلات التى يولدها الواقع. فبعد

عن عالم الحياة قدر ما أخذ يغوص فى عالم صـورى مـن الافتراضات، وفقد تلك الحيوية التى غرسـها القـرآن فـى المجتمع الإسلامى نتيجة لمنطقه الحيوى، التكـاملى. الـذى يحيط بالحياة وتتلاقى فيه الأضداد باعتبارها عوامل تكامـل ويأتمن القلب ويؤمن بقدرة الفطرة والبداهة علـى أن تتبـين وجوه الخطأ والصواب فى كثير من الأمور دون حاجة إلـى مقدمات ونتائج...

ولم يستطع الفقهاء الذين تبينوا الأثر الضـار والعقـيم للمنطق الأرسطى على الفقه مثل ابن تيمية أن يحرروا الفقه منه. لأن الفقهاء المتأخرين لم تكن لهم همة وثقة السـابقين، ولأن الأسلوب المنطقى الأرسطى بقدر ما كان وليد العوامل المجتمعية السابقة، بقدر ما كان مؤثراً فى هذه العوامل نفسها يتفق معها فى الفرار من المشكلات العملية والقضايا الحياتية والمسئولية الجماعية إلى عالم وهمى من الافتراضات.

هـ-. روح العصر: فلكل عصـر روح تنبثـق مـن مجموع المؤثرات الخاصة به من نظم سياسـية واقتصـادية واجتماعية وغلبة أعراف وتقاليد، تتحكم كلها فيما تصدره من قضايا...

ويمكن القول إن فترة التدهور الإسلامى، أى بعد القرون الأربعة الهجرية الأولى، حتى مشارف العصر تماثل القرون الوسطى فى أوربا مع تفاوتات عديدة، ولكن أبرز سماتها بصفة عامة هى روح الحفاظ والجمود والثقافة المشيخية والتمشى مع الحكام والسلطة وغلبة الجهالة والأمية والخرافة واستعباد الجماهير.

ولم يستطع معظم الفقهاء التحرر من روح العصر الذى أحاط بهم وسيطر عليهم، ولا يمكن أن نلومهم على هذا لأن موقفهم هذا هو ما تقتضيه طبيعة الأشياء ويمكن القول أن لم يستطيع التحرر تماماً من روح العصر سوى ابن خلدون وابن رشد فى المغرب، وأبو العلا المعرى فى المشرق، ولولا الإسلام لكان ابن خلدون هو ماكيافلى العرب ولقدم لنا شيئا مثل "الأمير" ولكن الإسلام جعله يقدم ما هو أفضل: مقدمته الرائعة التى فتح بها الطريق نحو علم الاجتماع كما تحرر أبو العلا المعرى من معظم معتقدات عصره. وأبدع فى شعره وفى "رسالة الغفران" فكراً جديداً، كما قدم ابن رشد حل المعادلة ما بين النقل والعقل. الدين والفلسفة. هذه المعادلة التى تقبلها الغرب الأوربى، وتجاهلها الشرق

الإسلامى – وبعد هؤلاء الثلاثة يأتى أبو حيـان التوحيـدى وبعض أئمة المعتزلة. ثم الفقهاء الذين تحرروا من بعض ما أطبق على العقيدة من خرافة كابن تيمية الذى نقى العقيدة من لوثة الشفاعة والأولياء، والتوسل الخ... وتابعه تلميـذه ابـن القيم صاحب المقولة الرائعة عن "العدل" وأنـه هـو طلبـة الشريعة.. وحيثما يكون تكون وتوصل الفقيه الحنبلـى نجـم الدين الطوفى إلى مبدأ ثورى تماماً هو أن المصـلحة هـى مقصد الشارع وعند وجود تعارض ما بين النص والمصلحة يؤخذ بالمصلحة "لا من باب الإفتيات على النص، ولكن من باب تأويله" ولكن الطوفى عجز أن يبرهن على هذا المبـدأ بأدلة قوية، وما كان العصر يسمح له أن يمضى فى النهايـة وقد ناله من التشنيع ما نال الفقيه أبو مسلم الأصفهانى الـذى أنكر النسخ فى القرآن الكريم، ورفض الاستسـلام لموجتـه العالية التى اكتسحت كل الفقهاء والمفسرين وحال بهـذا دون أن يعد النسخ – كما يدعون – إجماعاً.

نتيجة لهذه العوامل اختلفت مواقف الفقهاء اختلافا شاسعا يصل إلى حد التناقض ما بين الفقه المذهبى والفقه القرآنـى النبوى.

وقد يوضح ذلك بطريقة عمليـة مـوقفهم إزاء خمسـة موضوعات هامة هى: (١) الإيمان با . (٢) حـرية الفكر والاعتقاد. (٣) العدل. (٤) المرأة. (٥) الرقيق.

الإيمان با .

يقوم منهج القرآن لتقديم الإيمان با على أنـه الخـالق ويبرهن على ذلك ببراهين تتفق مع البداهة ﴿أم خُلِقُـوا مِـن غَير شَيءٍ أم هم الْخَالِقُون﴾. ﴿لَو كَان فِيهما آلِهـةٌ إلا اللـه لَفَسدتَا فَسبحان اللهِ رب الْعرشِ عما يصِفُون﴾. كما عمد إلى إثارة هذا الإيمان بالتفكير فى دقة وعظمة الخلق الإلهى الذى يدل على كمال ا تعالى وقدرته ورحمته.. واتبع الرسـول هذا المنهج.

أما الفقهاء فقد تأثروا بالتطورات التـى تعـرض لهـا المجتمع الإسلامى من أيامه الأولى نتيجة لانتشاره السـريع ولدخول أعداد جسيمة من المـوالى مـن الـروم والفـرس وغيرهم ممن احتفظوا برواسب حضاراتهم وطريقة تفكيرهم بحيث اتبعوا المنطق الأرسطى الذى تغلغل فى صميم "أصول الفقه" وأدى بهم هذا المسلك إلى التورط فى قضايا ما كانـت تخطر للصحابة على بال مثل خلق القرآن، وآيات الصفات،

وحملتهم أفكارهم تلك على فرض العدل على ا كمـا فـى المعتزلة وأن ا لا يستطيع تبرئة ظالم، ورد عليهم الأشعرية بأن ا تعالى لو زج بالخلق جميعاً فى النار لما كان ظالمـاً لأنه هو الذى خلقهم. وكان لهم مندوحة عن هـذا وذاك لـو اتبعوا ما جاء فى القرآن الكريم، فإن ا تعالى كتـب علـى نفسه الرحمة، التى هى فوق العدل.. وأنه لا يظلـم النـاس مثقال ذرة وهذه النصوص عند مقارنتها بالشطط الذى وصل إليه المعتزلة والسنة على حد سواء توضـح مـدى مخالفـة الفقهاء للقرآن الكريم وللرسول فى تلك القضـية الحساسـة قضية الإيمان با .

كما مثلت لديهم آيات الصفات مشكلة مستعصية فرقـت الأمة فى حين إنها ليست إلا استخداما للمجاز والرمز كدأب القرآن فى عرض الغيبيات.

حرية الاعتقاد.

يعرض موقف الفقهاء من قضية حرية الاعتقـاد أكبـر مثال لمدى تأثر الفقه بالأوضاع – السياسية – الاقتصادية – الاجتماعية – فقد اضطرتهم هذه الأوضاع، سواء كانت بحكم روحها، أو بحكم الحفاظ على النظـام القـائم لأن ينسـجوا

قميص كتاف للعقيدة، ومن ورائها حماية النظام، يقيد كل من يشذ فى تصوره عما وضعوه لها وتوصلوا إلى صيغة مـن "**جحد معلوما من الدين بالضرورة**" وأنه يعد مرتداً، ويستتاب فإن لم يتب يحكم عليه بالقتل "كفراً لا حـداً" أى أن أموالـه تصبح فيئا للمسلمين ولا يدفن فى مقابر المسلمين الخ...

وواضح أن صيغة "مـن جحـد معلومـاً مـن الـدين بالضرورة" فضفاضة بحيث يمكن أن تتسع لمئات الـدعاوى وقد حكمت محكمة سودانية على الشيخ محمود محمـد طـه بالإعدام لأنه أنكر – فيما أنكر – الحجاب الـذى اعتبرتـه المحكمة معلوماً من الدين بالضرورة كمـا فرقـت محكمـة مصرية ما بين أستاذ جامعى وزوجته على أساس أنه أرتـد لكتابات رأوا أنه جاوز فيها الحدود الموضوعية.

وقبل هؤلاء جميعاً ارتأى المأمون أن كل من لا يقـول بخلاق القرآن يعتبر مرتداً ويقتل: ولو عاش فربما قتل أحمـد بن حنبل باعتباره مرتداً !.

ويمكن دون مبالغة إدخال مائة تهمة فى إطار "من جحد معلوماً من الدين بالضرورة" وقد أشرنا إلى بعضها فى كتابنا

"كلا ثم كلا" وتزخر كتب الفقه خاصة المتأخرة – بالأمثلة العديدة لمضمون "من جحد معلوماً من الدين بالضرورة.

فإذا قارنا هذا الموقف بموقف القرآن لوجدنا القرآن يقرر فى قرابة مائة آية حرية العقيدة دون قيد أو شرط ﴿وقُلْ الْحق مِن ربكُم فَمن شاء فَلْيؤْمِن ومن شَاء فَلْيكْفُر﴾. {٢٩ الكهف}.. ﴿لا إِكْراه فِي الدينِ قَد تَبين الرشْد مِن الغَي فَمن يكْفُر بِالطاغُوتِ ويؤْمِن بِاللهِ فَقَد استَمسك بِالْعروةِ الْوثْقَى لا انفِصام لَها والله سمِيع علِيم﴾. {٢٥٦ البقرة} الخ...

بل ويجعل الإيمان والكفر قضية فردية شخصية لا دخل للنظام العام فيها ﴿من اهتَدى فَإِنما يهتَدِي لِنَفْسِهِ ومن ضل فَإِنما يضِل علَيها ولا تَزِر وازرةٌ وِزر أُخْرى وما كُنا معذِبِين حتى نَبعثَ رسولاً﴾. {١٥ الإسراء}.. أما موقف الرسول فإنه يتفق مع موقف القرآن فقد ارتد عدد من المسلمين فى عهد الرسول ولم يتخذ الرسول ضدهم إجراء بل تركهم أحراراً.

ومن هؤلاء المرتدين:

أرتد فى حياته بعض المسلمين أفراداً وجماعات، وبعضهم كان ارتداده مرات لا مره واحدة فما قتل أو استتاب أحداً منهم .

أرتد رجل آخر عن الإسلام بعد أن كـان مـن كُتـاب الوحى للرسول، ولم يتورع مع ارتـداده أن يقـول الكلمـة المنكرة التى رواها البخارى وغيره "ما يدرى محمد إلا مـا كتبت له".

وعلى الرغم من ذلك كله تركه الرسول حراً طليقاً وقبل فيه الشفاعة حتى مات على فراشه (انظر هداية البارى إلـى ترتيب أحاديث البخارى).

وارتد اثنا عشر مسلما عن الإسلام على عهد رسول ا صلى ا عليه وسلم ثم خرجوا من المدينة إلى مكة ومـنهم الحارث بن سويد الأنصارى، فما أهدر الرسول دم أحد منهم، ولا حكم بقتل مرتد منهم واكتفى القرآن بقوله عنهم ﴿ومـن يبتَغِ غَير الإِسلامِ دِينًا فَلَن يقْبلَ مِنْه وهو فِـي الآخِـرةِ مِـن الْخَاسِرِين﴾.

وارتد عبيد ا بن جحش بعد إسـلامه وهجرتـه إلـى الحبشة واعتنق النصرانية هناك فما أهدر النبـى صـلى ا عليه وسلم دمه، ولا طلب من النجاشى تسليمه إليه ولا أوعز إلى أحد بقتله.

واعتنق النصرانية كذلك ولدان شابان فشكاهما أبوهمـا إلى الرسول قائلاً "يا رسول ا   أدع ولداى يدخلون النار" فلم يفعل الرسول شيئاً وإنما أسمعه الآية القرآنية ﴿لا إِكْراه فِـي الدين قَد تَبين الرشْد مِن الغَي﴾.

والفرق هنا بين ما دعا إليه القرآن وأخذ بـه الرسـول وبين ما قرره الفقهاء يصل إلى حد التناقض الكامل.

العــدل.

أي واحد يتصفح القرآن الكريم لابد وأن يلفت انتباهـه تلك الحملة الشعواء التى يشنها القرآن علـى "الطغـاة" مـن الحكام، وذلك التنديد القارص بالمترفين، كما يجذب انتباهـه التعاطف مع المستضعفين فى الأرض. والقرآن يصور واقع المسألة الاجتماعية طغيانا من الحكام على المحكومين، يوفر للأولين الكبرياء والاستبداد ويفرض على الآخرين الاستسلام والاستخذاء، واستغلالاً من الأغنياء للفقراء يـوفر للأولـين القناطير المقنطرة من الذهب والفضة بينما يتضور الفقـراء جوعاً.

ودعا القرآن الكريم إلى الإنفاق وندد بالشح والبخـل، وتوعد الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سـبيل

ا .. ﴿بِعذَابٍ أَلِيمٍ(٣٤) يوم يحمى علَيها فِي نَارِ جهنم فَتُكْوى بِها جِباههم وجنُوبهم وظُهورهم هذَا ما كَنَزتُم لأَنفُسِكُم فَذُوقُوا ما كُنتُم تَكْنِزون﴾. {٣٥ التوبة}.. كما توعد أكلة الربا "بحرب من ا ورسوله".

وقد جعل القرآن سرف المترفين سبباً لهلاك المجتمعات ﴿وإِذَا أَردنَا أَن نُهلِك قَريةً أَمرنَا متْرفِيها فَفَسقُوا فِيهـا فَحـق علَيها الْقَولُ فَدمرنَاها تَدمِيرًا﴾. كما جعل من القضـاء علـى حكم الطغاة وتقليد المستضعفين الحكم من مشـيئة ا التـى تقتضى إصلاح هذا الخلل ﴿ونُرِيـد أَن نَمـن علَـى الـذِين استُضعِفُوا فِي الأَرضِ ونَجعلَهم أَئِمةً ونَجعلَهـم الْـوارِثِين(٥) ونُمكن لَهم فِي الأرضِ ونُرِي فِرعون وهامـان وجنُودهمـا مِنْهم ما كَانُوا يحذَرون﴾. {٦ القصص}..

والقرآن يستنهض الجماهير للثورة على الظـالمين ولا يقبل منهم الاعتذار بضعفهم، فإذا لم يستطيعوا المجابهة فـلا أقل من أن ينجوا بكرامتهم بـالهجرة. ﴿إِن الـذِين تَوفَـاهم الْملائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهم قَالُوا فِيم كُنتُم قَالُوا كُنا مستَضعفِين فِي الأَرضِ قَالُوا أَلَم تَكُن أَرض اللهِ واسِعةً فَتُهاجِروا فِيها فَأُولَئِك مأْواهم جهنم وساءتْ مصِيرًا﴾. {٩٧ النساء}..

إن تكرار وتعميق التنديد بالطغاة والمترفين والتعـاطف مع المستضعفين والمحرومين، ودفعهم للثورة على ظـالميهم معلم رئيسى من معالم السياسة القرآنية، وليس هـو إشـارة عابرة، أو ذكر طارئ، لأن وجود الطغيان سياسياً أو ماديـاً يتنافى مع فكرة العدل والتوحيد الإسلامية إذ يشرك مـع ا أرباباً يحكمون بإرادتهم، ومن هنـا تتلاقـى الثـورة علـى الطغيان السياسى الاقتصادى مع الـدعوة إلـى توحيـد ا والقضاء على كل الأرباب دونه" ﴿قُلْ يا أَهلَ الْكِتَابِ تَعـالَوا إِلَى كَلِمةٍ سواءٍ بينَنَا وبينَكُم أَلا نَعبد إِلا الله ولا نُشْـرِك بِـهِ شَيئًا ولا يتخِذَ بعضنَا بعضًا أَربابًا مِن دون اللهِ فَـإِن تَولـوا فَقُولُوا اشْهدوا بِأَنا مسلِمون﴾ . {آل عمران ٦٤} .

ويتفق المسلك النبوى بالنسبة للعدل – قولاً وعملاً – مع مسلك القرآن الكريم فى قضية العدل: فلم يقتن الرسول مالاً، ولم يتأثل متاعاً، وكانت الأيـام تمر قبل أن يوقد نـار فـى بيت من بيوته وعاش حياته كلها كفافاً، ولم يسـتطع النـوم عندما كان تحت وسادته بضعة دراهم!.

وطبق العدل الصارم على المسلمين جميعاً، وعلى نفسه وغضب عندما قال له أعرابى "اعدل" لأن الرسول إنما أرسل

للعدل، وهذه الكلمة توحى كأنما لم يطبق رسالته ومـن ثـم غضبه وقال "ومن يعدل.. إذا لم أعدل".

ولم ير رسول الله أن لزوجاته ولبناته أو أسرته فضـلاً على غيرهم، ولكنه رأى أن المعول هو العمل "يـا فاطمـة أعملى فإنى لا أغنى لك من الله شيئاً"، "لو أن فاطمة سرقت لقطع محمد يدها".

وقيد الرسول حكمه بالشـورى، وكـان أكثـر النـاس استشارة كما يتضح من استشارته لأصحابه فى قضية شديدة الخصوصية هى "الإفك" وقال لأبى بكر وعمر لو اتفقتما فى أمر ما خالفتكما، وكره أن يعظمه المسلمون كما يعظم الملوك فيمثلوا وقوفا وقال لامرأة هابته "هونى عليكى فإنما أنا ابـن امرأة من قريش كانت تأكل القديد".

ووجه الرسول المسلمين للثورة على الطغاة، واعتبر أن سيد الشهداء حمزة، ورجل أمر ونهى طاغية فقتله وحذر من الاستسلام للطغاة وقال "إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخـذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقابه"، وقال "كلا والله لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر ولتأخذن علـى يـد الظـالم، ولتأطرنه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصـراً، أو

ليضربن ا   بقلوب بعضكم على بعض وليلعنكم كما لعـنهم" (بنى إسرائيل).

أما العدل لدى الفقهاء فقد خضع للتطـورات الكاسـحة التى قلبت حكم الخلافة الراشدة الشورية إلى الملك العضوض القاهر والمستبد. وللأنصاف نقول إن معظم أئمة الفقه أيـدوا القومات على الدولة الأموية والعباسية ولكن هـذه القومـات فشلت، لأن جيوشها كانوا من المتطوعين الذين لا يستطيعون مجابهة الجيش المحترف للدولة. وهكذا وجد الفقهاء أنفسـهم فى وضع سيئ. فمنهم من اعتزل الحياة العامة ورفـض أن يشترك فى المناصب والوظائف. ومنهم من ارتأى المهادنـة ريثما تقوى المعارضة ولعل كلمات الغزالى الذى لـم تكـن تنقصه التقوى ولكنه مع ذلك لم يهرب من المشـكلة وبـرر عذر التغاضى عن مقاومة الانحراف بما تجلبه هذه المقاومة من فوضى وتعطل فقال:

"ليست هذه مسامحة عن الاختيار، ولكـن الضـرورات تبيح المحظورات. فليت شعرى من يقضى ببطلان الإمامـة فى عصرنا لفوات شروطها – وهو عاجز عـن الاسـتبدال بالتصدى لها بل هو فاقد للمتصف بشروطها، فـأى أحوالـه

أحسن: أن يقول القضاة معزولون والولايات باطلة والأنكحة غير منعقدة وجميع تصرفات الولاة فى أقطار العـالم غيـر نافذة وإنما الخلق كلهم مقدمون على الحرام، أو يقول الإمامة منعقدة والتصرفات والولايات نافذة بحكم الحال والاضطرار؟ ومعلوم أن البعيد مع الأبعد قريب، وأهـون الشـرين خيـر بالإضافة، ويجب على العاقل اختياره".

ويجب أن نذكر أن الفقهاء المسلمين كان يسيطر عليهم هاجس "الفتنة" منذ أيام الجمل وصفين المروعة وما يمكن أن تحدثه من مذابح وويلات دون أن يقضى على الحكام الظلمة.

وقد يقبل هذا التكييف، ولكن ما لا يقبـل، ومـا سـلكه معظم الفقهاء هو أنهم تعاونوا مـع هـذه الـنظم القابضـة المستبدة، وقد كان وقوف المعتزلة الذين يدعون حرية الفكر مع المأمون فى بطشه بكل المخالفين فى دعوى خلق القرآن مثالاً. وقد سار الحكم الإسلامى من عهد معاوية بـن أبـى سفيان حتى السلطان عبد الحميد بمهادنـة معظـم الفقهـاء وبالطبع فإن هذه المهادنة سهلت مهمته وهـى تعـود إلـى ضحالة فكرة العدل فى أذهان الفقهاء. مع أنها كانت أقوى ما يقدمه القرآن الذى أمر بالعدل وندد بالظلم فيما يقارب ألـف

آية وقد يصور هذا أيضاً تراخيهم فى تطبيق فرض الزكـاة وتشديدهم تشديداً يقرب من التوثين للصلاة.. مع أن الزكـاة أخت الصلاة وكانت هى التى حارب أبو بكر العرب علـى أساسها واعتبرهم "مرتدين"، ونتيجة لهذا فلـم تقـم الدولـة الإسلامية بعد الخلفاء الراشدين بصورة منهجية ودائمة بجمع الزكاة من الأغنياء ودفعها إلى الفقراء وكان يمكن أن يخفف ذلك من فاقة الفقراء ويسد حاجاتهم.

ولم يتقبل هؤلاء الفقهاء اسـتبداد الملـوك كضـرورة بغيضة ولكنهم دعوا الجماهير للاستسلام لهم وعدم مقاومتهم ولهم فى هذا أقوال تشمئز منها القلوب خاصة الحنابلة الذين قرروا أن الحكم لا ينخلع لعسف الحـاكم وظلمـه بغصـب الأموال وضرب الابشار وتضييع الحقوق وتعطيل الحـدود. وان من غلبا بالسيف حتى صار خليفة وسمى أمير المؤمنين فلا يحل لأحد يؤمن با واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إماماً عليه براً كان أو فاجراً فهو أمير المؤمنين واحتج آخر بأنه لا يجوز الثورة على الحاكم الفاسق أو الظالم لأن عـدداً مـن الصحابة صلى وراء يزيد واشترك معه فى غزواته ولم يثر

عليه أحد منهم، كما لم يثوروا على غيره ممن أعقبه من الأمراء رغم ظلمهم وسفكهم للدماء.

وهذا الوهن والضحالة فى حاسة العدالة يمكن أن نلمسه فى أبواب عديدة من أبواب الفقه، وكما سيرى من مواقفهم من المرأة والرقيق كما سيلى..

٤. المـرأة.

كان دور القرآن الكريم بالنسبة **للمـرأة،** دوراً ثورياً فقد كان عليه أن يقضى على فكرة الجاهلية عن المرأة التى كانت تحرم المرأة من الحرية، والحقوق وتجعلها أشبه بالمتاع الذى يورث فضلاً عن عادة الوأد المقيتة، ثم كان عليه بعد هذا أن يفسح لها مجالاً فى المجتمع الإسلامى الذى جاء به القـرآن، وأى شئ أكثر دلالة وبلاغة فى نقد الرؤية الجاهلية للمـرأة من ﴿وإِذَا بشر َأحدهم ِبالأنثَى ظَـل وجهـه مسـودا وهـو كَظِيم**(٥٨)** يتَوارى مِن الْقَومِ مِن سوءِ ما بشر ِبهِ َأيمسِكُه علَى هونٍ َأم يدسه ِفي التراب َألا ساء ما يحكُمون ﴾ {٥٩ النحل}. ﴿وإِذَا الْموءودةُ سئِلَتْ**(٨)** بِأَي ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ . {٩ التكوير}..

وأى شئ أكثـر صراحة فى المساواة ما بينها وبيـن الرجـل من : ﴿والْمؤْمِنُون والْمؤْمِنَاتُ بعضهم َأولِياء بعضٍ

يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمـون الصـلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم اللـه إن الله عزيز حكيم﴾. {٧١ التوبة}. أو ﴿ولهن مثـل الـذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة﴾ .{٢٢٨ البقرة}..

أو ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلنـاكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ {١٣ الحجرات}..

أو ﴿فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منـكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفـرن عـنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثوابا مـن عند الله والله عنده حسن الثواب﴾ . {١٩٥ آل عمران}..

فأنظر إلى دلالة "بعضهم أولياء بعض" فى الآيـة {٧١ من سورة التوبة} "تجد القرآن يجعل بين المؤمنين والمؤمنات علاقة ولاية تضم الصداقة والأخوة والتعـاون علـى البـر والتقوى، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكـر، كمـا أن تعبير "بعضكم من بعض" فى الآيـة {١٩٥ مـن سـورة آل عمران} تعطى معنى العلاقة الوثيقة وتحول دون أى تفرقة.

وحرم القرآن الكريم صور الإيذاء التى كـان العـرب يمارسونها ضد المرأة من أكل أموالها، وميراثها وعضـلها وجعلها كالمعلقة، وجعل الزواج "مودة ورحمة" بين الزوجين ووضع آيات عديدة تكفل حق المرأة عند الطـلاق تجاهلهـا الفقه عند وضع قواعده.

وطبق الرسول توجيهات القرآن الكريم قياماً بـالالتزام ولأنه أيضاً كان مؤهلاً لهذه المهمة. فقد ولد يتيما فقامت أمه على تربيته وعهدت به إلى حليمة السعدية ولم تكد تعود بـه إلى أمه طفلاً يبدأ الخطو حتى توفيت أمه، فتولته حاضـنته الأمينة المخلصة أم أيمن فعاش طفولته بين أحضان النساء.

ولما شب وضع ا تعالى فى طريقه السيدة خديجة التى جعلتها فراستها الصادقة تفضله على غيره ممن كـان أكثـر مالاً وأقرب نسباً، وفى خديجة وجد الرسول الأمن والأمـان فلما جاءه الوحى وعاد إليها ملتاعـاً تلقتـه بـين سـاعديها وأعادت إليه الثقة وأسلمت معه.

وكان الرسول شديد التقدير للمرأة كأم.. ومن ذا يستطيع أن يقول كما قال "الجنة تحت أقدام الأمهات".

ورد الذى جاءه ليشارك فى الغزو عندما سأله "هل لك من أم" فقال نعم قال "فألزمها فإن الجنة عند قدميها".

وروى البراز أن رجلاً كان بالطوائف حاملاً أمه يطوف بها فسأل النبى هل أديت حقها: قال لا، ولا بزفرة واحدة، أى من زفرات الطلق والوضع الخ...

وكان يقدر المرأة كزوجة، ويفهم ماذا تنتظر الزوجة من زوجها، بحيث لا يخجل من التصريح بحبها، كما كان يفعـل على الملأ عندما يسأل عن أحب الناس إليه فيقول "عائشـة" وكيف يشاركها الهموم والمسـرات والمـداعبات، فيسـابقها وتسابقه، ويتيح لها حقها من اللهو، فيقف لها لكى تشاهد لعب الحبشة، ولا يتحرك حتى "أكون أنا التى أنصـرف فاقـدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو" (عائشة فـى البخارى والإمام أحمد).

وكيف ظل إلى النهاية حافظاً لعهد خديجة مقراً بفضلها مرحباً بكل من يأتيه من صديقاتها القدامى.. "إنها كانت تأتينا أيام خديجة.." .

وكان الرسول صلباً وقاطعاً فى أن لا تتزوج المرأة إلا بإذنها بكراً أو ثيباً، وحفظت لنا المراجع حـالات رد فيهـا

الرسول زيجات أرغمت فيها المرأة على الـزواج بمـن لا تهواه.

وكان النساء يصلين فى المسجد مع الرجـال، وعـرف الرسول أن بعض الناس يكره ذلك فقال "لا تمنعوا إمـاء ا مساجد ا ".

وكان النساء يحضرن الغزوات مع الرسول بـل كـان بعضهن يحارب بالسيف أمامه عندما هرب منه الرجال.

هذا موقف القرآن والرسول.. فماذا كان موقف الفقهاء.. لقد استقصوا أحاديث ضعيفة أو موضوعة مثل "المرأة عورة" و"لأن يطعن فى رأس أحدكم بمخيط (أى أبره أو مسلة) خير له من أن يمس امرأة لا تحل له" و"النظرة سهم مسموم مـن سهام إبليس" و"ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة" "ناقصات عقل ودين" وهى كلها أحاديث ضـعيفة أو موضـوعة أو قيلـت لمناسبة آنية بحيث لا يكون لها حكـم عـام. ولا يجـوز أن تناقض ما جاء بالقرآن وما عمله الرسول بالفعل. فضلاً عن تفسير الآيات القرآنية التى تنص علـى الاحتشـام وتعيـب التبرج بأنها النقاب الكثيف الذى لا يكشف إلا عينـاً واحـدة وإصدار الأحكام التى تسمح بالإسراف فـى تعـدد الـزواج

والإسراف فى ممارسة الطلاق وحبسها فى بيتها لا تخـرج منه حتى للصلاة بالمخالفة لأمر الرسول ممـا جعـل حيـاة المرأة المسلمة جحيماً وعذاباً، وبعيدة كل البعد عـن حيـاة الرجل وعن المساواة التى أرادها القرآن والرسول.

٥. الرقيـــق.

عندما ظهر الإسلام كان الرقيق فاشيا وكان الرق يقـوم بدور هام فى العملية الإنتاجية قبل أن تظهـر الآلـة، فلمـا ظهرت المسيحية أمر آباء الكنيسة العبيد بإطاعـة سـادتهم. ولما جاء الإسلام سلك مسلكاً مزدوجاً: مسلكا قريب المـدى يطبق فوراً وهو يفرغ الرق من أسوأ ما فيه وهـو امتهـان الكرامة البشرية، ومسلكاً بعيد المدى أراد له التطبيق، وأمـر به بالفعل، ونفذه الرسول، وهو يقضى بأن يكون منبع الـرق هو الحرب مع كفار وأخذ أسرى ويكون التصرف مع هؤلاء الأسرى "**فإما منا بعد. وإما فداء**" وقد طبق الرسول ذلك فى أسرى بدر، وفى أسرى هوازن وكانوا سـتة آلاف، ولكـن المجتمع العربى (والبشرى بأسره) لم يكن مستعداً للتخلى عن الرق تماماً، لأنه كان يقوم بدور إنتاجى سلمت به المسيحية، كما سلم به الشيوعيون.. وقد جاء القضـاء علـى الـرق لا

بفضل دعوة "ويلبرفورس" وزملائه، فى بريطانيا، ولا لنكولن وأنصاره فى أمريكا ولكن بفضل ظهور الآلـة، لأن الآلـة جعلت عمل العبيد عبئاً بعد أن كان كسباً فوجـب الـتخلص منه، والتخلص منه هو تحريره فالإسلام دعا إلـى تحريـر الأرقاء جميعاً منذ ألف وأربعمائة عام، ولكن لم يستطع ذلك، وإنما حققته الآلة البخارية.

وعلى كل حال فلا يمكن مقارنـة حالـة الرقيـق فـى المجتمع الإسلامى – حتى فى مرحلة الإمبراطورية – بحالة الرقيق فى الإمبراطورية الرومانية، فكل ما وصل إليه هـو التشغيل المرهق فى مستنقعات "الأهواز" الذى أدى إلى ثورة الزنج، ولكن لا هذا التشغيل، ولا ثورة الزنج يمكن أن تصل إلى ما وصلت إليه ظروف تشغيل العبيد فى منـاجم الملـح والفحم أو التجديف فى السفن الذى كـان شـائعاً فـى كـل الإمبراطورية الرومانية. والذى أدى إلى ثورة "سبارتاكوس" ناهيك بحق الحياة والموت الذى كان للمالك على عبده.

وطبق الرسول المبدأ القرآنى فى حالتى أسـرى بـدر وهوازن. وأمر بالرفق غاية الرفق مع الرقيق، ومع العاملين أو الخدم غير الأرقاء.

وأوصى الرسول المسلمين برعاية مشاعر من قد يكون تحت أيديهم من الرقيق، وأن لا يقولوا "عبدى أو جـاريتى" وإنما "فتاى وفتاتى" وأن يطعموهم مما يأكلون ويلبسوهم مما يلبسون.. واعتبر أن ضرب العبد ضرباً مبرحـاً أو صـفعه على وجهه أمر يقتضى تحريره حتـى لا يـأثم صـاحبه أو يعاقب أمام ا كما قرر أن إسلام عبد من عبيد المشـركين يوجب تحريره كما زاد الرسول من عدد الحالات التى يكون فيها "عتق رقبة" تكفيراً عن ذنوب أو آثـام، كإفطـار فـى رمضان، أو حنث بيمين، أو القتل الخطأ الخ... وأوجب على المسلمين الاستجابة لعبيدهم إذا أرادوا المكاتبة.

ولدينا إحصائية بأربعة حالات أمر الرسـول بتحريـر العبد عندما صفعه سيده.

جارية أبناء مقرن، وكانوا ثمانية وليس لهـم سـواها، وصفعها أحدهم على وجهها فغضب الرسول وقال "اعتقوها" فقالوا يا رسول ا ليس لنا خادم سواها فأمر بالإبقاء عليهـا حتى يتيسر لهم غيرها وعليهم عتقها.

حالة الصحابى أبو مسعود الذى كان يضرب عبده فقال له الرسول أعلم أبا مسعود أن ا أقوى عليك مما أنت على هذا الغلام.. فقال هو حر لوجه ا .

وكان لعبد ا بن رواحه جارية تتعاهد غنمه وأمرها أن تتعاهد شاة، فتعاهدتها حتى سمنت الشاة، واشتغلت الراعيـة ببعض الغنم، فجاء الذئب فاختلس الشاة، وعلم عبـد ا بـن رواحه بذلك فلطم الراعية ثم ندم على ذلك وأخبـر النبـى، فاشتد بالنبى الغضب حتى أحمر وجهه وهـاب أصـحابه أن يكلموه وقال عليه الصلاة والسلام وما عسى الصبية أن تفعل بالذئب ووجه الحديث لعبد ا بن رواحه ضربت وجه مؤمنة فقال إنها سوداء لا علم لها فأرسل إليها النبى فسألها أين ا فقالت فى السماء قال فمن أنا قالت رسول ا قال إنها مؤمنة فاعتقها.

جاء رجل إلى النبى فقال يا رسول ا إن لى مملـوكين يكذبوننى ويخوننى ويعصوننى فأضربهم فكيف أنا منهم فقال له رسول ا بحسبك ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابـك إياهم إن كان دون ذنوبهم كان فضلاً اك علـيهم، وإن كـان بقدر ذنوبهم كان كفافاً لا اك ولا عليك. وإن كان فوق ذنوبهم

أقتص لهم منك الفضل الذى بقى قبلك فجعل الرجل يبكى بين يدى رسول ا ويهتف فقال رسول ا ما له ألم يقرأ كتـاب ا ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسـبين﴾ فقال الرجل يا رسول ا ما أجد شيئاً خيراً من فراق هؤلاء أى عبيده وأنى أشهدك أنهم أحرار كلهم(١).

فإذا كان هذا هو مسلك القرآن والرسول فى تلك القضية فماذا قال الفقهاء؟. لقد كان كما لو أنهم لم يقرأوا آية "فأما منا بعد. وأما فداء".

وقد لا يشتد لومنا للفقهاء الأوائل على موقفهم من الرق، ولكن اللوم لابد وأن يشتد على فقهاء معاصرين رأوا أن ا تعالى قد خلص البشرية من الرق وحقق مـا أراده القـرآن ولكنهم ذهبوا عكس ذلك وارتأى أحدهم أن الـرق مقـرر لا يملك أحد رفعه (الشيخ محمد حامـد الحمـوى فـى كتابـه "نظرات فى كتاب اشتراكية الإسلام) بينمـا رأى آخـر "أن نظام الرق والاسترقاق باق إلى يوم القيامة لا يجوز نسخه أو القول بانتهائه ورأى أحدهم أن استرقاق المسلمين للأسـرى

---

١) الفتح الربانى فى ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى الجـزء ١٤ ص ١٤٨ .

أفضل من المن والفداء لأن فى استرقاقهم مصلحة راجحة لهم إن لم تكن مؤكدة. ووجه هذه المصلحة أنهم بهذا الرق يتحولون من مجتمعهم الكافر إلى المجتمع الإسلامى النقى الطاهر مما يمكنهم من رؤية محاسن الإسلام وأثره فى النفوس، وقد يحملهم ذلك إلى اعتناق الإسلام عن رضى واختيار دون جبر أو إكراه ".. فيقول تحت عنوان (هل الاسترقاق خير من المن والمفاداة) ما نصه: "بينا الحكمة فى مشروعية الرق والاسترقاق، فهل يمكن أن يقال إن استرقاق الأسرى الكفار هو خير لهم من المن عليهم والمفاداة بهم؟ والجواب نعم، الرق خير من إطلاق سراحهم وردهم إلى بلادهم بالمن أو بالفداء، لأن فى استرقاقهم تمكينا لهم من العيش فى المجتمع، الإسلامى، وفى هذا العيش فرصة طيبة تؤدى غالباً إلى اعتناق الإسلام، وفى هذا نعمة عظمى لا يعادلها إطلاق سراح الأسير إلى بلاده[1].

ومما من شىء يوضح تقليدية، وضحالة حاسة العدل والقيم الإنسانية التى أمر بها الإسلام مثل هذه النصوص المخجلة.

---

(٢) كتاب المفصل فى أحكام المرأة والبيت المسلم فى الشريعة الإسلامية للدكتور عبد الكريم زيدان.

من هذا العرض لمسالك الفقهاء فى هذه الموضـوعات الخمسة يتضح تماماً أن أحكام الفقهاء مخالفة لأحكام القـرآن والرسول ومن المؤسف أن المجتمع الإسلامى المعاصر يأخذ أحكامه من الفقهاء. وهذا هو سبب تشويه الإسـلام وتخلـف المسلمين.

* * *

ويمكن تلخيص هذه الآثار فى:

تقنيين الأحكام بناء على النص الحرفى، وليس بناء على الحكمة فى التشريع. فأساءوا تطبيق النصوص، كما اعتمدوا على السنة بصفة رئيسية وجعلوها قاضـية علـى القـرآن. والسنة كما علمنا خضعت للوضع، فضـلاً عـن محدوديـة صلاحياتها ثم لم يقفوا عند هذا بل أخذوا بأقوال الصحابة أو التابعين وفى كل هذه الحالات كان التركيز هو على حرفيـة النص مما أعطى الفقه الإسلامى طابعاً نقلياً تـدعم وتجمـد عندما أغلق باب الاجتهاد وأصبح التقليد هو الأسلوب المتبع فى التعرف على الأحكام وممارسة الشعائر.

تضخيم الجانب العبادى على الجانب الحيوى مما جعـل المجتمع يقصر فيما توجيه مقتضيات الحياة العملية من تعلـم للعلوم وإتقان للمهارات واستكمال الفنون والآداب.

إغفال القيم الحضارية التى تمثل المعنويات فى المجتمع والضمير فى الفرد بإشاعة أحكام تخالف هذه القـيم كطاعـة الحاكم "وأن جلد ظهرك وأخذ مالك" وتوثين الصلاة وإغفـال الزكاة. وشل حياة المرأة فى المجتمع.. واعتبار العلم هو ما يجب التعبد به.

إساءة استخدامهم لمبدأ "سد الذريعة" بحيث أصبح سيف مصلتا على أفعال غير مؤثمة، وسداً أمام مبـادات خلاقـة، والمبدأ نفسه سقيم ويخالف آلية "المقاصـة" التـى وضـعها القرآن الكريم.

وهذه المآخذ فى مجموعها أسهمت فى تقديم الشخصـية النمطية السلبية للمسلم، العاكف عن العبادة، المتبع للأسلاف، المستهلك – وليس المنتج – لحضـارة العصـر. وإن كـان للفقهاء شركاء فى هذا فلا شك أن نظام الحكم المستبدة المغلقة كان لها دور كبير، فضلاً فى أن العهد الوسيط بأسره (رغـم ازدهار المجتمع الإسلامى فيه) كان عهد الإيمان...

الباب الثالث

الإسلام وتحديات العصر

الفصل السابع

حقوق الإنسان

خصائص حقـوق

الإسلام فى الأديان:

يؤرخ الأوربيون للظهور الأول لحقوق الإنسان بالثورة الفرنسية وإعلانها "حقوق الإنسان والمواطن" ولكن المـؤرخ المسلم، أو حتى الذى يدرس الأديان بصفة عامـة، يجـد أن المسيحية والإسلام قد سـبقا الثـورة الفرنسـية بطريقتهمـا الخاصة التى قد تكون مختلفة، ولكنها أشد عمقاً وأصالة.

ذلك أن المسيحية والإسلام أبرزا الإنسـان دون تفرقـة بين جنس وجنس، رجل وامرأة الخ... باعتبـاره المخلـوق الذى كرمه ا فهو فى المسيحية على صورة ا . وهو فـى الإسلام خليفة ا فى الأرض. ونصت كل المواثيق الدينيـة سواء فى الإناجيل أو فى القرآن على كرامة الإنسـان. وأن ا تعالى سخر له قوى الطبيعة ليعمر الأرض.

والإقرار بهذه الكرامة من الأديان يتميز عـن الإقـرار الذى نجده فى إعلان حقوق الإنسان والمواطن الذى أصدرته الثورة الفرنسية أو الإعلان العالمى لحقوق الإنسـان الـذى أصدرته الجمعيـة العامـة للأمـم المتحـدة سـنة ١٩٤٨ بالخصائص الآتية:

أولاً: عمومية الإقرار الدينى وموضوعيته فهو لا يفرق بين جنس وآخر ولا يستهدف مصلحة معينة أو وضعاً معيناً، وإنما هو حق أضفاه ا تعالى خالق الناس جميعاً على الناس جميعاً. ومن أجل هذا فهو يتسم بالعمومية، أى أنه يعم كـل الناس وبموضوعيته، بمعنى أنه لم ينبثق عن هدف ذاتى..

إننا لا نرى فى الفلسفات الأوروبية بدءً من فلسفة أثينـا حتى فلاسفة العصر الحديث أعترافاً بحقوق الإنسان قاطبـة ودون تميز، أى الإنسان الأسود فى أدغال أفريقيا أو المهجن فى أحراش البرازيل أو الأصفر فى الهند والصين، أو "الهنود الحمر" الأصحاب الأصليين للأرض الأمريكية، إننا لا نجـد مثل هذا الاعتراف لدى أرسطو وفلاسفة أثينا، وفلاسفة روما حتى مشارف العصر الحديث.

وثمة فقرة فى كتاب مونتسيكو "روح القـوانين" تمثـل الفكرة الأوروبية نحو الإنسان الأسود يقول فيهـا "إذا طلـب منى أن أدافع عن حقنا المكتسب لإتخاذ الزنوج عبيداً فـإنى أقول إن شعوب أوروبا بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين لم تر بداً من أن تستعبد شعوب أفريقيا لكى تسـتخدمها فـى استغلال كل هذه الأقطار الفسيحة. والشعوب المـذكورة مـا هى إلا جماعات سوداء البشرة من أخمص القدم إلـى قمـة الرأس، وأنفها أفطس فطساً شنيعاً بحيث يكـاد يكـون مـن المستحيل أن نرثى لها، ولا يمكن للمرء أن يتصـور أن ا سبحانه وتعالى – وهو ذو الحكمة السامية – قد وضع روحاً – وعلى الأخص روحاً طيبة – فى جسم حالك السواد".

فهذه فقرة من كلام واحد من أكبـر فلاسـفة التنظيـر السياسى فى أوربا يبرر بها الرق.. ولا نجد فى جروسيوس الذى يدعون إنه أبو القانون الدولى ولا عند ليبتز أو هيجيـل أو حتى ماركس وأنجلز معارضة للإستعمار الأوروبى، وما حفل به من موبقات.

ثانيا: أن هذا الصدور من ا يعطيه قوة ويجعل له فى النفس الإنسانية محلاً عزيزاً أثيراً لا تظفـر بـه القـوانين

القومية أو الدولية. ولا يقتصر الأمر على القداسة المسـتمدة من أنه من ا . إنه يستمد من هذه القداسـة حصـانة ضـد الانتهاك، فقد يمكن لأى قوة انتهاك حق مـا علـى أسـاس أصولى أو تبريرات ذاتية أو آتيه الخ... إن هـذا يمكـن أن يمارس فيما تصدره الدولة من قوانين خضوعاً لآراء الأغلبية المتقلبة فى حين لا تملك أى حكومة أو دولة تلتزم بالإسـلام أن تحرم فريقا من الناس من الحقوق التى أقرها الإسلام لهم إلا إذا كانت مستعدة لانتهاك المبادئ الدينية المقدسة. ومثـل هذا الانتهاك لا تكون له من وجهة النظر الدينية أى شـرعية – فكما يقول المبدأ الإسلامى "لا طاعة لمخلوق فى معصـية الخالق" ويمكن التدليل على ذلك بمثال واقعى مشهود إن كفالة الإسلام لحقوق الإنسان كفل للأقليات غير الإسلامية حريـة ممارسة كل ما يتعلق بالدين والوراثة والزواج والدفن الخ... كل ما يتعلق بالحياة الخاصة بحيث لا يجوز لقانون الدولة أن يمسها، ولكن الأقليات الإسلامية فى الدول الأوروبية العلمانية – الديمقراطية لا تتمتع بهذه الحقوق – لأن القوانين تصـدر بناء على إرادة أغلبية المواطنين وتخضع لتقلبات هذه الإرادة

وهذا يبين معنى موضوعية، وقداسـة، وحصـانة حقـوق الإنسان عندما تصدر عن الدين.

ثالثاً: لم تُعن الأديان بأن تحدد وترتب حقوق الإنسـان كما هى فى الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الصـادر مـن الأمم المتحدة. وإن كانت قد تضمنتها، إنها ركزت الأهميـة على تعميق الإيمان بكرامة الإنسان، ومن هذا الإيمان تنبثق كل الحقوق، بل وما يمكن أن تكون قـد أغفلتـه المواثيـق الدولية. وفى نظرنا أنه لا يمكن تعميق هذا المعنى إلا عندما يصدر من ا تعالى أما عندما يصدر من الدول والحكومات فإنه لا يكون إيماناً به. ولكن اعترافاً أو إقراراً. أما الإيمـان فإن له طبيعة دينية. والفـرق إن الإيمـان لا يتغيـر، أمـا الاعتراف والإقرار فيمكن أن يتغير تبعاً للملابسات.

ومن الواضح أن لكل مذهب، ولكل جيل، ولكل جـنس طريقته فى التعبير التى قد تختلف عن تعبير الآخر. ولكنهـا تتوحد فى المعنى. وهكذا يكون من الظلم أن نطالب الأديـان بأن تسلك طريقة الإعلان العالمى لحقوق الإنسـان. إن لهـا طريقتها الخاصة التى قد تؤدى إلى المعنى بأفضل ما تؤديـه الوثائق الأخرى وعلينا أن نتفهم هـذا وأن نـدرس الأديـان

وعندئذ سنكتشف أن الحقوق التى كفلتها تفوق الحقوق التـى تعلنها الوثائق الدولية التى هى محل فخر العصر الحديث.

ومما يستحق أهمية خاصة فى هذا المجال الإشارة إلـى "صحيفة المدينة" التى وضعها الرسول عند قدومـه المدينـة وجمع فيها سكانها من الأنصـار أو المهـاجرين أو اليهـود وجعلهم جميعاً "أمة واحدة" للمسلمين دينهم **ولليهـود ديـنهم ويتناصرون جميعاً على الخير وهذه وثيقة سياسية فريـدة فى تقرير حق المواطنة لكل الأفراد على اختلاف أديـانهم. صدرت منذ ألف وأربعمائة عام.**

ويمكننا الآن أن ننتقل إلى تبيان حقـوق الإنسـان فـى الإسلام..

١. حرية الفكر والعقيدة والتعبير:

لقد لمسنا هذا الحق عند الحديث عن مرجعيـة القـرآن والرسول التى تكفل هذا الحق واختلافها مع طريقة الفقهـاء التى تضيق بها وتكاد تشلها. وقلنا إن هذا لا يجوز أن يحسب على الإسلام وأن الأسلاف والفقهاء كانوا يعبرون عن روح عصرهم المغلق المستبد أما ما ينسب إلى الإسلام حقا ومـا

يحاسب عليه الإسلام فعلاً فهو القـرآن الكـريم وأعمـال الرسول..

ومما يستحق الإشارة أن القرآن الكريم أعتبر الهدايـة والضلال أمراً شخصياً يعود إلى الفرد نفسه وبالتـالى فـلا يمس النظام العام ولا يجوز تدخل السلطات فيها لأنه.. كمـا قال القرآن ﴿من اهتَدى فَإِنما يهتَدِي لِنَفْسِهِ ومن ضل فَإِنمـا يضِل علَيها﴾. {١٥ الإسراء}.. ﴿من كَفَر فَعلَيهِ كُفْره ومـن عمِلَ صالِحًا فَلأَنفُسِهِم يمهدون﴾. {٤٤ الروم}.. ﴿وأَن أَتلُـو الْقُرآن فَمن اهتَدى فَإِنما يهتَدِي لِنَفْسِهِ ومن ضل فَقُلْ إِنما أَنَـا مِن الْمنذِرِين﴾. {٩٢ النمل}.. ﴿هو الَّذِي جعلَكُم خَلائِفَ فِـي الأَرضِ فَمن كَفَر فَعلَيهِ كُفْره ولا يزِيد الْكَافِرِين كُفْرهم عِنْـد ربهِم إِلا مقْتًا ولا يزِيد الْكَافِرِين كُفْـرهم إِلا خَسـارًا﴾. {٣٩ فاطر}.. ﴿إِنا أَنْزلْنَا علَيك الْكِتَاب لِلناسِ بِالْحق فَمـن اهتَـدى فَلِنَفْسِهِ ومن ضل فَإِنما يضِل علَيها وما أَنْتَ علَيهِم بِوكِيـلٍ﴾ {٤١ الزمر}..

أما الرسول فكان كالقرآن لا يصادر حرية الفكر ويلجأ إلى الحوار ومحاولة لإقناع المخالفين بالحجة، وقـد أوردنـا حالات الذين ارتدوا على عهده، فما تعقبهم بشىء.

وفى فترة ازدهار المجتمع الإسلامى، قبـل أن يقضـى الاستبداد على روح الحريـة، كـان الصـحابة والتـابعون يتعاملون مع المخالفين من معتزلة أو قدرية أو جبريـة، أو مرجئة باللطف والحسنى ويتبادلون معهم النقاش، ولا ينقمون عليهم أو يصادرون فكرهم أو يطالبون بعقوبة عليهم مـع أن فى أفكارهم ما يعد جحداً للمعلوم من الدين بالضرورة.

بل إن تعدد المذاهب الفقهية الإسلامية ما هو إلا صورة من حرية التعبير. وقد رفض الخلفاء كل الآراء التى ظهرت لجعل مذهب واحد هو المذهب المقرر، كما ارتأى ذلك ابـن المقفع فى رسالة "الصحابة" كما رفض الإمام مالك أن يكون كتابه "الموطأ" هو المرجع الفقهى الوحيد وبـذلك اسـتمرت التعددية المذهبية ومن هذا نعلم أن تقرير القرآن الحرية فـى الإيمان والكفر بما يتفق مع نص المـادة ١٦ مـن حقـوق الإنسان، بل إن القرآن صريح فى أنه من المسائل الشخصية وأن تحفظ بعض الدول، أو الفقهاء، هو افتيات على القـرآن وملاحظة لاعتبارات رأوها من تلقاء أنفسهم. وكان يمكن أن يظل بابها مفتوحاً لولاً خشية البلبلة من ناحية، والكسل العقلى من ناحية أخرى.

وفى الحقيقة فإن حرية الفكر والاعتقاد، بالإضافة إلى أنها الأمر الطبيعى والمقرر لكل ما يتعلق بالفكر وأنه لا يمكن مطلقاً إجبار الناس على الإيمان بما لا يتقبلونه ويقتنعون به عقليا ونفسياً، فإنه أيضاً صوره من صور التكريم المعنوى للإنسان. وحماية لروحه وفكره من الاضطهاد.

٢. حماية الجسد والحياة:

فى العهود القديمة كان للملوك سلطة الحياة والموت على رعاياهم. وكان للسيد هذه الحرية نفسها على عبيده، كما كانت للدائنين على المدينين وفى مرحلة لاحقه كانت القوانين شديدة الوطأة تحكم بالإعدام لعشرات الأسباب. ولم تخف القوانين وطأتها إلا فى العصور الحديثة.

ولكن الأديان منذ أن قامت وقد حرمت الحكم بالموت على فرد ما إلا إذا ارتكب عمداً جريمة قتل. أما فى غير ذلك فقد وصل التشديد إلى ما سجله القرآن الكريم "... وكتبنا فيها أن من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً..".

والقتل قصاصاً هو الأذن الصريح فى القرآن الكريم وقد تضمنت السنة حالة الرجم للزانى المحصن. ويبدو أن الرسول قد أخذ بالشرعة اليهودية وطبقها على يهود، وعلى كل حال فإن هذه الحالة هى من الحالات التى استبعدناها على أساس أن الرسول ليس له أن يحكم بحكم أقسى من القرآن. لأنه "رحمة للعالمين" كما أننا عمليا لا نسمع عن تطبيق لهذه العقوبة، لأن الشرع الذى أوجبها أوجب أن يشهد أربعة بطريقة لا تحتمل اللبس أو أن يقر صاحبها ويكرر إقراره.

كما قد يقال إن الإسلام لا يعطى للإنسان حرية التخاص من حياته، على أساس أن الحياة إنما هى نعمه من ا . ولكن الانتحار ممارسة لا عقوبة عليها". وبالتالى فهى مفوضة إلى ا ، على أن التحريم ليس باتا فقد تمنت مريم الموت وقالت ﴿يا لَيتَنِي مِت قَبلَ هذَا وكُنتُ نَسيًا منْسِيا﴾. ولا يمكن لمثل من يكون فى منزلتها أن يتمنى حراما..

وقد تثار هنا قضية القطع فى حالة السرقة وفلسفة العقوبة فى الإسلام هى "الردع" الذى قد يظلم فرداً لإنقاذ جماعة. وهو أمر اقتضته طبيعة المجتمع وتعقيده وتركيبه، وضرورة اللواذ بمثل هذا الإجراء حرصاً على مصلحته.

على أنه بالطبع لا يطبق إلا عند انتهاك مبـدأ مـن مبـادئ المجتمع هو حماية حق التملك. ومعروف أن السـرقة هـى أكثر ما يخطر لـبعض النـاس لسـهولتها، ولأنهـا تحـل مشكلاتهم. ومن هنا جاءت ضرورة التشديد حتى لا ينفسـح المجال أمام الضعف البشرى. على أن الشـريعة وضـعت ضمانات قد لا يتصورها من لا يعلمها ففى عهد أبـى بكـر وعمر كان القاضى يلقن السارق الإنكار فنقول "هل سرقت.. قل لا" فيقول لا فيخلى سبيله، فضلاً عن ضـمانات أخـرى أوردتها كتب الفقه.

ونعتقد أن من مصلحة المجتمع إبقاء مثل هذا النص، بل وتطبيقه على الذين ينهبون البنوك أو يسرقون الملايين، بـل قد نرى تطبيقه على اختلاس الإمانات الكبيـرة – وتزييـف العملات وغش الأطعمة والأدوية.. عندما تأخذ هذه الجـرائم صورة وبائية، أو تتضخم نتائجها، ونرى أن مصلحة المجتمع تبرر ذلك. والجريمة بعد أمر قـذر، ولا يمكـن معالجتـه بقفازات حريرية بيضاء.

ما يقال على القطع ينسحب على الجلد. وعلينا أن نذكر أن العقوبة البديلة وهى السجن تشل الحرية الإنسانية، وهـى

أثمن ما لدى الإنسان، وتؤدى إلى الشذوذ الجنسى. وتحـرم الأسرة من عائلها فضلاً عن أنها مدرسة لتعليم الجريمة.

وقد يثار هنا قضية إجازة الزوج ضرب زوجتـه عنـد النشوز وبعد فشل محاولات الصلح وقد أشرنا إليها آنفا.

على أن ورود نص فى القرآن يدخل فى الشريعة، بأمر دنيوى، إنما يظل ما ظلت الحكمة (أو العلة) فيه فإذا انتفـت فإنه يفقد مبرر وجوده، فالأمر فى هذا الـنص كغيـره مـن النصوص الدنيوية يتوقف على العدل، فحيثما يكون.. يكـون شرع ا ..

وما يدعم هذا حرص الرسول الشديد على حفظ كرامـة الجسد الإنسانى. وقد أوردنا الأمثلة التـى قضـى الرسـول بتحرير العبد عندما صفعه صاحبه..

ومما يدخل فى هذا تحريم الإسـلام التعـذيب والمثلـه تحريماً غليظا ليس فحسب بالنسبة للإنسـان بـل للحيـوان وللكلاب العقور ولا يعرف التـاريخ الإسـلامى ممارسـات للتعذيب كالممارسات التى تحفل بها نظم الحكم الأخرى.

وإذا كانت المادة الثانية عشر من إعلان حقوق الإنسان تنص على حقه فى "الخصوصية" فقد أرسى الإسـلام هـذا

المبدأ بصورة فاقت النص معنى ومبنى، إذ أنه حـرم كـل صور التجسس فى القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿يا أيها الذِين آمنُوا اجتَنِبوا كَثِيرًا مِن الظن إِن بعض الظن إِثْم ولا تَجسسوا ولا يغْتَب بعضكُم بعضًا أَيحِب أَحدكُم أَن يأْكُلَ لَحم أَخِيهِ ميتًا فَكَرِهتُموه واتقُوا الله إِن الله تَواب رحِيم﴾. {١٢ الحجرات}..

ونهى النبى عليه الصلاة والسلام عن تتبـع العـورات وتعقب العثرات وقال: "من رأى عورة فسترها كان كمن أحيا مؤود" ونهى عمرو بن عقبه أن يحضـر مـولاه الشـرطة ليقبضوا على بعض شاربى الخمر عندما رأى الخمر تقطـر من لحاهم، وأمر مولاه بأن يعظهم، فأخبره إنه وعظهم فلـم يتعظوا، ومع هذا رفض الإستجابة لطلب مـولاه، وأعتبـر الرسول إن للبيوت حرمة ولا يجوز التجسس عليها وأنه لـو أن امرؤاً أطلع عليك بغير إذن فقذفته بحصاة ففقأت عينه "ما كان عليك من جناح".

ومعروفة هى قضية عمر بن الخطاب عندما تسور على الذين يشربون الخمر فحاجوه، بأنه خالف كـلام ا تعـالى: ﴿وآتوا البيـوت من أبوابهـا﴾. و﴿ولا تجسسـوا﴾. و﴿ولا

تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسـوا﴾. فتـركهم لأنهـم حاجوه بالقرآن.

وقد أثار بعض المفكرين تحفظاً على المادة ١٦ الخاصة بحرية الزواج. ونعتقد إن الموضوع قابل للنقاش مع ملاحظة أن الزواج ليس إرادة فردية فحسب أو علاقة حب وغـرام، ولكنه إجراء اجتماعى فى صميم المجتمع وينتج عنـه أولاد وحقوق فى الأرث، ودين هؤلاء الأولاد الخ... فهى قضـية تبرز التعقيد الاجتماعى بحيث لا يكون سـهلاً حلهـا حـلاً ضيقاً، أو يلحظ بعد واحد من أبعادها العديدة.

هذه هى أبرز حقوق الإنسان كما يراها القرآن الكـريم والصحيح الثابت من أقوال وعمل الرسـول أمـا أن هـذه الحقوق قد طبقت، فتلك مسألة أخرى. والرد قيها أنها طبقت على وجه التأكيد خلال ٤٠ سنة من ١٤٠٠ سنة التى تمثـل حكم الإسلام. وهذه الأربعين سنة هى حكم الرسول وأبى بكر وعمر وعلى. أما ما جاء بعدها فقد كان بعيداً كل البعد عـن تقرير هذه الحقوق. كما لم يقررها الفقهاء.

ولكن هذا وذاك لا يحسب على الإسلام وإنمـا يحسـب على الإسلام ما جاء فى القرآن وطبقه الرسول. وإغفال هذه

الحقوق يعود إلى المناخ الذى ساد المجتمعات فـى القـرون الوسطى وما تلاها من ضـحالة هـامش الحريـات.. وأن المجتمع الأوروبى فى القرون الوسطى كان أسوأ بمراحل من المجتمع الإسلامى فى هذه الفترة نفسها فلم يعرف المجتمـع الإسلامى مثلاً "القنانة" ولا التمييز الطبقى الصارخ ولا وجود محاكم للنبلاء وأخرى للشعب الـخ... وأن هـذا المجتمـع الأوروبى لم يسمح بظهور حقوق الإنسان إلا تدريجيا وعبر مرحلة طويلة من كفاح الأحرار وبعـد أن شـاعت الثقافـة والمعرفة وارتفعت مسـتويات المعيشـة بفضـل التـراكم الرأسمالى الذى كان من مصادره نهب ثروات العالم الثالـث حتى كللت بالنجاح على مدار القرون الثلاثة الأخيرة.

الفصل الثامن

قضية الحكم
بين الديمقراطية والشريعة
والشورى

سأل سائل أحد الحكماء عن أفضل نظام للحكم..

فرد الحكيم بكلمة واحدة "لمن"؟..

ذلك أن نظاماً للحكم يمكن أن يتطابق مـع احتياجـات، وطبائع، وزمان شعب ما.. بينما لا يتطابق هذا النظام نفسـه لدى شعب، وزمان، وطبائع شعب آخر..

والصيحة المتعالية عن الديمقراطية فى حاجة لأن تتمثل إجابة هذا الحكيم وتقف عنده طويلاً.

فالديمقراطية ليست ثوباً "أول لسيز" **all size** يمكـن أن يلبسه كل الشعوب، ولا هو النظام الذى يتطابق مع أوضـاع كل الشعوب ولا هو الشفاء من كل داء كما يتصور البعض.

والديمقراطية المطبقة حالياً هى فى حقيقتها أحد وجهـى البورجوازية التى ولدت فى حضن "البـورو" فـى القـرنين الرابع والخامس عشر أما الوجه الآخر لها فهو الرأسـمالية، وقد ظهرت تبعا لتطورات فى أوضاع المجتمع الأوروبى، ثم

نقلت مع ما نقل من نظام أوروبية مع المهاجرين إلى الأرض الجديدة: أمريكا.

وهناك خلط وقع فيه كثير من المفكرين والكتاب السياسيين ما بين الديمقراطية والحرية، فى حين أنهما أمران مختلفان. والفضل للحرية فيما وصل إليه المجتمع الأوروبى من تقدم، بما فى ذلك ظهور الديمقراطية نفسها. ولكن الديمقراطية لم تكن دائماً حريصة على الحرية وبطشت بها فى كثير من الحالات. لأن الديمقراطية هى حكم الأغلبية الشعبية التى يحدث أن تؤثر عليها مؤثرات عديدة فتنحرف عن الحرية. وقد ظهرت كل صور الحكم الشمولى من معطف الديمقراطية. وكانت الانتخابات الألمانية سنة ٣٢ هى **التى جاءت بهتلر. ومن ثم يلزم التفريق. فالحرية وبوجه خاص حرية الفكر والتعبير والمعارضة السياسية مقدسة ويجب أن تتوفر فى كل نظام رشيد سواء حمل اسم الديمقراطية أو حمل اسماً آخر، وسواء كان إسلاميا أو اشتراكيا..**

ويكاد يكون من البديهات السياسية أننا لا نستطيع أن ننقل نقلاً نظاماً سياسياً لدولة إلى دولة أخرى تختلف ظروفها

الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، كمـا تختلـف أصـولها الحضارية التاريخية. إن هذا تلفيق غير طبيعى لا يمكـن أن يثبت ويبقى لأن العلاقة وثيقة بين النظام السياسى لدولـة.. وأوضاع وحضارة هذه الدولة..

ولكن هذا لا يمنع من أمرين الأول أن هنـاك أصـولاً عامة مشتركة يجب أن توجد فى كل نظام سياسى مهما كان الاختلاف بين الشعوب وهى التى أشرنا إليهـا فـى الفقـرة السابقة أعنى ضرورة توفير حرية الفكر والتعبير.

والثانى أن تطور النظام السياسى فى دولة أو فى عـدد من الدول يمكن أن يؤثر – أو يطعم – بالنظام السياسية فـى دول أخرى. وهذا هو ما يمكن أن نسميه التلاقح الحضارى..

وهذا إن صح فى الماضى، فإنه يكاد يكون أمراً مقضيا فى الحاضر حيث تهاوت السدود والقيود وأصبحت السماوات مفتوحة أمام كل الدعايات.

ومن الخير للذين يدعون شعوب العالم إلى الديمقراطية أن يلاحظوا هذين الأمرين بحيث يمكن أن يوجـد نظـام لا يتسمى باسـم الديمقراطيـة ولا يضـع الآليـات التقليديـة للديمقراطية كالأحزاب والانتخابات علـى أسـاس الـدوائر

الانتخابية ولكنه يحقق أفضل ما تهـدف إليـه الديمقراطيـة بوسائله الخاصة وعندئذ يجب قبول هذا النظام، ومتابعة نقط القوة والضعف وما يمكـن أن "يطعـم" بـه مـن مبـادئ ديمقراطية، بل وما يمكن أن يفيد الديمقراطية نفسها بحيـث تجد فيه علاجاً لبعض جوانب قصورها..

إن كل من يتصدى للنظم السياسية فى الدول الإسـلامية لابد وان يتسم بسعة الأفق ولابد أن يكون مؤمنـا بالإنسـان أسوداً أو أبيضاً مسلماً أو مسيحياً أو بوذياً، ولابـد أن يقـدر خصوصيات هذه الشعوب. وأنها لها ثقافاتها ونظمهـا التـى تستحق الدراسة والتحليل، ولابد أن يـتخاص مـن نزعـة الاستعلاء العنصرى والمركزية الأوروبية التى حكمت الفكر السياسى الأوروبى ردحاً طويلاً.

مؤشرات القرآن عن الحكم :

تضمن القرآن إشارات عديدة إلى الحكم نلحظ منها..

أن القرآن يجعل من الرسل دعاة، مبلغين، مبينين، دون أى سلطة ودون أن يكونوا حفظاء أو وسـطاء أو جبـارين مسيطرين أو حتى وكلاء عن الناس. مما ينم عـن عـزوف القرآن عن السلطة والحكم.

أن القرآن لا يذكر الدولة كمدلول سياسى. وهى لم ترد فى القرآن إلا مرة واحدة بمعنى تداول الثروة. وفى مقابـل هذا فإن القرآن يكثر من تعبير "أمة".

أن كلمة الحكم فى القرآن لها طابع قضائى لا سياسـى ولذلك تأتى بعدها حرف "بين" ولا تأتى مطلقة إلا بالنسبة تعالى "إن الحكم إلا ".

وهذه الإشارة ذات مغزى وثيق لأنها تـؤمئ إلـى أن الحكم فى الإسلام له طابع قانونى، أى أنه حكم القانون وهذا هو أقوى واعمق معلم للحكم فى الإسلام يقدمه القرآن.

أن القرآن يأمر بالشورى ويحذر من الطغيان والانفراد بالأمر..

أن القرآن يندد بالملوك فى حالات عديـدة وقـد تقبـل الرأى الذى قدمته ملكة سبأ ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّـةً وَكَـذَلِكَ يَفْعَلُـونَ﴾. {٣٤ النمل}..

يعتبر القرآن أن الترف من أكبر دواعى فساد الـدول، ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَـا فَحَـقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِـيرًا﴾. {١٦ الإسراء}.. لأن هـذا

الترف يستتبع الفاقة لدى الآخرين فضـلاً عـن أنـه سـيئ بطبيعته.

أن القرآن يرى أن قوام الحكم هو العدل. ﴿وإذا حكمـتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾. وهى إشارة وثيقـة الصـلة بالمدلول القضائى للحكم فى الإسلام.

على أن العدل ليس هو محور الحكم فحسب، إنه محور الشريعة كلها – أى عالم العلاقات.

مؤشرات الحكم لدى الرسول :

نجد مطابقة ما بين مؤشرات الحكم فى القرآن وأحاديث وأفعال الرسول عنه. فلم يدع أبداً أنه ملك أو حاكم بـالمعنى السياسى المألوف. وحث القرآن على طاعته عنـدما "يحكـم بينكم" يدل على الطبيعة القضائية لهذا الحكم، والتى يسـتتبع الطاعة والالتزام. وقد حكمت الظروف والملابسات وتطـور الأحداث بأن يحكم المدينة، وان يقـود جيشـها وأن يكتـب المعاهدات الخ... ما يقوم به الحكام أو الملوك ولكنـه كـان يؤدى هذا كله لا كجزء من الرسـالة، ولكـن تجاوبـاً مـع الأوضاع. وقد التزم بما أمر به القرآن من الشورى والعـدل

والبعد التام عن الترف فكان الرسول يعيش كمـا يعـيش أى رجل من العرب لا يتميز بمال أو حرس أو زى الخ...

وقد أوردنا فى فصل الحكمة بعض أحاديث الرسول عن الإمارة والتحذير منها

تفرقة هامة :

ومن المهم التفرقة بين أن يضـع الإسـلام خطوطـاً عريضة لما يكون عليه نظام الحكم، وبين أن يستهدف هـو نفسه إقامة دولة "إسلامية". فهذا الأخير. وان كان هو الذى يتملك خيال المفكرين الإسلاميين ويتصورون فيه الطريقـة الوحيدة لتطبيق الشريعة هو فى الحقيقة أبعد ما يكـون عـن الإسلام الحق وعليهم أن يفرقوا مـا بـين وضـع الإسـلام خطوطاً لما يكون عليه الحكم وبين ممارسـة السـلطة، وأن يتبينوا أن "دولة المدينة" وحكم الخلفاء الراشـدين لـم يكـن تطبيقاً لأمر فى العقيدة، ولكنه كان نزولاً على حكم تطورات الأحداث، وأنه تجربة فريدة لا يمكن أن تتكرر.

إن تطور الأحداث الذى جعل الرسول يحكم المدينة كما لو كان حاكمها السياسى، والتى أدت أيضاً لأن تجعل أبا بكر يحارب العرب الذين رفضوا دفع الزكاة وأرادوا التخاص من

سلطة الدولة المركزية أو دفع الزكـاة، كمـا أدى تسلسـل الأحداث ليخلفه عمر. نقول إن هذه العوامل الاستثنائية التـى تسببت فى قيام دولة المدينة، وبقائهـا ربـع قـرن انتهـت وانحسرت دفعة الإيمان التى حمتها مـن عـدوان السـلطة. وعندما طعن عمر بن الخطاب انتهت هذه التجربة السياسـية الفريدة للإسلام.

وإنه ليبدو لنا أن ا تعالى أراد أن تظهر هذه التجربـة حتى تقدم المثال الكلاسيكى لما يجب أن يكون عليـه حكـم إسلامى. ولأن يقدم هذا المثال المواصفات والشـروط التـى يلتزم بها هذا الحكم.

وفى كتاب "الإسلام دين وأمة وليس ديناً ودولة" وهـى أحد مراجع دعوة الإحياء أثبتنا أن الإسلام لا يمكن أن يقترن بسلطة لأن السلطة مفسدة بطبيعتها ولابد أن تفسـد العقيـدة. **ومن هنا فإن فكرة تكوين دولة إسـلامية تنـاقض نفسـها بنفسها. وأن التعبير السليم هو "أمة مسلمة"** تضغط علـى نظام الحكم بحكم ثقلها والوسائل المقررة المشروعة، علـى تطبيق ما تؤمن به، وما ترى أن على الحكم السليم أن يلتزم به. وبهذا تحقق غايتها دون أن تورط الإسلام فـى الحكـم،

والدولة فى **الإسلام دولة مدنية القالب** تحكم بسيادة القانون. والقانون فيها هو القرآن أو بمعنى أصح "منظومـة الآيـات الحاكمة (أى التى يستمد منها حكم) والتى يكـون محورهـا العدل، وهنا تتلاقى مع المحور الذى يجب أن يكـون لهـذه الدولة وهو العدل، ومع طبيعته القضائية للحكم فى الإسلام..

ويمكن إجمال المبادئ العامة التى يضعها الإسلام لنظام الحكم من واقع مؤشرات القرآن، وتجربة دولة المدينة فـى عهد الرسول وأبى بكر وعمر.

أن يقوم نظام الحكم على سيادة القانون.

وهذا يعنى:

أن لا تكون الدولة الإسلامية دولة الفرد الـديكتاتور، أو دولة الحزب الواحد، أو دولـة الطبقـة، أو دولـة الطغمـة العسكرية.

إن لا يكون أحد فوق القانون أو بمنأى عن ولايته.

أن لا يحرم أى واحد من حماية القانون.

أن لا يكون هناك تفرقة أمام القانون، فالكل أمامه سواء.

أن لا يعتد بأى إجراء أو تصرف يصدر مخالفاً للقانون.

أن يجب الولاء للقانون كل صور الولاء الأخرى مهنية أو أسرية أو قومية أو نقابية الخ...

أن لا يكون هناك سوى قانون واحد يخضع له النـاس جميعاً دون تفرقة.

إن كون القانون فى الأمة الإسلامية هو القرآن لا ينفى أن تكون الأمة هى مصدر السلطات. والضابط الوحيد لهـذا النص التقليدى فى الدساتير الديمقراطية أن السـلطات هنـا ليست مطلقة، ولكنها داخل الإطـار – العـريض للقـرآن، فالسيادة هى للقرآن باعتباره التوجيـه الإلهـى – باعتبـاره الدستور، ولكن "سلطة" الفهم، والتطبيق والممارسة والإضافة والتأويل الخ... هى للأمة التى إستخلفها ا فى الأرض.

وقد أراد ا تعالى بسيادة القرآن ضمان تحرر الأمـة الإسلامية والفرد المسلم من فرض سلطة الطغاة والحكـام والمستغلين بمختلف الادعاءات والحيلولة دون أن تخدع أو تزيف إرادة الأغلبية وبالتالى نتوصل إلـى القضـاء علـى الحقوق التى كفلها القانون. وسيادة القانون فـى الحقيقـة تؤدى إلى حماية حقوق الفـرد وسـيادة الفـرد الملتـزم بالقانون، كما أن النص على أن الأمة الإسلامية هى مصدر

السلطات ضرورى ولازم حتى لا يستأثر الحاكم بالحكم ويصبح ديكتاتوراً حتى وأن أدعى الحكم بالقرآن.

إن الالتزام بالقرآن لا يعنى الالتزام بما أبداه المفسرون والمحدثون وأئمة المذاهب من آراء. ولكنه يعنى التطبيق الأمين للنصوص القرآنية الحاكمة دون تطويع أو تعسف وفى ضوء تفسير القرآن نفسه لها. كما يتضمن تفسير الحديث فى ضوء القرآن واستلهام الحكمة.

الشورى هى وسيلة ممارسة الحكم فى الإسلام. ولا يجوز بأى حال من الأحوال إعطاء السلطة التنفيذية – بما فى ذلك الحاكم الأعلى للدولة – سلطة إصدار القرارات بصفة فردية أو دون إقرار المجلس المختص.

الهدف الرئيسى للدولة هو إقامة العدل وبوجه خاص العدل الاقتصادى بحيث تمحى الفاقة من المجتمع.

ويدخل فى أهداف الدولة الإسلامية:

توفير الاحتياجات اللازمة للحياة الكريمة للمواطنين.

إشاعة مناخ الأمن والطمأنينة تأسيساً على مبدأ كرامة الإنسان.

نشر العلم والمعرفة والتدريب على المهارات اللازمـة لتقدم المجتمع الإسلامى.

نشر وتعميق القيم الحضارية للإسـلام مثـل الحريـة والمساواة والخير والعدل الخ...

القيام بالخدمات العامـة ودعـم الاقتصـاد وتوجيهـة للمصلحة القومية وحسم شأفة الجريمة والفساد.

الدفاع عن التراب القومى والمساهمة فى قضية "تحرير العالم الإسلامى" مع الدول الإسلامية الأخرى.

يضاف إلى هذه الأصول التقاليد التى أرساها الخليفتـان أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعززها على بن أبـى طالب بحيث حددت ماذا تكون عليه الممارسة.

وهذه التقاليد:

يقوم الحكم على أساس "بيعة" أو كما نقول "عقـد" بـين ممثلى الأمة، والمرشح للحكم يتعهد فيها المرشح بالحكم طبقا للأصول القرآنية ويتعهد له ممثلو الأمة بالطاعـة مـا ظـل ملتزما بذلك.

تكون ممارسة الحاكم لمسئولياته بطريقة الشورى حـق ممثلى الأمة، بل من حق أفراد الأمة محاسبة الحـاكم عـن

سياسته وتصرفاته، وإذا انحرف انحرافاً جسـيماً، يقومـون بعزله.. لأنه لا يكون له حق فى طاعة..

وقد ثارت مناقشات عن الشورى وهل هـى ملزمـة أو معلمة، وفيما نرى فإن هذه المناقشات تكون هامة جداً لو لـم توجد ضمانة رقابة الشعب رقابة تصل إلى إقالة الحـاكم. إن وجود هذا الحق للشعب – وهو ثابت مقرر من الخليفتين أبى بكر وعمر بن الخطاب – لا يعطى قضـية هـل الشـورى ملزمة أو معلمة الأهمية الحاسمة، لأن الأهمية الحاسمة هـى فى محاسبة الحاكم على سياسته.

وهذه الطريقة فى توليه الحكم، والضمانة القويـة فـى المتابعة التى تصل إلى حد الإقالة يمثلان أساسـيات الحكـم الرشيد. وان لم ينصا على طريقة ممارسة الشورى وآلياتهـا وهو نقص ينم عن عدم تأصل التنهيج فى طرائـق العـرب وقتئذ، وقد سمح هذا الإغفال بتسلل الحكم الفردى لأن رقابة ومتابعة القاعدة وإن كانت مقررة إلا أنه ليس من السهل دائما القيام بها فضلاً **عن أن الداء الذى أصـاب الإدارة العربيـة الإسلامية وقتئذ – إلا وهو عدم التنهيج، لم يقرر الوسـائل التى تطبق بها المتابعة أيضاً. وكان سهلاً على الحاكم وقـد**

وصل إلى الحكم، مع عدم النص صراحة، علـى ضـرورة إلزامية الشورى وتعيين آليتها، ومع عـدم الـنص علـى وسائل المتابعة والرقابة الشعبية وآلياتها كان سهلاً عليـه أن يستبد بالأمر وهذا هو ما حدث عندما حول معاوية بـن أبى سفيان الخلافة إلى ملك عضوض بصورة ما كان يمكن أن تحدث لو وجدت آليات الشورى والمتابعة.

***

أشرنا فى السطور السابقة إلـى ظهـور الديمقراطيـة الأوروبيـة الحديثـة وتطورهـا.. وأنهـا فـى حقيقتهـا "البورجوازية" وأن الديمقراطية ليست إلا الوجه السياسى لها كما أن الرأسمالية هى الوجه الاقتصادى لها..

لقد أبدعت الديمقراطية الأوروبيـة خـلال مسـيرتها الطويلة أداتين لتحقيق الممارسة الديمقراطية هما الأحـزاب. والانتخابات على أساس تقسيم البلاد إداريا وجغرافيـا إلـى دوائر تنتخب كل دائرة مندوباً أو نائباً يمثلهـا وقـد أثبتـت التجارب فى كل الدول الديمقراطية أن هذين النظامين فيهمـا ثغرات لا عداد لها يمكن من خلالها إفساد عملهما أو التأثير عليها، ونحن فى غنى عن البرهنة على هذا بما يعلن عنه من

دعم أصحاب الأعمال فى صناعة مـا لحـزب مـا ودعـم أصحاب الأعمال فى التجارة لحـزب آخـر، وعـن تقـديم الرشاوى للناخبين فى الدوائر أو التـأثير علـيهم بمختلـف الصور أو تزييف النتائج. إن ما ينشر عن هذا لا يدع شـكا فى قابلية هذين النظامين للتأثر بمختلف العوامل التى تحـول دون أن يكون أداؤهما موضوعيا، خالصاً لخدمة البلاد.

كما أن نظام الأحزاب يجعل الحكم فى حد ذاته مطلبـاً، فى حين أنه أداة أو وسيلة وعندما يكون مطلبا يفقد رسـاليته ويؤدى تعدد الأحزاب إلى عـدم ظفـر حـزب بالأغلبيـة الكاسحة، ويضطر إلى تأليف وزارة ائتلافية قلما تستقر إلـى آخر السوءات التى كشفت عنها التجربة لنظام الأحزاب.

وقد عجز المصلحون السياسيون عن إصلاح هذين لأن بنية الديمقراطية تسمح بظهور مقاومـة جـزء كبيـر مـن المنتفعين من الأوضاع القائمة، ولا يريدون تغييرها. ويغلب أن يكون هؤلاء من كبار الرأسماليين والإعلاميـين الـذين يسخرون الصحافة والإذاعة والتليفزيون لخدمـة الأوضـاع القائمة ولهذا تضيع جهود المصلحين وتذهب سدىً.

* * *

أشرنا إشارة موجزة عن المؤشرات التى وضعها القرآن، أو التجربة التى أدت الملابسات وتطور الأحداث إلى ظهورها، وهى تجربة دولة المدينة التى حكمها الرسول لعشرة سنوات وخلفه حكم أبى بكر وعمر قرابة خمس عشر سنة، ثم انتهت التجربة التى أراد ا بها تقديم مثال يمكن استلهامه، ولكن يستحيل تكراره.. لعدد كبير من الأسباب لعل أبرزها أن دولة المدينة كان على رأسها نبى يوحى إليه. وهو شرط لا يمكن أن يتوفر لأى دولة إسلامية أخرى..

مع هذا يبقى المثال الذى وضعه القرآن من أفضل المثل ألا وهو الحكم بالقانون – وهو فيما نرى – يفضل الديمقراطية. وهذا ليس رأينا الخاص، ولكنه رأى فلاسفة أثينا سقراط وأفلاطون وارسطو. الذين شاهدوا كيف حكمت الديمقراطية الأثينية على سقراط بالموت وكادت تستعبد أفلاطون، من هنا لم يكن هؤلاء الفلاسفة متعاطفين مع الديمقراطية بل كانوا عازفين عنها، وأرادوا نظاماً آخر هو حكم القانون، وليس حكم الأصوات.

وقد بين هذه النقطة بجلاء الكاتب السياسى هايك فى محاضرة له بعنوان "المثال السياسى لحكم القانون" إذ قال إن

حكم القانون كان هو المثال لكل الفلاسفة والمفكرين وكان فى أثينا يطلق عليه أسنوميا **isnomia** وهى كلمة أنسيت بعد ذلك، وتقهقرت أمام كلمة "الديمقراطية" وعندما ظهرت فى قواميس القرن السادس عشر ترجمت إلى "المساواة أمام القانون" أو "حكومة القانون" أو "سيادة القانون".

وقال هايك "أستخدم **أفلاطون الكلمة كمضاد صريح للديمقراطية وليس كمرادف لها،** كما تعد الفقرات التى جاءت فى السياسة لأرسطو خلال مناقشته لأنواع الديمقراطية دفاعا عن حكم القانون، وليس عن الديمقراطية. الأمر الذى يدل عليه قوله "من الأفضل أن يحكم القانون عن أن يحكم المواطنون" و "أن يعين الأشخاص الذين يتقلدون المناصب العليا كحماة وخدما للقانون" **وكذلك أدانته الحكومة التى "يحكم فيها الشعب وليس القانون.. وحيث يحدد كل شىء بأغلبية الأصوات وليس بالقانون"** ومثل هذه الحكومة لا تعد فى نظره حكومة دولة حرة لأنه "حيث لا تكون الحكومة فى يد القوانين، فليس هناك دولة حرة، لأن القانون يجب أن يكون أسمى من كل الأشياء الأخرى" بل إنه ذهب **إلى أن تركيز القوى فى أصوات الشعب لا يمكن أن يسمى**

ديمقراطية لأن مدى قراراتها لا تكون عامـة وفـى كتـاب "البلاغة" قال "أنه لمن أعظم الأمور أهمية أن تحدد القـوانين السليمة نفسها كل النقط، ولا تدع إلا أقل ما يمكن للقضاة"(١).

---

(١) نحن مدينون بهذه الفقرة إلى البرفيسور ف أ، هايك الكاتب الاجتمـاعى – الاقتصادى المشهور الذى بعث مرة أخرى كلمة **Isonomia** خـلال سلسـلة محاضراته التى ألقاها بالقاهرة بدعوة من البنك الأهلـى المصـرى خـلال احتفالات البنك بالذكرى الخمسين له. وطبعت فى رسالة خاصة بالإنجليزيـة تحت عنوان "المثال السياسى لحكم القانون" سنة ١٩٥٥.

وبالنسبة لجدة هذه الفكر على كثير من الكتاب فإننا أثرنا أن ننقـل هنـا نص الفقرات التى استشهد بها هايك عن هذه النقطة. وها هى ذى:

... We find isonomia used by Plato in quite deliberate contrast to democracy rather than in vindication of it. ln the light of this devlopment the famous passages in Aristotle,s politics in which he discusses the different kinds of democracy appear in effect as a defence of the ideal of isonomia. It is well – known how he stresses there that "it is more proper that the law should govern than any of the citizens", that the persons holding superme power" should be appointed only as guardians and servants of the law ", and particularly how he condemns the kind of government under which" the people govern and not the law ", and where" everything is determined by a majority vote and not by law " . Such a government, according to him cannot be regarded as that of a free state, for when the government is not in the laws, then there is no free state, for law ought to be supreme over all things " **.** He even contended that any such establishment which centered all power in votes or people could not " properly speaking be called a democracy, for their decrees cannot be general in their extent " **.** Together with the equally famous passage in his Rhetorics in which he argues that "it is of great moment that well drawn laws should themselves define all the points they can, and leave as few as may be for the decision of the judges " ,

من هذا الكلام يتضح أن فكرة الحكم بالقـانون تفضـل فكرة الحكم بالأصوات التى هى المضمون الحقيقى والعملـى للديمقراطية وأن الذى جعل أوروبا تفشل فى تطبيـق هـذا المثال هو عجزها عن الوصول إلى القـانون الموضـوعى، القانون الذى يكون قاضيا، وليس القانون الذاتى الذى يكـون محاميا لمصالح الفئة التى وضعت، وهو ما يوضحه القانون الرومانى الذى كان يجعل كل الطرق تـؤدى إلـى رومـا. وقانون نابليون الذى جسم مصالح البورجوازيـة الصـاعدة والقانون السوفيتى الذى جعل قيادة الحزب مرجعية التحليـل والتحريم. وهذا العجز منتف بالنسبة للإسلام لأن القرآن يقدم القانون المنشود بالفهم الذى قدمناه والضمانات التى أوردناها.

وبالنسبة للمآخذ على نظام انتخاب الـدوائر، فنـرى أن نظام انتخاب المندوبين على أساس المهن والوظـائف ومـن أماكن العمل كمرحلة قاعدية أفضل من انتخاب النواب علـى أساس الدوائر الجغرافية. وهذا هو ما أراده النظام السوفيتى. وكلمة سوفييت تعنى مندوب. وفى الأيام الأولى لثورة أكتوبر

THE POLICAL IDEAL OF THE RULE OF LAW BY F.A. HAYEK.

The National Bank of Egypt. Fiftieth Anniversary (1955) Commemoration Lectures – Cairo, P7

كان مجلس السوفييت هو الذى يحكم وكان يضم مندوبين عن العمال والفلاحين والجنود وكان يمكن لهذه التجربة أن تنجح لولا أن لينين بطش بها وسلط عليها النقابات ثم سلط الحزب على النقابات وفى النهاية حكم الحزب الوحيد.

ولهذا النظام أصل فى الإسلام فعنـدما قـدم الرسـول المدينة طلب من الأنصار أن يختاروا من بينهم أثنى عشـر نقيباً.. ولكن افتقاد التنهيج – حتى أيام الرسول – جعلنا نعجز عن متابعة هذا الاختيار.. ولكنه على كل حال لا ينفى المبدأ.

وهناك نوع من العزوف النفسى – إذا جاز التعبيـر – فى أعماق الفكر السياسى الإسلامى عن السلطة جعله يضـع مبدأ "طالب الولاية لا يولى" وليس من هـدف للأحـزاب إلا الولاية ومن هنا فإن للشك فيها له ما يبرره من زاوية الفكر السياسى الإسلامى. وقد أصدقت التجربة الحـس الإسـلامى تجاه الأحزاب إذ مزقت وحدة الأمـة كمـا قضـت علـى استمرارية الحكم فباستثناء بريطانيا والولايات المتحدة التـى استقرت فيها الوضعية الحزبية على أساس حزبين فإن تعـدد الأحزاب مزق وحدة الأمة، وتناحرها على السلطة فى الدول الأخرى وأدى إما إلى تكوين وزارات ائتلافية تكون تجمعـا

للأخوة الأعداء أو أن تسقط الوزارة قبل أن تمضى شـهوراً فى حكمها. وهذا وذاك من أكبر وجوه النقص التـى تحـول دون تحقيق الحكم الصالح.

وبما أن النظـام الإسـلامى يميـل لأن يأخـذ بنظـام المندوبين، أكثر من ميله لنظام النواب فإن من الممكن تشكيل الوزارات من هؤلاء المندوبين **ويمكن أن تبقـى الأحـزاب كمدارس للفكر السياسى ومنابر لإظهار القيادات والعناصـر الموهوبة. دون أن يكون من أهدافها التوصل إلى الحكم.**

إن هذا التصور لنظام حكام يستلهم الأصول الإسـلامية دون أن يتورط فى ممارسة السلطة حتى لا يقع فى الدولـة الثيولوجية أو أن تفسد السلطة العقيدة بحيث تسـخر الـدين للدنيا. نقول إن هذا التصور يمثل اجتهاداً يجـب أن يظفـر بالتقدير من كل الذين يريدون إصلاح نظم الحكم فى الـدول الإسلامية واعتقد أنه فى إطار الفهم الذى تقدمه دعوة الإحياء الإسلامى والضمانات العديدة التى تتخذها فإنه يكـون أكثـر قبولاً – ونجاحاً – من الديمقراطية الأوروبية/ الأمريكية لأنه يحقق أفضل ما فى الديمقراطية دون أن يتعرض لمآخذها.

ولكن يثور سوآل هام يفرض نفسه رغم كل ما أوردناه من ضوابط وضمانات..

هل ستحكم دولة القانون بالشريعة وتكون دولة القـانون هى دولة الشريعة، وتتضمن النصوص عن قطع يد السـارق أو جلد الزانى أو فرض الجزية خاصة وأن الدسـاتير التـى وضعتها معظم المنظمات الإسلامية كنماذج لدستور إسلامى تتضمن النص على ذلك؟.

لقد أوردنا تكيفين يغيران هذا التصور تغييراً تاماً.

فقد قلنا إن أحكام الشريعة سواء جاء بها القرآن أو السنة تقوم على حكمة. وتظل ما دامت هذه الحكمة (وهـى التـى يسميها الفقهاء العلة) وتنتفى إذا انتفت الحكمة.. وأن كل مـا جاء من نصوص بهذا الصدد لا يؤخذ على أسـاس التأبيـد، وإنما يؤخذ طبقا لاستمرار وجود الحكمة أو انعدامها وأن هذا وإن كنا قد بنيناه على أسـاس المنطـق والأصـول، فـإن الممارسات والأصول الإسلامية تتقبله فتطبيقات عمـر بـن الخطاب إنما هى صورة منه ودعـوة الإمـام الطـوفى أن المصلحة هى المقصد الأسمى للشارع فإذا وجد نص يعارض المصلحة أخذنا المصلحة وأولنا النص صورة أخرى، وقـد

صدرت هذه الفكرة عن فقيه مسلم فى مستوى ابن تيمية وابن القيم وحنبلى أيضاً (مثلهما).

وتأكيد ابن القيم أنه حينما يكون العدل تكون الشـريعة، وأن إدخال العدل حيث لا يكون نص واستبعاد الظلم إذا تسلل هو من صميم الشريعة.

فكل ما جاء عن الحدود أو الميراث الـخ... يجـب أن يعرض ويبت فيه بمعيار الحكمة. وهل الحكمة تقضى بـان تقوم العقوبة على أساس الزجر والردع.. وهو مـذهب قـد يفضل المذاهب الأخرى فى العقوبة وهل إذا أخذ بذلك يطبق قطع يد السارق على فئات بعينها أو فى حالات بعينها وهـل تكون اليمنى أو اليسرى الخ... إن هذا كله يجب أن يخضـع لسجال فكرى ونظرى تشتجر فيه الأقلام ثم ينتهى إلـى رأى الشعب (أو الأغلبية) فهى الفيصل عند الاختلاف..

هذا أحد التكيفين..

أما التكيف الآخر فهو ما يتعلق بنظريـة الحكـم فـى الإسلام، وأن الإسلام لا يعنى بكلمة "الحكم" ممارسة سياسية. ولم يرد فى كتب أصول الفقه تعريف لكلمة الحكـم يـنم أو يشير إلى ممارسة سياسية، أو دولية وإنمـا تنصـرف كـل

المعانى للأحكام الفقهية(١). وتعبيرات القرآن عن "الحكم بين الناس" ينم عن صيغة قضائية وهو ما تبرزه الآية التى كثيراً ما يستدل بها على طاعة الرسول. ﴿وما كـان لمـؤمن ولا مـؤمنة إذا **قضى** الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً﴾. {٣٦ الأحزاب}.. فإنها واضحة الدلالة عن على الطبيعة القضائية.

---

(١) إن تعريف الحكم فى كتب أصول الفقه هو كالآتى: للحكم حقائق متعـددة، الأولى منها الحقيقة اللغوية: فالحكم لغة القضاء، وأصلة المنع، يقال حكمـت عليه بكذا إذا منعته من خلافه، وحكمت بين القوم، فصلت بيـنهم، وحكمـت الرجل بالتشديد فوضت الحكم إليه، والحكم أيضاً، الحكمة من العلم، والحكـيم العالم وصاحب الحكمة، والحكيم أيضا المتقن للأمور.
والثانية الحقيقة الفقهية: وهى أن الحكم: أثر خطاب الشارع المتعلـق بأفعـال المكلفين اقتضاء، أو تخييراً أو وضعا.
الثالثة الحقيقة الحسية وهى أن الحكم إسناد أمر إلى آخـر: أى نسـبته إليـه بالإيجاب أو السلب كقولك (النار محرقة) فهذا حكم عليها بالإحراق وكقولـك (النهار لم يطلع) فقد حكمت بعدم الطلوع للنهار، وهذا حكم حسى.
الرابعة الحقيقة المنطقية: وهى أنه التصديق، أى إدراك أن النسبة واقعـة أو ليست بواقعة، كقولنا (الصدق منجاة) فالصدق محكوم عليه بكونـه منجـاة، وإدراك تحقق ذلك حكم عند المناطقة.
الخامسة الحقيقة الأصولية: وهى أن الحكم: خطاب ا تعالى المتعلق بأفعـال المكلفين، اقتضاء أو تخييراً أو وضعا، فالحكم عند جمهور الأصـوليين هـو ذات خطاب الشارع الذى يبين صفة فعل المكاف، فالحكم هو الخطاب بالأمر بإقام الصلاة وبالنهى عن قربان الزنى، وبجعل الدلوك سببا، كما سبق بيانـه فى الحقيقة الفقهية.
وقد ذكر الأصوليون للحكم الشرعى عدة تعريفات مختلفة، واختلافها يرجـع إلى عدة أمور منها الموضوعى، ومنها الشكلى.

يدعم ذلك ويؤيده أن الإسلام لـيس لديـه سـوابق ولا ممارسات ولا خطة عن دولة ما. باستثناء تجربة دولة المدينة التى هى تجربة فريدة لا يمكن أن تتكرر، وان ما أعقبها كان ملكاً عضوضاً. إن فى صميم الفكر الإسلامى عزوف عـن الدولة، وكراهية عميقة للسلطة. وقد كان هذا هو سبب تلـك الظاهرة التى حيرت الدارسين للإسلام مـن الأوروبيـين أو المسلمين أنفسهم (مثل السنهورى) عن ضـحالة مـا قدمـه الإسلام فى التنهيج السياسى، حتى عند الرسول فمع أنه طلب من الأنصار نقباء، فإننا لا نعلم مدى توظيف هؤلاء النقبـاء وهل كان لهم دور معين، وتحدث الأنصار فى سجال السقيفة عن أمراء ووزراء، ولم ترفض الفكرة، ولكـن لـم يتبعهـا تطبيق. ومن الأمور المحيرة أن شخصية إداريـة، منهجيـة منظمة مثل عمر بن الخطاب تتحرك حاسته الإدارية عنـدما يرى المسلمين يصلون "أوزاعاً" وفـى مجموعـات مختلفـة صلاة التراويح، فيتحرك لتنظـيمهم وتنهـيجهم، ويجعلهـم يصلون جميعاً تحت إمام للرجال، كما يصلى النسـاء وراء إمام خاص بهن، وهو يعلم أن الرسول تقبل الحال الذى كانوا عليه، بل أمرهم بالصلاة فى بيوتهم وأن أبا بكر أيضاً تقبـل

هذا الوضع ولم يغيره. نقول كيف أن هـذه الشخصـية ذات الفطرة والملكة المنهجية لم تضع نظاماً مقرراً للدولة، كيـف أنه وهو يعانى سكرات الموت ودمه ينزف أوصى باختيـار ستة من الصحابة ليخلفه أحدهم ولم يخطر له طـوال مـدة خدمته أن يعين مجلساً مـن سـتين مـثلاً ليكـون مجلـس الشورى.. لا يمكن فهم هذا إلا بأن الجميع لم يروا ضرورة وضع تنهيج أساسى لدولة لا يؤمنون فى أعماقهم بأن الإسلام يقتضى قيامها.. وأن الدولة التى وجدوا أنفسهم على رأسـها هى نتيجة تطورات الأحداث وليس نتيجة تطبيق مـا تمليـه العقيدة، وأنها حتى إن كانت تجسيداً للشريعة، فليس للشريعة تأبيد العقيدة وهذا كله يتفق **مع أن ما يهم الإسلام ليس هـو إقامة دولة ووضـع تفاصـيلها ولكـن وضـع المعـايير والمؤشرات لما تكون عليه هذه الدولة، فهـذا مـا قـرره الإسلام بالفعل وأكده**.. وسواء صح هـذا الاجتهـاد أو لـم يصح، فإننا لا نجد لا فى القرآن، ولا لدى الرسول، ولا بين أعمال الخلفاء الراشدين ما يضع التفاصيل والآليات لدولـة. ولكن أن يتوفر لهذه الدولة الشورى فى الممارسة والعدل فى العلاقات وأن ينتفى منها الظلم والاستبداد.

الفصل التاسع

العلمانية – والتعددية

والموقف من الآخر

من المؤسف أن الاتجاه السلفى المقرر، سواء كان من المؤسسة الدينية أو معظم المفكرين الإسلاميين المعاصرين اعتبروا أن العلمانية تخالف أصول الإسلام وأنها "تهمة تصم كل من يتقبلها بالابتعاد عن "الالتزام الإسلامى".

وحقيقة الحال غير ذلك، فما ظلت الفكرة أن العلمانيـة هى الفصل ما بين السلطة.. والدين[١] وأن لا يتدخل الـدين فى شئون الحكومة. ولا تتدخل الحكومة فى شئون الدين فإن العلمانية ليست فحسب مقبولة من الإسلام، بـل إن الإسـلام يدعو إليها لأن دعوة الإحياء الإسلامى تذهب إلى أن الإسلام دين وأمة وليس ديناً ودولـة. وأن السـلطة وهـى جـوهر

---

١) لأن فكرة العلمانية عن التمحور حول الحياة الدنيا وإغفال الآخرة هو مـا يخرج عن إطار العلمانية فى مجال الحكم.

الحكومة مفسدة، وأنها تفسد العقائد والأيدلوجيات جميعاً وقـد أفسدت الخلافة الراشدة وحولتها إلى ملك عضوض. وأفسدت المسيحية السمحة وحولتها إلى محكمـة تفتـيش، وأفسـدت اليهودية وحولتها إلى صهيونية وأفسدت الاشتراكية وجعلتها قاعدة للحكم الشمولى. وقد شرحت دعوة الإحياء الإسـلامى ذلك بنوع من التفصيل فى كتاب من ٤٠٠ صـفحة يحمـل عنوان "الإسلام دين وأمة وليس ديناً ودولة" بل كـان لـدى دعوة الإحياء الإسلامى من الشجاعة ما يجعلها تقـرر فـى كتاب "موقفنا من العلمانية، والقومية، والاشتراكية" أن مـن الخير حذف مادة عزيزة جداً على قلوب الإسلاميين جميعـاً وهى "دين الدولة هو الإسلام" وكان منطقها فى هذا أن الدولة لا يمكن أن تقدم مساهمة فى مجال الدين، فهى لا تستطيع أن تدعم الإيمان أو تؤصل العقيدة، بل حتى فريضة كالزكـاة – تدخل فى صميم عملها لو قامت بها لأهـدرت قيمهـا ولمـا استطاعت أن تنفقها فى مصارفها ولذلك فإننا اقترحنـا فـى كتاب "خمسة معايير لمصداقية الحكم الإسلامى" أن تتكـون لجان أهليه من القرى، والمحافظات، تدير عملية جمع الزكاة

وإنفاقها حتى لا تهدرها الدولة فى ميزانيتها العامة أو تنفـق حصيلتها على بناء سجون وتعزيز البوليس!.

فالدولة لا يمكن ولا تستطيع أن تخـدم الإسـلام وفـى الوقت نفسه فإن النص فى الدستور على أن الإسـلام ديـن الدولة يمكن أن يدفع عدداً من المهووسين لمشاغبة الحكومة والإدعاء عليها بمختلـف الادعـاءات أو مطالبتهـا بمـا لا تستطيعه أو تحسنه. ومثل هؤلاء موجودون دائما. وكانوا هم الذين أفسدوا على على ابن طالب حكمه بصيحة "لا حكم إلا !".

ومع هذا فقد قلنا إن الدولة فى مجتمع إسلامى لا تكون "علمانية" لشبهة عدم تنفيذها إرادة الشعب فى أمر دينى، فـى حين أن عليها أن تلتزم بإرادة الشعب، كما أن الدولة لا تكون "دينية" لأن هذا يؤدى بها إلى إفساد الدين وتسخيره فى تبرير أفعالها. وإنما تكون الدولة "مدنية" مهمتها الأساسية الإعمـار والقيام بالخدمات ورفع مسـتوى المعيشـة وتحقيـق إرادة الشعب.

ومما يجمع ما بين الإسلام والعلمانية إن الإسلام ليس له كنيسة ذات سلطة فى موضوع الإيمـان ويمكـن أن تحلـل

وتحرم، فهذا ما يرفضه الإسلام رفضا باتاً. وقد كان وجـود الكنيسة الكاثوليكية فى العصور الوسطى وما ادعته لنفسـها من سلطات فى رقابة على الفكر وتدخل فى شـئون الحكـام والأمراء والملوك هو الذى أدى إلى ثورة العلمانيـة التـى تجلت فى الثورة الفرنسية التى قضت على سـلطة الكنيسـة وألجأتها إلى أن تقتصر على شئونها الكهنوتية.

وعندما استبعد الإسلام الكنيسة، فإنه حقق للعلمانية مـا تريد، وما لم تصل إليه فى أوروبـا إلا بحـروب وقومـات انتهت بالثورة الفرنسية.

لقد أشرنا فى الحديث عن "خصائص الإسلام" الفصـل الأول – إلى الفطرة التى هى خصيصة الإسـلام. وأن هـذه الفطرة كانت هى السبب الذى من أجله رفض الإسلام فكـرة الرهبنة ولم يحبذ تطبيق مبدأيها التجرد من الملكية والالتزام بالعفة – أى عدم إقامة أى علاقة جنسية ولـو بـين الأزواج وزوجاتهم. ورأى أن ذلك يخالف سنة النبى الذى كـان لـه بعض المقتنيات، كما كان يتزوج النساء. والاتصال وثيق بين هذا المسلك وبين مسلك العلمانية الذى يتقبل الطبيعة البشرية، ويرفض ما يتعارض معها وبقدر ما أبعـد مبـدأ الرهبنـة

المسيحية من العلمانية، بقدر ما قرب الإسلام ما بينه وبينهـا عندما رفض هذا المطلب وترك الطبيعة البشـرية لملكاتهـا وسليقتها. لا تحكمها إلا الضوابط العامة.

إن قياس كثير من المستشرقين والمفكرين الأوروبيـين الإسلام بمقاييس المسيحية جعل معظم أحكامهم لا تتفق مـع صحيح الإسلام. وقد يعسر عليهم أن يتصوروا إن الإسـلام حقق ما تصبو إليه العلمانية فى أول دولـة فـى الإسـلام، وبتقرير من الرسول نفسه الذى عندما دخل المدينـة وضـع وثيقة جعل فيها العناصر الثلاثة التى كانت تسكن المدينة وهم الأنصار، والمهاجرون، واليهود المتحالفون مع الأنصار، أمة واحدة دون الناس لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.. وهم جميعاً يتكافلون بالمعروف. أى أن الإسـلام جعـل الأسـاس فـى المواطنة هو الإقامة على أرض واحدة حتـى وإن اختلـف الجنس أو الدين.. وهذا من المقومات البارزة فى العلمانية.

وقد يعزز هذا أيضاً ما يروى عن أن الرسول وجه أحد قواده إذا فتح حصنا وأراد أهله أن يعطيهم ذمة ا ورسوله، فلا يفعل وإنما يعطيهم ذمته وذمه أصحابه، لأنهم قد يخطئون فيحملون ذمة ا ورسوله ما لا تحتمل. واسـتبعاد المعنـى

الدينى وإحلال المعنى البشـرى فـى هـذا واضـح كـل الوضوح[1].

وفى الإسلام مبدأ يجعله قريباً من العلمانية هـو مبـدأ البراءة الأصلية، وأن الأعمال كلها تعد حلالاً ما لم يصـدر بتحريمها نص صريح فى القرآن الكـريم لا يقبـل تـأويلاً. ومعنى هذا أن دائرة الحرام محصورة فى ما جاء فى القرآن الكريم. وهو ما يكاد يعد على أصابع اليدين بالإضـافة إلـى هذا كله فإن ما يتسم به الإسلام من بساطه وبعد عن التعقيد. وانتفاء "اللاهوت" منه كل هذا ما يصب فى بحيرة العلمانية..

لهذا كله قلنا إن الإسلام قريب جداً من العلمانية ويتفـق معها فى كثير من المقومات.

* * *

وموقف الإسلام من التعددية يشبه موقفه من العلمانية.

وقد تصور بعض المفكرين الإسلاميين – كـالمودودى أنه لما كان توحيد ا هو أساس الإسلام، فإن هذا يستتبع أن يكون المجتمع الإسلامى موحداً، فلا يكـون سـوى حـزب واحد، وسوى قائد واحد، وسوى فكر واحد الخ... وهذا خطأ

(١) انظر إعلام الموقعين لأبن القيم ص٣٩ ج١.

شنيع فإن توحيد ا يستتبع التعددية فيما عداه. فالمسلمون لا يقولون ا واحد، وإنما يقولون لا إله إلا ا ومن هنا خصوه بالتوحيد، ولا يمكن فى الحقيقة لأى وضع أو نظام أو عضو فى المجتمع البشرى أن يكون واحداً لا يتجزأ فكـل شـىء مركب بدءاً من زوجين إلى ملايين الخلايا، وكل واحد مـن المليارات الستة الذين يمثلون سـكان الأرض يختلـف عـن السكان الباقين. فله شخصية مميزة وبصمة لا تشبهها بصمة أخرى. دع عنك تعدد الأجناس واللغات والألـوان الـخ... فالمجتمع البشرى يقوم على التعدد، وليس المجتمع الإسلامى إلا فرعاً من المجتمع البشرى، قد يختلف فى بعض النواحى ولكنه يتفق فى الأساسيات مع بقيـة المجتمعـات البشـرية الأخرى..

وقد حدد القرآن بكل وضوح، وتأكيد المبادئ التى تقرر التعددية سواء للأفراد، أو للديانات وحدد كيفية العلاقة فيمـا بينها وموقف المسلمين إزاء المخالفين.. وصـرح تمامـاً أن الفصل فى العقائد هو تعالى يوم القيامة.

١) فبالنسبة للتعدد فى الأفراد جاء.

﴿ولِكُل وِجهةٌ هو موليها فَاستَبِقُوا الْخَيـراتِ أَيـن مـا تَكُونُوا يأْتِ بِكُم الله جمِيعًا إِن الله علَى كُل شَـيءٍ قَـدِير﴾. {١٤٨ البقرة}..

واعتبر القرآن أن الهداية والضلالة، الكفـر والإيمـان قضية فردية شخصية يبوء الفرد نفسه بوزرها ويفيد بنفعهـا دون تدخل من النظام العام.

﴿فَمن اهتَدى فَلِنَفْسِهِ ومن ضل فَإِنما يضِل علَيها﴾. {٤١ الزمر}..

وكان الإسلام قد قرر حرية العقيدة علـى مصـراعيها ﴿فَمن شَاء فَلْيؤْمِن ومن شَاء فَلْيكْفُر﴾. ولم يجعل للرسـل أى سلطة إلا التبليغ والحوار والتعليم وقـال بصـريح العبـارة للرسول ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِه الناس حتى يكُونُوا مؤْمِنِين﴾. وجعـل الهداية من ا ، وأن الرسول نفسه لا يملك أن يهدى من أحب أنك لا تهدى من أحببت ولكن ا يهدى من يشاء. وقال: ﴿لا إِكْراه فِي الدين﴾..

وهذه كلها تصب فـى خانـة التعدديـة لأن الحريـة، وبالذات حرية الفكر هى أم التعددية.

٢) وبالنسبة لتعدد الأديان:

﴿لِكُلٍ جعلْنَا مِنْكُم شِرعةً ومِنْهاجًا ولَو شَاء الله لَجعلَكُـم أُمةً واحِدةً ولَكِن لِيبلُوكُم فِي ما آتَاكُم فَاسـتَبِقُوا الْخَيـراتِ﴾. {٤٨ المائدة}..

﴿إن الذِين آمنُوا والذِين هادوا والنصارى والصابِئين من آمن بِاللهِ والْيومِ الآخِرِ وعمِلَ صالِحًا فَلَهم أَجرهم عِنْد ربهـم ولا خَوفٌ علَيهم ولا هم يحزنُون﴾. {٦٢ البقرة}..

وقد قنن الإسلام التعددية وأعطاها طابع التأبيد بسـورة الكافرون.

﴿قُلْ يا أَيها الْكَافِرون**(١)** لا أَعبد ما تَعبدون**(٢)** ولا أَنْـتُم عابِدون ما أَعبد**(٣)** ولا أَنَا عابِد ما عبدتم**(٤)** ولا أَنْتُم عابِدون ما أَعبد**(٥)** لَكُم دِينُكُم ولِي دِينِ﴾. {٦ الكافرون}..

ففى هذه الآية أوضح القرآن بجلاء أن المسـلمين لـن يتركوا دينهم وان الكفار لن يتركوا دينهم أيضاً ولهذا يظـل المسلمون على دينهم ويظل الكفار على دينهم. وتعبير ﴿لَكُـم دِينُكُم ولِي دِينِ﴾. يعطى الكفار حقهم فى دينهم، كما يكـون للمسلمين حقهم فى دينهم.

وقد يستشعر البعض حساسية من تعبير القرآن يا أيها الْكَافِرون، والواقع أن هذا هو ما يصف الموقف لأن الآخرين قد عرض عليهم الإسلام فكفروا به أى رفضوه. فليس فى التعبير غضاضة، كما أنه يمكن أن يشمل كل الذين يرفضون الإسلام. ولو جاء بتعبير آخر لكان عليه أن يعدد فرق هؤلاء الرافضين.

ومن الطبيعى – على كل حال – أن يرى كل دين الآخرين الذين لهم دين آخر كفاراً.. وقد ظفر الإسلام من المسيحية بألقاب "الوثنيين" وما هو أسوا.. وحتى الآن لم يعترف الفاتيكان، ولا أى كنيسة أخرى، بما فى ذلك الكنيسة الأرذوسكية التى تعيش فى حماية الإسلام بالقرآن كوحى سماوى، ولا بالرسول كنبى ورسول..

٣) فى الوقت نفسه فإن الإسلام يلزم المسلمين الإيمان بكل الرسل وكل الديانات..

﴿ولا تُجادِلُوا أَهلَ الْكِتَابِ إِلا بِالتِي هِي أَحسن إِلا الذِين ظَلَموا مِنْهم وقُولُوا آمنا بِالذِي أُنْزِلَ إِلَينَا وأُنْزِلَ إِلَيكُم وإِلَهنَا وإِلَهكُم واحِد ونَحن لَه مسلِمون﴾. {٤٦ العنكبوت}..

﴿قُلْ آمنا بِاللهِ وما أُنْزِلَ علَينَا وما أُنْزِلَ علَى إِبـ راهِيم وإِسماعِيلَ وإِسحاقَ ويعقُوب والأَسباطِ ومـا أُوتِـي موسـى وعِيسى والنبِيون مِن ربهم لا نُفَرقُ بين أَحدٍ مِنْهم ونَحن لَـه مسلِمون﴾. {٨٤ آل عمران}..

٤) وحـدد القـرآن النقطـة الهامـة والحساسـة، وهـى الموقف من الآخر فى عدد كبير من الآيات..

﴿يا أَيها الذِين آمنُوا علَيكُم أَنفُسكُم لا يضركُم من ضـل إِذَا اهتَديتُم إِلَى اللهِ مرجِعكُم جمِيعًا فَينَبئُكُم بِما كُنتُم تَعملُون﴾. {١٠٥ المائدة}..

﴿تِلْك أُمةٌ قَد خَلَتْ لَها ما كَسبتْ ولَكُم مـا كَسـبتُم ولا تُسأَلُون عما كَانُوا يعملُون﴾. {١٣٤ البقرة}..

﴿قُلْ لا تُسأَلُون عما أَجرمنَا ولا نُسأَلُ عما تَعملُـ ون**(٢٥)** قُلْ يجمع بينَنَا ربنَا ثُم يفْتَح بينَنَا بِالْحق وهو الْفَتاح الْعلِـيم﴾. {٢٦ سبأ}..

على أن هذا الموقف "الحيـادى" يتغيـر إذا لـم يبـدأ الآخرون بالعدوان على المسلمين.. فإن الموقف عندئذ يكون البر والقسط.

﴿لا ينْهاكُم الله عن الذِين لَم يقَاتِلُوكُم فِـي الـدين ولَـم يخْرِجوكُم مِن دِيارِكُم أَن تَبروهم وتُقْسِطُوا إِلَيهم إِن الله يحِب الْمقْسِطِين(٨) إِنما ينْهاكُم الله عن الذِين قَـاتَلُوكُم فِـي الـدين وأَخْرجوكُم مِن دِيارِكُم وظَاهروا علَى إِخْراجِكُم أَن تَولـوهم ومن يتَولهم فَأُولَئِك هم الظالِمون﴾. {٩ الممتحنة}..

وإذا كان الرسول يأمر المسلم "صل من قطعك وأحسن إلى من أساء إليك". وأن يفشى السلام على من يعرف ومـن لم يعرف. فإن المشاعر لابد وأن تكون أكثر تعاطفاً مع الذين لا يسيئون المؤمنين.

٥) وتظل النقطة الحساسة: مصير الأديان والفصل بها، والقرآن صريح فى هذه النقطة فهو يكره التفاضل بين الأديان لأن الأمر ليس بالأمانى.. ولكن ا تعالى يفصل فيها يـوم القيامة..

﴿وقَالَتْ الْيهود لَيستْ النصارى علَـى شَـيءٍ وقَالَـتْ النصارى لَيستْ الْيهود علَى شَيءٍ وهم يتْلُون الْكِتَاب كَـذَلِك قَالَ الذِين لا يعلَمون مِثْلَ قَولِهم فَالله يحكُم بينَهم يوم الْقِيامـةِ فِيما كَانُوا فِيهِ يخْتَلِفُون﴾. {١١٣ البقرة}..

﴿إن الذِين آمنُوا والذِين هادوا والصـابِئين والنصـارى والْمجوس والذِين أَشْركُوا إِن الله يفْصِلُ بينَهم يوم الْقِيامةِ إِن الله علَى كُل شَيءٍ شَهيد﴾. {١٧ الحج}..

فهذه الآية لم تستثن ديناً، بما فى ذلك المجوس والـذين أشركوا بل ساوت بينهم جميعاً، وجعلت مصيرهم إلى ا ..

هذه هى الآيات القرآنية الحاكمة فى الموضوع، وهـى تقر التعددية والانفتاح إلى آخر ما يمكن لدين أن يذهب إليه..

وتأتى أقوال الرسول مؤكدة. فقد أقـر حريـة الفكـر والاعتقاد ولم يعاقب أو يتابع عدداً كبيراً ارتدوا فـى حياتـه عن الإسلام بشىء. وأمر أن لا يفتن يهودى عن يهوديته أو مسيحى عن مسيحيته. وتقبل الحكم الإسلامى طوال عهـوده وجود جاليات إسلامية أو يهودية كبيرة العدد فى ظل الحكـم الإسلامى تتمتع بحريتها الدينية كاملة. وتتمتع بحماية الدولـة الإسلامية وإعفائها من التجنيد لقاء دفع مقابـل مـالى هـو "الجزية" حدث هذا فى حين أن النظم الأوروبيـة لا تسـمح بوجود جاليات على غيـر المسـيحية، وأبـادت الجاليـات الإسلامية أو اليهودية، أو أجبرتهم على اعتناق المسـيحية. وكان هذا سياسة عامة وليس حالة فردية.

وبالطبع فإن الإسلام لم يبدع الجزية. فقد كانت موجودة وقد دفعها اليهود والمسيحيون، بما فـيهم السـيد المسـيح، وعندما جاء الإسلام فإنه خفضها وأعفى منها النساء والشيوخ والأطفال والأحبار ورجال الدين.. مما لم يكن مألوفـا مـن قبل.

وقد يسأل سائل.. هـل تـدفع الأقليـات المسـيحية أو اليهودية الجزية فى ظل دولة إسلامية؟ والرد أننـا رفضـنا الدولة الإسلامية، فلم يعد للسوآل معنى فضلاً عن أن الجزية كانت جزءاً من نظام العهد القديم وقد أنطوى العهـد القـديم وأنطوت معه نظم وأوضاع عديدة مثل الغنائم، ومثل الـرق، ويدخل فيها الجزية فهى شىء كان لابد أن يكون موجوداً فى الماضى ولابد أن يكون مرفوضاً، أو منقرضاً – فى الوقـت الحالى – على أن الدولة الإسلامية فى أيام الخلفاء الراشدين تنازلت عن الجزية فى حالات معينة وهى بعد كـل شـىء ليست من العقائد ولكنها من النظم الدنيوية التى تخضع لمـا تخضع له هذه النظم من حكم التطور.

وإذا وجد فى كلام بعض الفقهاء القدامى ما يخالف ذلك، فإنهم إنما كانوا يصدرون أحكامهم عن روح عصرهم وهـو

أمر مفهوم، ولكن الذى لا يفهم أو يبرر أن يأخـذ بأفكـارهم بعض الناس خاصة من الشباب المتحمس المسـتثار، وهـى ظاهرة على خطئها، موجودة لدى كل المؤمنين بالأديان وقد انتقدها القرآن نفسه عندما قال ﴿وإِذَا قِيلَ لَهم اتبِعوا ما أَنزلَ الله قَالُوا بلْ نَتبِع ما أَلْفَينَا علَيهِ آباءنَا أَولَو كَـان آبـاؤُهم لا يعقِلُون شَيئًا ولا يهتَدون﴾. {١٧٠ البقرة}.. فهؤلاء الشـباب من جماعات الجهاد أو الجماعة الإسلامية أو حزب التحرير يخالفون دعوة القرآن مخالفة صـريحة، ويأخـذون بـأقوال بعض الفقهاء فى الزمن الخالى البعيد وبالتـالى فـلا يعتـد بكلامهم.

وقد يسأل سائل أين أذن مكان الإسلام فى هذه الدولـة، فنقول إن الإسلام يسكن فى أعماق كل فرد مسلم بحكم إيمانه واقتناعه. ومجموع هؤلاء الآحاد هو مـا يكـون المجتمـع والأمة. وفى هذا المجتمع والأمة يمكن لكل مسلم أن يطبـق إيمانه على نفسه، وبالتالى ينطبق على الجميع. ويمكن للأمة أن تضغط على الدولة بالوسائل الديمقراطيـة لتطبيـق مـا يريدونه من تطبيق، حتى لقوانين الشريعة، إذا كان ذلك هـو ما أرادته الأمة.

قد يقال ولماذا لا نختصر الطريق، فتقوم الدولة بتطبيق قوانين الشريعة فنقول إن الدولة لا تؤتمن على الشريعة، وأن عنصر السلطة المفسد سيسرى خلال تطبيقها، فضلاً عن أن تطبيق الدولة لا يظفر دائماً بموافقة الناس. ولكن عندما تطبقه الدولة نزولاً على إرادة الأمة، فإنها لا يمكـن أن تتلاعـب وستقف الأمة لها بالمرصاد إذا أساءت التطبيق.

وإذا كان هناك إضافة لكى يقتنع من لا تـزال تسـيطر عليه الفكرة القديمة. نقول إن هذا هو نهج الإسـلام أن يبـدأ إيمان الجماهير ثم يتلوه التطبيق. وأن يكون التطبيق تحقيقـاً لإرادة الشعب وبناء على طلبه، ولـيس أجـراءً تقـوم بـه الحكومة أو الدولة.

الفصل العاشر

الجهاد – الإرهاب[1]

لعدد كبير من العوامـل حـدث خلـط بـين الجهـاد والإرهاب، وسبق هذا الخلط لـبس وسـوء فهـم. للجهـاد والإرهاب كل على حده.

وهذا الخلط واللبس يهيمن علـى المجتمـع الأوربـى/ الأمريكى المعاصر، الآن بما أثارته أحداث ١١ سبتمبر، وما يقع فيه الكثير من الكتاب والمستشرقين.

وهذا ما يفرض علينا أن نتحدث عن الجهاد أولاً. ثـم عن الإرهاب ثانيا. ثم عن العلاقة بينهمـا إذا كـان هنـاك علاقة.

---

(١) لنا تحفظ على التعبير سيأتى فى حينه.

– ١ –

الجهاد

إن كلمة الجهاد لا تعنى لدى الأوروبيين والأمريكيين إلا معنى واحداً هو "الحرب المقدسة"، فى حين إن كلمة جهاد لا تدل على حرب مقدسة أو غير مقدسة، وإنما على بذل الجهد، وقد تستخدم فى مقاومة نوازع الشر أكثر مما تستخدم فى إقامة موجبات الخير وحروف الكلمة وبنيتها اللغوية بعيدة كل البعد عن حروف وبنية كلمة "قتال" أو "حرب".

وفى الإسلام قسمة جهادية لأن الحياة لديه هى مبارزة ما بين الخير والشر ما بين هداية الأنبياء وغواية الشياطين بالصورة التى عرضناها فى فصل سابق. من هنا يفترض فى المؤمن أن يجاهد لدفع نزعات الشياطين ونزوات الهوى ولأن يحيا حياة خيرة تحكمها القيم الطيبة من سلام وصدق وعدل ورحمة الخ... أى أن الجهاد نمط من سلوك يلتزم فيه صاحبه الخير ويبعد عن الشر ويجتنب الأذى.

ولكن حدث لعدد من العوامل قد لا يتسع المجال لشرحها خلاط ما بين هذا السلوك، وبين معنى القتال أو الحرب، ربما لأن الجهاد يجوز تأويله بأنه حرب على الشر. ولم يعد هناك

فرق بين الجهاد وبين القتال أو "الحرب المقدسة" ووقع فـى هذا الخلط عدد من الفقهاء المسلمين بحيث يصعب علينـا أن نلوم المستشرقين لأنهم نهجوا هذا المنهج..

ولكن هذا الخلط لا ينفى الحقيقـة، أن الجهـاد بمعنـاه وبحروفه شىء آخر غير القتال بمعناه وحروفـه. وأن هـذا الخلط إنما هو صورة من صور الانحراف أو التأويل يحدث بتأثير عوامل طارئة..

على كل حال فليس المهم التفرقة اللغوية أو لوم الفقهاء والمستشرقين على هذا الخلط، لأن الواقع أن هناك قتالاً سواء سمى جهاداً أو سمى قتالاً..

وبالفعل، فهناك قتال فى الإسلام، وهناك ذكر كثير لـه فى القرآن الكريم. وهذا يعود إلى أن الدعوة الإسلامية ما أن ظهرت حتى تعرضت لاضطهاد المشركين ومحاولات عديدة لإعادة الذين اسلموا إلى وثنيتهم القديمـة. ولكـن صـمود المؤمنين من ناحية، ثم إفلاتهم من قبضة المشركين فى مكة بالهجرة إلى المدينة نقل عمل المشركين من اضطهاد الأفراد إلى الحرب على الإسلام الذى دانت له المدينة، وأصبح له ما يشبه الدولة فيها، وهذا أمر ما كانت لقريش لتسكت عليه..

وطوال الحقبة المكية وهـى ١٣ سـنة. وقـد صـبر المسلمون على اضطهاد المشركين. ولم يحاولوا أن يقومـوا بعمل مضاد مع أن هذا كان بإمكانهم خاصة بعـد أن أسـلم عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب، وأنهيا فترة الدعوة السرية فى دار الأرقم عندما خرج المسلمون فى صفين يتقدم أحدهما عمر بن الخطاب ويتقدم الثانى حمزة فطافوا بالكعبة ثم عادوا دون أن يتعرض لهم أحد، مع هذا لم يقوموا بـأى صورة من صور الرد – قتلاً أو تخريباً وعندما مر الرسول على عمار وأسرته وهى تعذب قال لهم "صبراً آل ياسـر إن موعدكم الجنة".

وفى هذا المسلك السلبى إزاء الاضطهاد درس للهيئـات التى تمارس صوراً مـن العنـف تعبيـراً عـن رفضـهم ومقاومتهم، لأن الأعمال التى تعبر عـن الـرفض دون أن يكون لأصحابها القوة على الثـورة الناجحـة تأخـذ شـكل ممارسات اغتيال أفراد أو تدمير مبان.. مما لا يـؤثر علـى النظام. بل يجعله يشدد قبضته. فليس من الحكمة فى شـىء ممارستها.

ولكن الصورة اختلفت عندما هـاجر المسـلمون إلـى المدينة وأقاموا بها ما يشبه الدولة وتوفر لهم من القـوة مـا يجعل لمقاومتهم قيمة وأثر وما يجعلهم يقفون أمام المشركين موقف الند فجاء الأذن بالقتال فى الآيتين ٣٩- ٤٠ من سورة الحج، وتضمنت الآيتان شقين: الأول الإيـذان ﴿أُذِن لِلـذِين يقَاتَلُون بِأَنهم ظُلِموا وإِن الله علَى نَصرِهِم لَقَدِير(٣٩) الـذِين أُخْرِجوا مِن دِيارِهِم بِغَير حق إِلا أَن يقُولُـوا ربنَـا اللـه﴾. والشق الثانى يبين حكمة الإسلام فى هذا النوع مـن القتـال الدفاعى ويقول ﴿ولَولا دفْع اللهِ الناس بعضهم بِبعضٍ لَهدمتْ صوامِع وبِيع وصلَواتٌ ومساجِد يذْكَر فِيها اسم اللـهِ كَثِيـرًا ولَينصرن الله من ينصره إِن اللـه لَقَـوِي عزِيـز﴾. {٤٠ الحج}..

وكما هو واضح فالآية الأولى تعلن أن المؤمنين الـذين قاموا المشركون بقتالهم قد ظلموا. وأن ا علـى نصـرهم لقدير وتبرز الآية أن هؤلاء المؤمنين أخرجوا مـن ديـارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا ا . ويقدم الشق الثانى الحكمـة فى "التدافع" ولاحظ أن الآية استخدمت بتعبير التدافع المشتقة من كلمة "الدفاع" ولم تستخدم كلمة "قتال" أو "حرب" أو حتى

صراع مما ينبئ عن الطبيعة الدفاعية للقتال الإسلامى فيؤكد هذا الجزء لولا هذا التدافع لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم ا كثيراً ويأتى بعد الآيتين مباشرة آية تصف المؤمنين ﴿الذِين إِن مكناهم فِي الأرضِ أَقَاموا الصلاةَ وآتَوا الزكَاةَ وأَمروا بِالمعروفِ ونَهوا عن الْمنْكَر ولِلهِ عاقِبةُ﴾. {٤١ الحج}..

إن التسليم بضرورة التدافع هو تسليم بأمر اقتضته طبائع الاجتماع. فما أن تظهر مجموعات من الناس حتى يبدأ التدافع فيما بينها، ثم فى مرحلة لاحقة فيما بينها وبين المجموعات الأخرى. وقد يصل هذا التدافع إلى القتال، كما قد يأخذ شكلاً آخر. ونعتقد أن القرآن الكريم صور الطبيعة الاجتماعية تصويراً لا يتجاهل الواقع، ولكنه يلزمه الاعتدال.. وعدم العدوان.

وفى كتابنا "الجهاد" وهو أحد مراجع دعوة الإحياء الإسلامى، استقصينا كلمة قتال أو حرب فى القرآن الكريم بدءً من الفاتحة حتى سورة الناس أعنى من أوله إلى آخره سورة سورة وآية آية. وفى كل هذه الحالات كان مبرر القتال ﴿وقَاتِلُوهم حتى لا تَكُون فِتْنَةٌ ويكُون الدين كُله﴾. أى حتى لا

يحاول المشركون "فتنة" المؤمنين عن دينهم، أى تحويلهم عنه وإجبارهم على اعتناق الوثنية وأن يترك أمر الدين ، فـلا تدخل فيه السلطات فالقتال هنا هو لدعم حرية العقيدة، وكان موجها ضد فرض العقيدة. أى أنه كـان – سـلباً وإيجابـاً مشروع ومطلوب ولابد منه للإبقاء على الحرية..

حقا إن نبرة بعض الآيات شديدة، وفيها قدر من الحسـم وهذا أمر طبيعى لأن الحرب جد لا هزل، وأى تراخى فيهـا يعنى الهزيمة.. والعار والقتل أيضاً.. وإذا كـان المؤمنـون حريصين على حريتهم فى الاعتقاد وأن يتركوا وما يؤمنون به، وأن يكونوا على استعداد لصد أى حرب تشـن علـيهم لفتنتهم، فلابد أن يأخذوا هذه الحرب مأخذ جـاداً، ولابـد أن يسلكوا ما تفرضه عليهم مقتضيات القتال من شجاعة ومـن قهر للعدو وهزيمته حتى لا يهزمون هم.. وترجمة ذلك عمليا أن يقتلوا الذين يريدون قتلهم، ما من هذا مناص.. وإلا قُتلوا وحقت عليهم الهزيمة..

إن المؤمنين لم يكونوا يحاربون حبا فى الحرب، لقـد كان القتال "كرها" لهم، ولكن القرآن وضح لهم أن عسى أن يكرهوا شيئاً وهو خير لهم. لأن الفتنة أشد من القتـل.. إن

الفتنة هى قتل الضمير فى الإنسان وماذا يكون فى الإنسان إذا قتل ضميره.

وكل الآيات بمعنى واحد ﴿وقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الـذِين يقَاتِلُونَكُم ولا تَعتَدوا﴾. وأقسى ما جاء فى القـرآن أن يقـول "كما يقاتلونكم" ولكنه حتى عندما يذكر ذلك يردفه بالإشـارة إلى الحسنى، وإلى قبول السلم بمجرد أن يبدى العدو إشـارة لذلك.

لم نجد فى القرآن بأسره إلا آية واحدة وقفنا أمامها دون أن نعلم سرها. وهى التى جاءت فى سورة التوبة (آيـة ٢٩) ﴿قَاتِلُوا الذِين لا يؤْمِنُون بِاللهِ ولا بِالْيومِ الآخِرِ ولا يحرمـون ما حرم الله ورسولُه ولا يدِينُون دِين الْحق مِن الذِين أُوتُـوا الْكِتَاب حتى يعطُوا الْجِزيةَ عن يدٍ وهم صاغِرون﴾.

نحن هنا أمام آية جاءت بوصف انفردت به، ولم يـرد فى المصحف بهذا الصدد إلا هذه المرة فضلاً عن أنه إذا فهم أنه ممارسة أو مبدأ، فإنه يخالف ما تضمنته آيات عديدة عما يتبع فى مثل هذا الموقف كما أنه يخالف الوقائع المادية لمـا حدث أيام الرسول والخلفاء الراشدين .

والنص الذى جاء به هذا التعبير، نص نعجز عن التوصل إلى مفهومه الحق، وليس لدينا فى الصحيح الثابت تفسيراً له من الرسول.. فالآية تتحدث عن فئة من أهل الكتاب لا تؤمن با ولا باليوم الآخر ولا تحرم ما حرمه ا ، ورسوله، ولا يدينون دين الحق، ونحن نعرف أن أهل الكتاب سواء كانوا من اليهود أو النصارى يؤمنون با ويؤمنون باليوم الآخر، كما أنهم يحرمون ما حرم ا من قتل أو زنا أو سرقة، ومن ثم فيبدو أن هناك فئة شاذة ينطبق عليها وصف القرآن، ويفترض أن تكون هذه الفئة قد نصبت نفسها لعداوة الإسلام، وأبدت استكباراً تطلب مقاتلتها ودفعها الجزية بشىء من الصغار.

وقد أخذ الرسول الجزية، ولم يصطحب أبداً أخذها بصورة من صور الصغار بل إن الإسلام خفف منها، ورفض أن تؤخذ من الصبيان والنساء والرهبان.

ولا يتفق هذا الحكم مع الوقائع التاريخية الثابتة لأن معالجة الإسلام للممارسات القديمة كانت تتسم بسمة من التقدم سواء فى ذلك الرق، أو المرأة، أو العلاقة بين العامل وصاحب العمل والعلاقة بين الحاكم والمحكوم وكذلك أحكام القتال..

ويؤكد هذا أن الخلفاء الراشدين عندما فرضوا الجزية على الروم لم يقترن ذلك بصغار، بل كان الأهلون شاكرين للمسلمين تسامحهم الذى لم يجدوه من الفرس أو البيزنطيين[1].

وقد يعد من أقسى ما تضمنته سورة براءة إجلاء المشركين عن مكة والمدينة. وقد أمهلتهم الآية أربعة أشهر واستثنت من بينهم من لهم عهد مع المسلمين فيجب على المسلمين أن يتموا عهدهم وهو لا يعد حكما قاسياً إذا نظرنا إلى الضرورات القومية التى أوجبت أن لا يوجد المشركون وهم الأعداء الألداء للإسلام الذين ناصبوه العداوة ويمكن أن يواصلوها. فالأمر لا يمس حرية الاعتقاد أو التعبير ولكن يمس سلامة الدولة، وهى على كل حال المرة الأولى والأخيرة من نوعها فى التاريخ الإسلامى.

ومن الواضح إنه حتى لو لم يأذن القرآن للمسلمين بالحرب فإنهم كانوا لابد وأن يتورطوا فيها لأن قريش ما كانت لتتركهم لقيموا دولة قوية وقد كان همها الأول هو

(١) أن ما جاء فى كتب التفسير، وما نسب بعضه إلى عمر بن الخطاب أو الصحابة هو محض هراء – ومما دس على الإسلام فى تلك الفترة المظلمة التى هبطت فيها قيمة الإنسان – مسلم أو غير مسلم – إلى الحضيض وتعرضت الشعوب لإذلال الحكام .

القضاء على هذا التجمع فى بدايته قبل أن يقـوى، فـالحرب كان لابد أن تقوم فى جميع الحالات فهذه هى سنة المجتمـع. وإذا كانت الولايات المتحدة لـم تطـق أن تتـرك الاتحـاد السوفيتى، وأعلنت عليه كل صنوف الحرب الباردة وأعانت أعداءه فى حربه، مع أن الاتحاد السوفيتى لم يعلـن عليهـا حربا بل كان حليفها فى الحرب العالميـة الثانيـة. فكيـف يتصور أن تترك قريش محمداً والمسـلمين يبنـون دولـتهم ومجتمعهم.

ومما يبرز الطبيعة الدفاعية للجهاد، وأن هذه الحـروب كانت حربا عادلة، كما يصنف البعض الحروب. إن المسلمين وقد استتب لهم الأمر لم يقوموا بحروب وركزوا جهودهم فى البناء السلمى لمجتمعهم ولم يشرعوا الرماح إلا عندما ثارت عليهم القبائل. ورفضت دفع الزكاة والاعتراف بخلافة أبـى بكر وأرادوا التحرر من رابطة الإسلام والالتـزام بدولتـه المركزية. فعادت الحرب مرة أخرى وكانت دفاعية أيضاً.

فى مقابل هذا فإن القرآن وضع المبدأ فى معاملة الـذين لا يحاربون المسلمين أو يخرجونهم من ديارهم، وهو القسط والبر إليهم.

إن الآية (٨ من سورة الممتحنة) هى الآية الحاكمة فى هذا الموضوع. ﴿لا يَنْهَاكُم اللهُ عَن الَذِينَ لَم يُقَـاتِلُوكُم فِـي الدين وَلَم يُخْرِجُوكُم مِن دِيَارِكُم أَن تَبَروهُم وَتُقْسِطُوا إِلَـيهم إِن اللهَ يُحِب الْمُقْسِطِينَ﴾.

* * *

قد يقولون والفتوحات الإسلامية فى عهـد عمـر بـن الخطاب ومن أعقبه والتى استهدفت فارس والروم؟ والرد إن هذه الحرب قامت بعد وفاة الرسول. فلم يأمر بها الرسول ولم يرد لها ذكر فى القرآن. فلا يمكن أن تعد حربـا إسـلامية تحسب على الإسلام. ولم يكن هدفها نشر الإسلام بالقوة كما يظن بعض المستشرقين وقد كان لها على كل حال أسـباب تطلبتها.

ويمكن أن نقول إن هذه الظاهرة تعرض لنا حالة معقدة ومركبة يتلاقى فيها المبدأ بالمبدأ والمثـل الأعلـى بالمثـل الأعلى فمبدأ حرية الاعتقاد هو الأصل والقاعدة، ولكن يحدث فى بعض الحالات أن يظهر مبدأ يتطلبـه التطـور بالنسـبة للظروف الخاصة أو الآنية مثل تحقيق العدل فيجعل التطور الأولوية لمبدأ تحقيق العدل ومقاومة الظلم. ومع أنـه قـد لا

يكون هناك تعارض، ولكن هناك مناطق تماس كما قد يسمح بوجود تعارض مؤقت حتى تنتهى الضرورة التى فرضـته، وهذه كلها ظواهر يفرضها فرضاً التعقيد الاجتماعى.

بالإضافة إلى تلاقى المبادئ، فيغلـب أن يقتـرن هـذا بتلاقى المجتمعات. فيظهر مجتمع شاب فيه كل عناصر القوة والحيوية والفعالية، أشبه بحصان جامح يريد أن ينطلق بينما تظهر بجانبه مجتمعات شائخة، طبقية، تقليدية، فقدت حيويتها منذ عهد بعيد. فى هذه الحالة يكون طبيعياً أن يندفع المجتمع الجديد بكل حيويته، ليكتسح المجتمع الهرم القديم المتهـاوى بالفعل.. لتنتصر المبادئ الجديدة ومجتمعاتها الجديدة علـى المبادئ القديمة ومجتمعاتها الشائخة.

وعندما يحدث هذا فيمكن أن نقول إن هذا الصراع مـا بين مجتمعات شابة قوية لها مبادئ سـليمة مـع مجتمعـات شائخة قديمة لها مبادئ باليه قد يدخل فيمـا يطلقـون عليـه "صراع الحضارات".

والذى حدث أن المجتمع البشرى قبل ظهـور الرسـالة المحمدية كان يتخبط فى إسار حضارات طبقية جائرة تسودها الجهالة والوثنية وقد كان أبرز طـابع لهـذه المجتمعـات –

الفارسية الرومانية – هو استعباد الجماهير والتحكم فيها إمـا بتزييف الرسالات السماوية السابقة التى جاءت لتحريرها، أو بتأليه الملوك والحكام أو بفرض الأصـر والأغـلال علـى الجماهير المحرومة بحيث عجزت هذه الجمـاهير عـن أن تحرر نفسها، وأصبح من الضرورى أن يأتى التحرير مـن جهة خارجية.

لم يكن إلا العرب فى هذا الوقت ليقوموا بهذه الرسـالة ولم يكن إلا الإسلام لتتمثل فيه هذه الرسالة.. وكان لابد مـن تقويض أسس وهيكل النظام الجائر الفاسد الذى يستعبد الناس وإحلال نظام العدالة.. والشورى .

وقد أرسل الرسول خطاباته المشـهورة إلـى كسـرى وقيصر ورفضها هذان بأباء وشمم.

ومن بديهات النظم السياسية إن النظام الحاكم لا يتخلـى طواعية عن سلطاته، خاصة وقد عرض عليـه الإسـلام أو الجزية قد يقال إن هذا يتم عن نظرة دونية، ولكن لا يـرى هذا إلا ممن يكون لديه فكرة مسبقة. لأن الاختلاف لا يتطلب – ضرورة – امتياز أو دونيـة. وعلـى كـل حـال فـإن المجتمعات البشرية ليست مجتمعات ملائكية، ولكنهـا بشـر

ومجتمعاتهم تخضع للضـرورات وللمبـادئ التـى تحكـم المجتمعات.

ومن الخطأ الظن أن الغرض من هذه الحروب كان نشر الإسلام بالسيف. إذ لو كان ذلك لما عصم الكنائس وعصـم الأحبار والرهبان من القتل، بل ولما جاز أن يأخذ المسلمون الجزية ويترك الناس على دينهم إذ إن قبول الجزية كان يعد رشوة لو كان الهدف هو نشر الإسلام.

وقد يرى البعض أن الضريبة الإضافية التى فرضـت على الذين آثروا الاحتفاظ بدينهم، ورفضوا الإيمان بالإسلام "الجزية" تمثل ضغطا يخالف حرية الاعتقاد، ولكن الأمر فى حقيقة الحال عكس ذلك. إذ هى البديل الوحيـد عـن جعـل هؤلاء الناس ينخرطون فى خدمة الحكومة الإسلامية التى لا يؤمنون بها، ولولاها لجاز أن يؤخذوا ليكونوا جنـوداً فـى الجيش الإسلامى وعندئذ يلزمون الدفاع عن عقيدة لا يؤمنون بها. فالجزية هنا تمثل سبيلاً للاحتفاظ بالعقيدة وبـديلاً عـن القسر الذى لم يكن منه مناص نتيجـة للتعقيـد الاجتمـاعى وعمليا فإنها كانت ثمنا زهيداً للحرية، والحماية وكانت هـذه الصفقة رابحة للذين آثروا الاحتفاظ بدينهم أكثر مما كانـت

رابحة للمسلمين. وقد سعد بها أصحابها على حساب المجتمع الإسلامى إلى درجة ساعدت – فيما بعـد – علـى ظهـور "الامتيازات" الأجنبية، وظهور مجتمعـات منفصـلة وشـبه مستقلة داخل المجتمع الإسلامى.

وقد كان نظام الجزية من النظم المقـررة. وقـد دفـع المسيح نفسه الجزية، وكانت لدى الرومان وغيـرهم ثقيلـة وباهظة.

وفى الحقيقة، فإنه لم يكن هناك حـل لهـذه المعادلـة الصعبة سوى ذلك، وقد نجد مثيلاً لها فى حالة رفض بعض العمال الانضمام إلى النقابة، مع تمتعهم فى الوقـت نفسـه، بالمزايا التى تكتسبها النقابة وتسرى على كل العمال، فى هذه الحالة يفرض على العمال الذين لا يريدون الانضـمام إلـى النقابة دفع "رسم انتفاع" ويسمى هذا النظام **Agency Shop** فى الكتابات الأمريكية والجزية الإسلامية هى بدل الانتفاع هذا..

وقد كان الجهاد الإسلامى الأول بكافة المعايير، وعلـى امتداد العصور، مما لا يمكن للمؤرخ النزيه إلا أن يعتـرف أنه كان فتحاً إنسانيا وشعبيا لم يحدث مثله من قبل أو بعـد، وتجربة ثمينة فى تاريخ البشرية بأسرها.. ودليلاً لا يدحض

ولا يقاوم على قوة العقيدة والإيمان والمثل الأعلى ففـى أى تاريخ يمكن أن نجد مثيلا لهذه الجيوش التى خرجت بأسلحة ساذجة، ودون أى تدريب عسكرى سابق، لتكتسح الجيـوش المدربة، والقيادات المحترفة، والإمبراطوريات العريقة.. فى أى تاريخ نجد مثيلا لهؤلاء الجنود الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ولا يعادل شجاعة نفوسهم إلا عفـة سـيوفهم، فـلا يمسون مدنيا أو امرأة ولا يغتصبون المؤن ولكن يشترونها، ويحملون الكتاب والميزان ويقيمون الصلاة. أين من هـؤلاء الجيوش الرومانية التى كان يسير فـى أعقابهـا.. البغايـا، وتجار الرقيق، وتحارب بفكرة اسـتباحة المـدن، وانتهـاك الأعراض والسيطرة والحكم.. أين الفتح الإسلامى الرحيم من الاكتساح الرومانى الغشيم الـذى كـان دأب العـالم وقتئـذ وأورثته روما القديمة أوربا الحديثة.

كان الفتح الإسلامى حياة وعدالة ونوراً وعهداً جديـداً للشعوب والجماهير، المستعبدة، كان أشبه بدفعه قويـة مـن القيم والمعنويات و "الهرمونات" تدفقت فـى عـروق هـذه الجماهير، فأحيتها، وأحيت معها سوريا، والعراق ومصر بعد أن كان الاستبداد الرومانى قد أماتهـا، وأعطتهـا فرصـتها

لتكون قوى مؤثرة فى تاريخ البشرية. كما أوجد فى أسـبانيا حضارة تفخر بها كل العهود.

لقد كان من الممكن أن يمتد هذا لينال الشعوب الأوربية، وكان من الممكن أن ينتشر نور الإسلام ويبدد ظلمات الجهالة الأوربية لو لم ينحسر الفتح الإسلامى عند "بواتيه".

مع هذا – أو بمعنى أصح لهذا – فـنحن نقـول إن تجربة الفتوح الإسلامية فى عهد الخلفاء الراشـدين كانـت تجربة فريدة، شأنها شأن "دولة المدينة" لا يمكن أن تتكـرر ولا يمكن القياس عليها. وقد كانت هزيمة الجيش الإسـلامى عند بواتيه دليلاً على أن التجربة فقدت جدتها ومبرراتها لأن الهزيمة جاءت لحرص البربر الذين كانوا أغلبية الجيش على الغنائم التى أثقلوا أنفسهم بها طوال فتحهم، فدل ذلك على أنهم فقدوا طبيعة الجنود الإسلاميين الذين "يعفون عنـد المغـنم" وأنهم أصبحوا جيوشاً عادية كبقية الجيوش التـى تحـارب عصبية وطاعة، أو احترافاً واغتناماً الخ...

باستثناء الحروب فى عهـد الخلفـاء الراشـدين التـى لوحظت فيها روح الإسلام، فإن الحروب التى أعقبت ذلـك حتى حروب العثمانيين – وهى آخرها – كانت بعيـدة عـن

الفتح الإسلامى. كانت علاقتها بالإسلام هى كعلاقة الصليبيين فى حربهم بالمسيحية. رغم أن البابا أوربان الثانى قال فـى خطبته فى اجتماع كليرمنت "لست أنا الذى أخاطبكم ولكنـه الرب".

والأوروبيون الذين ينتقدون آيات القتال، أو يقولـون إن الإسلام قام على السيف علـيهم أن يتـذكروا تـاريخهم. إن الحروف الدينية شغلت أوروبا قرابة ثمانية قرون وأدت إلى تخريبها ثم امتدت إلى الشرق فى الحروب الصليبية لقـرنين ولا تزال آثار العداوات ما بين المذاهب المختلفة التى كانـت سبب الحروب القديمة محتدمـة فـى الصـراع مـا بـين البروتستنت والكاثوليك فى أيرلندا وغيرها. والحق أن أوروبا هى آخر من يمكن أن يتحـدث عـن قتـال، لأن تاريخهـا مخضب بالدم. وعندما تخلصت من الحروف الدينية داخلهـا ومن الحروب الصليبية أيضاً، فإنها بدأت جولة الاسـتعمار وحرب كل الشعوب الشرقية واحتلال أرضها ونهب ثرواتها وخيراتها بدعوى تحضيرها ونقلها من وثنية الإسـلام إلـى رحمة المسيحية!!.

ومن باب التذكرة والاستئناس نذكر ما جاء فـى العهـد القديم الذى يؤمن به الأوربيون أكثر من الأناجيل، كمـا أن الكنيسة اعترفت به عندما دخل يوشع أريحـا فأنـه تحقيقـاً لإرادة الرب "حرم كل ما فى المدينة من رجل وامرأة مـن طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف وأحرقـوا المدينة بالنار (الإصحاح السادس يوشع أو كما هو فى الكتاب المقدس يشوع). وكذا ما جاء الإصحاح الثالث من سفر يوشع عن إهلاك الرب شعوب الأموريين بحجارة وكيـف هـرب ملوك الأموريين الخمسة ثم استسلموا فـأمر يوشـع قادتـه "صفوا أرجلكم على أعناق هؤلاء الملوك لأنه هكـذا يفعـل الرب بجميع أعدائكم ثم قتلهم من بعد ذلـك وعلقهـم علـى خمس خشبات وبقوا معلقين على الخشب. "سفر ١٠ يشوع".

– ٢ –

أما الإرهاب .

فله قصة أخرى بعيده – من الناحيـة الأصـولية – عـن الجهاد

نقول إن هذا التعبير "الإرهاب" تعبير خـاطئ لأن مـا تقوم به جماعات أو أفراد من أعمال عنف تصل إلى اغتيال أفراد أو تدمير ممتلكات لا يمكن أن يسمى إرهابا، إنه لـيس إلا صورة من الاحتجاج الذى أخذ طابع العنف لأن أبـواب الشرعية قد أغلقت فى وجهه. فهو أبعـد مـا يكـون عـن الإرهاب.. والإرهاب الحقيقى هو ما تقوم بـه الحكومـات والسلطات التى لديها الجيش المحترف والبوليس والسـجون والتى تلوذ بالأحكام العرفية فتسجن من تشاء وتصادر مـن تشاء الخ... وفيما يبدو فإنها ترى هذا من "امتيازاتهـا" وإذا كان تروتسكى هو الذى أصدر كتاباً "دفاعاً عـن الإرهـاب" ليبدأ به إرهاب السوفيت فإن أعمال الحكومات تكون فى كثير من الحالات ممارسات إرهابية.

ومن هنا فإننا لا نستخدم تعبير الإرهاب لندل به علـى ممارسات تماثل أحداث ١١ سبتمبر وإنما تسـتخدم التعبيـر الصحيح "العنف".

والعنف ظاهرة اجتماعية تحدث فى كل المجتمعات التى تحكم بسلطة غاشمة مستبدة تأبى مشاركة الشـعب وتغلـق أبواب حرية الفكر والتعبير. وتعد كل مجموعات المعارضة لها مجموعات غير شرعية. وعندئذ لا تجد هذه المجموعات غير هذه الوسائل غير الشـرعية للإعـراب عـن إرادتهـا ولإثبات وجودها وللحيلولة دون أن تمضى الحكومـات فـى سياستها الغاشمة دون رد..

العنف أشبه "بدمل" ينبئ عن خبث داخل هذا الجسم لـم يعالج، فطفر على السطح فى شكل دمل متقيح كريه الرائحة، أو هو رد فعل سئ لفعل سئ تمارسه الحكومات.

حدثت ممارسات العنف فى كل المجتمعـات الغاشـمة. فظهرت فى روسيا القيصرية عندما أصم القياصـرة آذانهـم ورفضوا الاستماع إلى مطالب المصلحين بتأسيس "دومـا" – أى مجلس نواب. فاضطرت مجموعات مـن أنبـل الشـبان والشابات، ومن أعرق الأسر للقيام بممارسات عنـف قتلـت

فيها المحافظين ورؤساء البوليس ثم توصلت إلى تفجير قطار القيصر وقتله...

لقد تحدث البير كوما فى مسرحيته "العدول" عن هؤلاء "العدميين" أو "النهيلست" وأبرز كيف إن المرشح لإلقاء قنبلة على عربة الدوق الكبير سيرج امتنع عن إلقائها عندما شاهد بجانبه طفلا صغيراً قائلاً لزملائه إنه لا يدفع الظلم بالظلم.. فعبر بذلك عن المشاعر النبيلة التى لا تجدها لـدى جـلادى الدولة الذين يمارسون التعذيب فى سجونها..

وحدثت ممارسات العنف لدى هيئة يظن أنها آخر مـن يلوذ به لأنها هيئة نسائية، فعندما أصمت الحكومة البريطانية آذانها لمدة خمسين عاماً تقريباً على مطالبه النساء إعطائهن حق الانتخاب. اضطرت هيئتهم لسكب أحماض كاويـة فـى صناديق البريد. وإحراق القصور الصيفية لكبـار رجـالات الدولة. ثم ألقت إحداهن نفسها أمام الجواد الفائز فى سـباق الدربى وهو يجرى بأقصى سرعته. فماتت تحت حوافره.

فهذه الممارسات هى رد فعل سيئ لعمل سيئ ولعل أول ظهورها فى الدول الإسلامية فى الحقبة المعاصرة كان فـى سجون عبد الناصر ونتيجـة لتعذيبـه الخسـيس للإخـوان

المسلمين فقد ظهر بين المعتقلين من رأى إن الحكومة التـى تأمر بهذا التعذيب اللاإنسانى ليست حكومـة مسـلمة. إنهـا حكومة كافرة. فظهرت فكـرة "التكفيـر" كنتيجـة طبيعيـة للتعذيب. وعندما أفرج عن أحد ضحاياه أسس الهيئة الأولـى من الهيئات الرافضة التى أطلقت عليها الصـحف "جماعـة التكفير والهجرة" ثم توالت الهيئات باسم "الجماعة الإسلامية" أو "الجهاد" ونجحت فى اغتيال الرئيس السادات.

وقد حملت إحدى هذه الهيئات اسم "الجهاد" متأثرة فـى ذلك بفكر الشهيد سيد قطب عن "الحاكمية الإلهية" وإن هـذه الحاكمية الإلهية هى هدف الإسلام وأن الوسيلة إليـه هـى الجهاد. ويعود تأثر هذه المجموعة إلى الحالة النفسية التـى جعلتها مهيأة لقبولها، والحكم الغشيم لعبد الناصر بالإضـافة إلى بلاغة سيد قطب وحرارة دفاعه، والوهج الـذى تشـعه الفكرة. أما الحقيقة فهى أن الفكرة والأسلوب يضـربان فـى صميم الباطل، وقد ارتفعت صيحة "لا حكم إلا " على أيدى الخوارج الذين أفسدوا على على بن أبى طالب أمره ومكنوا معاوية من الصمود بعد صفين ثم توصلوا إلى اغتيال علـى بن أبى طالب فكان عملهم كله شؤما وانتكاساً للإسلام وإنهاءً

للخلافة الراشدة وبدءً للملك العضوض ثم أن فكرة الجهاد – أى القتال – لتحقيق الحاكمية الإلهية، وإنقاذ شعوب العالم من حكم البشر إلى حكم ا خيال مريض وحلم من أحلام اليقظة.. لا يمكن، ولا يتصور – أن يكون له أساس عملى، وقد تبينت جماعة الجهاد خطأها الفظيع بعد قرابة ثلاثين عاما من الممارسات والمناوشات والسجون والمعتقلات وأعلنت توبتها..

فإذا أريد القضاء على العنف فإن السبيل الوحيد هو الحرية. أعطوا الشعوب حقها فى حكم نفسها والتعبير عن إرادتها وحريتها بتكوين الأحزاب والنقابات تكوينا آخر فى الفكر تنمحى كل صور العنف وتطوى ولا تعد حاجة إليه ما دام من الممكن المطالبة فى ظل الشرعية، وبوسائل مشروعة.إما العلاج بالإرهاب الحكومى وعن طريق رجال الأمن فإنه يزيد الطين بلة، والقضية تعقيداً ويؤدى إلى المزيد من العنف.

ملحق عن دعوة الإحياء الإسلامى

"إيماننا"[1]

- ١ -

نؤمن با   .إنه محور الوجود ورمـز الكمـال والعقـل والغائية .وما ينبثق عنها من قيم، وبدونه يصبح الوجود عبثا، والكون تحت رحمة الصدفة الشرود، والإنسان حيوانا متطوراً أو " سوبر حيوان".

(١) كتب إيماننا فى عام ١٩٩٥ كبيان لمؤسسة فوزية وجمـال البنـا للثقافـة والإعلام الإسلامى" وفى ٣ ديسمبر سنة ١٩٩٧ نشر الأستاذ لطفى الخـولى نص البيان ومذكرة عن المؤسسة كاملاً فى صفحة الرأى (ص٢٥) من جريدة الأهرام تحت عنوان إيماننا: الإعلاء الحقيقى للدين بحماية الإنسان وأعمـال العقل ورفض الإرهاب والتكفير وصدوره بمقدمه جاء فيهـا: جاءنـا البيـان التالى من مؤسسة فوزية وجمال البنا للثقافة والإعلام الإسلامى.. وذلك قبـل وقت قصير من وفاة السيدة فوزية أخيرا، وينشر "الحوار القومى" نص البيان لأهميته على المستويين الفكرى والثقافى، ليس فقط من زاوية الأسـس التـى يقوم عليها من حيث أن الأعلاء الحقيقى للدين مرتبط بحماية كرامة الإنسـان وحقه فى المعرفة وإعمال العقل وإنما أيضا لربط ذلك بحرية الفكر كأسـاس لأى تقدم ينبذ المصادرة والإرهـاب والتكفيـر، وبالعـدل كأسـس للعمـل والعلاقات. وبالتنمية كمعركة حضارية لمواجهة التخلف وبـرفض دعـاوى التكفير والردة.
رحم ا   الأستاذ لطفى الخولى: إن صدأ العقول حال دون أن تظفر محاولتـه بالصدى المطلوب.
ولم نجر فى البيان منذ أن كتب سنة ٩٥ سوى تعديلات طفيفة.

والإيمان با   الذي يكون قوة ملهمة هو ما يغرسـه فـي النفس تصوير القرآن الكريم   تعالى، أما ما يرد فـي كتـب التوحيد فلا يغنى شيئاً، بل قد يضر.

(2)

الأنبياء هم القادة الحقيقيون للبشرية، ويجب جعلهم المثل في القيادة، واطراح أحكام الطاغوت من قادة جيوش أو أباطرة أو ملوك الخ ..وما وضعوه من سياسات القهر التي لوثت فكرة الحكم والقيادة وأساءت إلى البشرية.

والأديان هى الثورات التى حررت للجماهير، ووضعت أسس حضارة تقوم على الحرية، والخير، والعدل والمعرفة.

ونحن نؤمن أن الإسلام قـد قـدم الصـورة المثلـى والرسول .على أننا نفهم الصور التي قدمتها الأديان الأخرى، لأن الدين أصلا واحد، ولكن الشرائع متعددة، ونحـن نـؤمن بالرسل جميعاً، وان ا   تعالى أراد التعدد والتنوع (ولو شـاء ربك لجعل الناس أمة واحدة). وان الفصل في هذا التعدد هـو إلى ا   تعالى يوم القيامة.

(3)

ونؤمن أن الدين هو المقوم الأعظم للمجتمع العربي، وأنه يمثل التاريخ والحضارة والضمير، وأن تجاهله يقطع التواصل

مع الشعب، ولا ينفي هذه الحقيقة أن تكون الفلسـفة والآداب والفنون قد حلت محل الدين في المجتمع الأوربي فلكل مجتمع طبيعته الخاصة وقدره الذي لا يمكن التمرد عليه أو التنكر له، وفي الوقت نفسه – فإن هذا لا يحول يحـول دون أن يكـون للفلسفة والآداب والفنون وجود بجانب الدين ولا يمنـع مـن تلاقح الأفكار وتحاور الحضارات، وتقـارب الـديانات لأن الحكمة ضالة المؤمن.

ونؤمن بكرامة الإنسان، وأن ا تعالى هو الذي أضفاها على بنى آدم جميعا، فلا تملك قوة أن تحرمهم منها، وهي لكل الجنس البشرى من رجال ونساء، بيض وسود أغنياء وفقراء الخ ..وقد رمز القرآن لهذه الكرامة بسـجود الملائكـة لآدم، وتسخير قوى الطبيعة له.

ولما كان الإسلام قد جاوز - كما ونوعـا - الاتفاقيـات الدولية عن حقوق الإنسان، فإن أقل ما يجب أن يتم هو التطبيق الفوري لهذه الاتفاقيات.

(4)

لما كان القرآن قد جعل مبرر سجود الملائكة لآدم هـو تملكه المعرفة التي تميز الإنسان عن بقيه الكائنات، والتي تنقذه من الخرافة، فيفترض أن تكون المعرفة هدفا رئيسيا للمسلمين

وما يتبع هذا من استخدام العقل، وما يثمره من علم وحكمـة .

ويجب على كل نظام إسلامي أن يشيع الثقافة والمعرفة، ويفتح النوافذ عليها، ويهيئ كل السبل التي تيسر للجماهير معـارف ومهارات العصر.

إننا لا نستطيع أن ندخل القرن الواحد والعشرين بأميـة أبجدية.

(5)

نؤمن بحرية الفكر والتعبير، وأنها أساس كل تقدم، وأنه لا يجوز أن يقف في سبيلها شئ، ويكون الرد على مـا يخـالف ثوابت العقيدة بالكلمة لا بالمصادرة أو الإرهـاب أو التكفيـر وليس هناك تعارض بين حرية الفكر المطلقة والدين لأن الدين يقوم على إيمان، ولا إيمان بدون اقتنـاع وإرادة ولا إرادة أو اقتناع إلا في بيئة تسمح بالدراسة الحرة، والإرادة الطوعيـة والنظر الدقيق، وفي القرآن الكريم قرابة مائة آية تقرر حرية العقيدة بصفة مطلقة وان مردها إلى ا نفسه وأنهـا قضـية شخصية لا دخل للنظام العام فيها مثل﴿ لا إِكْراه فِي الدين﴾. ﴿فَمن اهتَدى فَإِنما يهتَدِي لِنَفْسِهِ ومـن ضـل فَإِنمـا يضِـل علَيها﴾. ﴿وقُلْ الْحق مِن ربكُم فَمن شَاء فَلْيؤْمِن ومـن شَـاء فَلْيكْفُر....﴾.

ولا توجد الحرية إلا بتقرير حرية إصـدار الصـحف والمطبوعات وتكوين الأحزاب والهيئات والنقابـات وبقيـة مؤسسات المجتمع، وحرية هذه الهيئات في العمـل لتطبيـق أهدافها ما دام ذلك يتم بطرق سليمة.

ونحن نرفض تماما دعاوى التكفير والعقوبة على الردة، ونكلها إلى ا تعالى يفصل فيها يوم القيامة، كما قرر القرآن ذلك وطبقته ممارسات الرسول.

أما ما قد ينشأ من أخطار، فإن الحريـة نفسـها تفسـح المجال لإصلاحه.

(6)

يجب أن يكون العـدل أسـاس التعامـل بـين الحكـام والمحكومين، الرؤساء والمرؤوسين، الرأسماليين والعمـال، الرجال والنساء الخ ..لأن كل ما يمـت إلـى عـالم العمـل والعلاقات لا يمكن أن يستقر إلا على أساس العدل ولا يجـوز إعطاء فئات ..سلطات تمكنها من أن تحيف على حقوق فئـات أخرى .إن هذا نوع من الظلم يماثل الكفر، ويجب أن لا يسمح به.

وقد يتطلب تحقيق هذا إعادة النظر فى كـل نصـوص الشريعة الخاصة بالدنيويات، فى ضوء تحقيقها للعـدل، لأن

التطورات قد تنفى العلة التى من أجلها سنت بعض الأحكـام فينتفى الحكم كما قد تتطلب تعديلها. ولا يعد هذا انتهاكا لها، ولكن تأكيد قيامها لما سنت من أجله – وهو العدل.

(7)

إن التحدي العملي الذي يجابه الدول الإسلامية اليوم هو التخلف اقتصاديا وعسكريا وسياسيا واجتماعيا، ولا يمكن وقف هذا التخلف إلا بجعل "التنمية" معركة حضارية تتم تحت لواء الإسلام باعتبارها النمط المطلوب من "الجهاد" واستنفار كـل أفراد الشعب للمشاركة فيها من وضع الخطة حتى متابعتهـا وتقييمها .ويجب أن تكون هذه التنمية إنسانية ..تبدأ من محطة العدالة الممكن تحقيقها لتصل إلى محطة الكفايـة المطلـوب تحقيقها، إن الإيمان وحده هو الذي يولد الطاقة المجانية اللازمة ويوظفها لـدفع التنميـة وتجـاوز المعوقـات دون حاجـة للاستثمارات التي تفسح المجال للتبعية والسير في مسار وإسار الدول الكبرى.

وأي محاولة لتنمية تستسلم لادعاءات البنك الدولي أو تقلد النماذج الأوروبية والأمريكية لن تسفر إلا عن مزيد من التخلف والفاقة والتخبط.

وبالمثل فإن أي محاولة لتنمية يضعها خبراء أو حكومات تتسم ببيروقراطية وجمود ودون أن تكون لها الأساس الإيماني والمشاركة الجماهيرية أو تستهدف مصلحة الأقلية على حساب الجماهير العريضة هي تنمية محكوم عليها بالفشل.

(8)

إن الصورة النمطية لشخصية المسلم التي تتسـم عـادة بالسلبية والماضوية والتركيز على الطقوس والشعائر ليسـت صورة المسلم أيام الرسول، ويعود هذا الاختلاف إلى أن قصر مدة الرسالة النبوية والخلافة الراشدة لم تكن كافيـة لتعميـق جذور الشخصية الإسلامية .ثـم جـاء الملـك العضـوض، وتدهورت الخلافة وسد باب الاجتهاد لأكثر من ألـف عـام، وغلبة الجهالة والاستبداد الخ ..وتمخض هذا كله عن الصورة المعروفة اليوم والتي تتقبلها وتبقي عليها المؤسسـة الدينيـة والنظم الحاكمة لأسباب تتعلق بالقصـور ..أو الإبقـاء علـى المصالح المكتسبة.

ونحن نرفض هذه الصورة ونعمل لإحياء إسلامي

(9)

لا يمكن تحقيق أي إحياء إلا بالعودة رأسا إلـى القـرآن الكريم، وإطراح التفاسير وضبط السنة بضوابط القرآن وعدم

التقيد بما وضعه الأسلاف من فنون واجتهـادات ومـذهبيات تأثروا فيها بروح عصرهم وسيادة الجهالة واستبداد الحكـام وصعوبات البحث والدرس، وانعكس هذا على تفاسير القرآن وأحكام الفقه وفنون الحديث وأقحم فيها مفاهيم دخيلة ومناقضة لروح الإسلام.

لقد كان الإسلام أصلا دعوة حضارية وثورة جماهيريـة لإنقاذ الناس من الظلمات إلى النور، وإحلال "الكتاب والميزان" أي المعرفة والعدل محل الجهالة والظلم والطبقية وإشاعة قيم الخير، والعدل، والحرية، والعلم الخ ..التي هي روح الإسلام بينما تكون الطقوس والشعائر جسم الإسلام والاقتصار عليها - دون القيم - هو احتفال بجسم لا روح فيه.

بالنسبة لدعوة الإحياء الإسلامي، فلـيس المهـم الآن تفسير القرآن، ولكن تثوير القرآن ..وهو ما دعا إليه الرسول وطبقه الصحابة، فإنهم لم يعكفوا على تفسير القرآن .وإنمـا هبوا كإعصار ليقوموا بأكبر حركة تغيير في العـالم القـديم ويضعوا أسس الحضارة الإلهية – النبوية – الإنسانية.

(10)

هناك حقيقة تصل إلى مسـتوى البدائـه، وإن أخفتهـا الغشاوات الكثيفة .تلك هي أن على كل جيل أن يعيش عصره

دون الإخلال بالقيم العظمى للإسلام .إن التطور الاجتمـاعي للأمم والشعوب هو كالنمو الجسدي للأفراد لا يمكن أن يقاوم . فضلا عن أنه علامـة صـحة وتطبيـق لعالميـة الإسـلام وموضوعيته وصلاحيته لكل زمان ومكان.

إن الإسلام لا يحتكر - وحده - الحكمة، ولكنه ينشدها أنى وجدها، وهو يتقبل كل الخبرات. كما يقدم خبراته ﴿فَأَما الزبد فَيذْهب جفَاءً وَأَما ما ينفَع الناس فَيمكُثُ فِي الأرضِ﴾. من هنا فإن النزعة الماضوية الانعزالية واتخاذ نمط المجتمع الذي كان موجودا من قبل باعتباره النمط الأمثل، والضيق بكل مستجدات العصر من فنون وآداب، والنظرة المتخلفة للمـرأة وحبسـها وراء الأسوار كل هذا يخالف جـوهر الإسـلام وعالميتـه، وصلاحيته لكل زمان ومكان، كما أنه يخـالف مـا أراده ا تعالى عندما قال ﴿يا أَيها الناس إِنا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَـرٍ وأُنثَـى وجعلْنَاكُم شُعوبًا وقَبائِلَ لِتَعارفُوا إِن أَكْرمكُم عِنْد اللهِ أَتْقَـاكُم إِن الله عَلِيم خَبِير﴾.

وليس هناك خوف من أن يذوب الإنسان في الحضـارة العصرية، لأن خيطا وثيقا يربطه با والرسول يبقى له قدرا من القيم يكبح جماحه ويحول دون انفلاته وذوبانه.

- ٢ -

منشورات دعوة الإحياء ومراجعها

أعلن عن دعوة الإحياء الإسلامى فى خاتمـة الجـزء الثالث من "نحو فقه جديد" عام ٢٠٠٠ وإن كانت قد اختمرت طويلاً قبل ذلك.

وقد اعتبرت دعوة الإحياء أن ظهور الأجزاء الثلاثة من نحو فقه جديد يمثل أهم جزء فى التنظيرى الفكر لها، أعقبـه كتب ومراجع هامة صدرت باسم الإحياء وتعد من مواثيقهـا بحيث تكون.

١- نحو فقه جديد ثلاثة أجزاء.

٢- استراتيجية الدعوة الإسلامية فى القرن الـ ٢١.

٣- مطلبنا الأول: الحرية.

٤- تثوير القرآن.

٥- التعددية فى مجتمع إسلامى.

٦- المرأة المسلمة بين تحريى القرآن وتقييد الفقهاء.

٧- الحجاب.

٨- الإسلام دين وأمة وليس دينا ودولة.

٩- الجهاد.

١٠- موقفنا من العلمانية والقومية والاشتراكية.
١١- تفسير القرآن الكريم بين القدامى والمحدثين.

وهناك كتب ومراجع صدرت قبل ذلك بوقت طويل ما بين ١٩٤٦ وهو تاريخ صدور "ديمقراطية جديدة" الذى تضمن فصلاً هاماً بعنوان "فهم جديد للدين" حتى ظهور أولى كتب الدعوة..

من هذه الكتب :

١- ديمقراطية جديدة.
٢- مسئولية الانحلال بين الشعوب.
٣- والقادة كما يوضحها القرآن الكريم.
٤- روح الإسلام.
٥- ظهور وسقوط جمهورية فايمار.
٦- الأصلان العظيمان. "الكتاب والسنة"
٧- الدعوات الإسلامية المعاصرة "ما لها وما عليها"
٨- الإسلام هو الحل.
٩- الإسلام والعقلانية.
١٠- رسالة إلى الدعوات الإسلامية.
١١- خطابات حسن البنا الشاب إلى أبيه.

١٢- ما بعد الإخوان المسلمين.

١٣- كلا ثم كلا.

١٤- كلا لفقهاء التقليد وكلا لأدعياء التنوير

١٥- مسئولية فشل الدولة الإسلامية في العصر الحديث.

١٦- نظرية العدل فى الفكر الإسلامى والفكر الأوروبى.

١٧- البرنامج الإسلامى.

١٨- خمسة معايير لمصداقية الحكم الإسلامى.

وليست هذه هى كل المراجع، فهناك كتب عديدة أخرى يمكن التعرف عليها بالإطلاع على قائمة مؤلفات جمال البنا.

ومما يستحق الإشارة به أن للأستاذ جمال البنا قرابة ثلاثين كتاباً عن الحركة العمالية والنقابية تعد أثمن ما فى المكتبة العربية مثل التاريخ النقابى المقارن (إنجلترا – أمريكا – الاتحاد السوفيتى) ومثل الحركة العمالية الدولية، والحرية النقابية فى ثلاثة أجزاء فى مجلد، ومثل الحركة العمالية المصرية عبر مائة عام (فى ٧٠٠ صفحة) والمعارضة العمالية فى عهد لينين الخ...

كما سجل تجربته الفذة فى الإصلاح الاجتماعى عنـدما أسس "الجمعية المصرية لرعاية المسجونين وأسـرهم" فـى كتاب خاص.

فقه الإصلاح الديني

بدأت الدعوة الحديثة إلى الإصلاح الديني في الإسـلام مع جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده في أواخر القرن التاسع عشر، أي منذ أكثر من مائة وعشرين عاماً. وكانـت الدعوة في أساسها إن فهم المسلمين لدينهم العظيم قد إنحـط على مر العصور، وتحديداً منذ أقفل باب الاجتهاد في القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي. وأياً كانت الأسباب التـي بررت ذلك، فإن اقفال باب الاجتهاد أدى إلى الجمـود فـي تفسير النصوص القرآنية، واللجوء إلى الأحاديـث النبويـة، التي بدأ تدوينها بعد وفاة الرسول (صلهم) بحـوالي مـائتي عام، أي بعد ثمانية أجيال. ولأنه لم تكن هناك مناهج صارمة لضبط تدوين هذه الأحاديث وتدقيقها، فقد وصل عددها فـي بعض الروايات إلى أكثر من مائة ألف! ويقال أن أصـحاب الحاجات من الحكام في الغالب، ومن المحكـومين أحيانـاً، كانوا يلجأون إلى من يصطنع لهـم مثـل هـذه الأحاديـث

المنسوبة زوراً إلى الرسول، حتى يضفوا شرعية دينية على ما يحقق مآربهم.

ولكن إقفال باب الاجتهاد في أمور الدين سرعان ما انسحب على أمور الدنيا. فتوقف الإبداع والاختراع اللـذان كانا قد جعلا العرب والمسلمين رواد الحضارة الإنسانية في شتى مجالاتها. وقد تنبه رفاعة الطهطاوي، ثم الأفغاني، ثـم عبده، ثم عبد الرحمن الكواكبي وعلي عبـد الـرازق إلـى خطورة هذا الجمود الذي بدأ في أمـور الـدين ثـم عمـت تداعياته المدمرة إلى أمور دنيا المسلمين، فتخلفوا بينما تقـدم غيرهم، شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً.

وكان المصلحون الدينيون المسلمون يبغـون تنقيـة أصول الدين مما علق به طوال عشرة قرون مـن ملوثـات وتشوهات. ولكي يتأكدوا من صلابة الأرض التـي يقفـون عليها في سعيهم هذا، فقد اعتبروا النص القرآني هو الأساس الأول، وربما الوحيد في انطلاقاتهم الاجتهادية. وإمعاناً مـن بعض المصلحين في الحذر، فقد استبعدوا أي مصدر آخـر غير القرآن، حتى أطلق عليهم البعض اسم "القرآنيين".

ولكن دعوة وجهود هؤلاء المصلحين الأوائـل تـم حصارها، وتهميشها بدءاً من الربع الثاني للقرن العشـرين، وذلك بواسطة "المؤسسة الدينية" الرسمية الجامدة من ناحية، والحركات الدينية المتشددة من ناحية أخرى. وبين الغلو فـي الجمود والغلو في التشـدد ضـاعت جمهـرة المسـلمين... وانصرف بعضهم عن الدين وولوا وجههم نحو كل ما هـو "غربي" ينشدون فيه الحداثة والانفتاح والانطلاق. وتخنـدق بعضهم الآخر في آفاق القوالب الجامـدة وانفضـت القلـة المتشددة منهم تعصف وتدمر كل ما يمكن أن تصـل إليـه أيديهم أو قنابلهم في الداخل والخـارج، ووصـل السـخط والغضب ببعضهم إلى الجانب الآخر من المحيط الأطلنطي، حيث اختطفـوا الطـائرات المدنيـة بركابهـا المسـالمين، واستخدموها كصواريخ متفجرة لتدمير مركز التجارة العالمي في نيويورك، ومبنى وزارة الدفاع (البنتاجون) في العاصمة الأمريكية واشنطون، في ٢٠٠١/١١/٩.

وعلى الفور بدأت الولايات المتحدة رد فعلها الكاسح على هذا العبث من المتشددين الـذين اختطفـوا الإسـلام، وأسبغوا عليه رداءاً دموياً، فأساؤوا لدينهم وجلبوا الخـراب

على دنياهم. فقد تعرضت قاعدتهم في أفغانستان للتدمير، وتم احتلال أفغانستان بأكملها. ولم يتوقف رد الفعل الأمريكي عند ذلك. فقد تحرشت بالعراق في العام التالي بدعوى أن قدرتها على إنتاج أسلحة الدمار الشامل، مـع نظامهـا الاسـتبدادي المعادي للولايات المتحدة يمكن أن يؤدي إلى وقـوع هـذه الأسلحة في أيدي الإسلاميين المتطرفين، ثم إلى تهديد أمريكا والغرب من جديد. وتطور التحرش الأمريكي بالعراق إلـى غزوهـا واحتلالهـا، وإسـقاط نظـ ـام صـدام حسـين (٢٠٠٢/٤/٩)، ثم وقوعه هو نفسه أسيراً في أيدي القـوات الأمريكية بعد ذلك بعدة شهور (٢٠٠٣/١٢/١٣) وعلى النحو الذي تابعناه جميعاً ـ بالكلمة والصوت والصورة!.

فهل كانت الولايات المتحدة تضمر سـوءاً للآسـلام والمسلمين، وأنتهزت فرصة هجوم المتطرفين الإسـلاميين، لكي تنفذ مخططاتها التوسعية العدوانية ؟ ربمـا كـان ذلـك صحيحاً، ولو أن هذا الكاتب يستبعده، لأن أمريكا لا تحتـاج إلى مثل هذه المسرحية لخدمة أهدافها الكونية. فهي ليست في حاجة إلى إحتلال أراضي جديدة لهذا الغـرض، حيـث أن أسلحتها تصل إلى كل مكان على وجه المعمورة... كما أنها

ليست في حاجة إلى مثل هذا الاحتلال للسيطرة على مصادر النفط. فالذي يستكشف وينتج، ويسوق، ويوزع هـذا الـنفط ومشتقاته هي شركات أمريكيـة فـي الأسـاس. والسـوق الأمريكية هي المستهلك الرئيسي للنفط العالمي - سواء كان نفطاً عربياً أو أسيوياً أو نيجيرياً.

ولكن كما حدث في العدوان الياباني على ميناء بيرل هاربر الأمريكي (١٩٤٢)، الذي دمرته الطائرات اليابانيـة المغيرة، ومعه الاسطول السابع الأمريكي، وقتلـت حـوالي ثلاثة آلاف أمريكي في يوم واحـد، فقـد كـان رد الفعـل الأمريكي شاملاً. فبعد الصدمة الأولـى عزمـت الولايـات المتحدة لا فقط على هزيمة اليابان عسكرياً، ولكن على تغيير الدولة والمجتمع في اليابان تغييراً شاملاً، بحيـث لا يتكـرر مثل هذا الهجوم المباغت عليها. وهو ما كان خلال السنوات العشر التالية لبيرل هاربر. فقد تم تدمير المؤسسة العسكرية اليابانية، باستخدام سلاح جديد لأول مـرة، وهـو السـلاح النووي، حتى استسلمت اليابان بلا قيد أو شرط، وتم تغييـر النظام التعليمي الياباني بحيث أصبح أقرب إلى النظم الغربية من حيث مقاصده القيمية. وتم تغيير النظام السياسي، فأصبح

نظاماً ديمقراطياً تعددياً. وتم تغيير التربية الدينية اليابانيـة، التي كانت تقدس الإمبراطور، إلى درجة العبادة.

ما علاقة هذا كله بحـديث الإصـلاح الـديني فـي الإسلام؟ هناك أولاً شبهة أن الولايات المتحدة تريد أن تفعل في العراق وأفغانستان، بل وفي البلاد العربية والإسلامية في مطلع القرن الحادي والعشرين مثلما فعلته في اليابان، وإلـى حد ما في ألمانيا، في منتصف القرن العشرين ـ أي إدخـال إصلاحات جوهرية على أنظمتها التربوية والسياسية، بحيث تتحول مجتمعاتنا من قـيم وممارسـات التشـدد إلـى قـيم وممارسات التسـامح، وتتحـول أنظمتنـا السياسـية مـن الممارسات السلطوية الإستبدادية إلى التعددية والديمقراطية.

ربما تريد أمريكا ذلك بالفعل... ولكن السؤال لنا نحـن هو: وماذا نريد نحن لأنفسنا، كعرب ومسلمين؟.

هناك ثلاثة إجابات شائعة على هذا السؤال، يتداولهما المثقفون العرب:

الإجابة الأولى، وهي ما ينطبق عليها، وصـف "فقـه النكاية" وهي تتلخص في رفض كل ما هو عربي عمومـاً، وكل ما هو أمريكي خصوصاً. لذلك فإن كل دعوة للإصلاح

الديني والتربوي، هي دعوة مرفوضة، لشبهة أن أمريكا ربما تكون ورائها، وربما تستفيد منها.

الإجابة الثانية، وهي ما ينطبق عليهـا وصـف "فقـه الغواية" وهي تتلخص في الترحيب والاحتفاء بكل ما يقترحه علينا الغرب المتقدم، لعل وعسى يشملنا هذا التقدم.

والإجابة الثالثة، وهي ما ينطبق عليهـا وصـف "فقـه الهداية"، وهي تتلخص في أن الحكمة هي ضالة المؤمن، وأن علينا أن نهتدي بما فيه مصلحة العباد، بصرف النظر عـن "المصدر"، فالمهم هو "المقصد".

وتسمح الإجابة الثالثة هذه بأن نكون إنتقائيون، نأخذ من أي مصدر ما يعود علينا نحن بالخير والبركات. فالدعوة للإصلاح الديني سابقة للوجـود الأمريكـي فـي العـراق وأفغانستان بقرن وربع قرن على الأقل. فلا يعقل أن نرفض هذه الدعوة الآن، في مطلع القرن الحادي والعشرين، لمجرد أن هناك شبهة في أن أمريكا أو الغـرب تريـد مثـل هـذا الإصلاح.

نفس الشيء ينطبق على الديمقراطيـة. فقـد بـدأت الدعوة للإصلاح السياسي في مصر فـي سـتينيات القـرن

التاسع عشر، في عهد الخديوي إسماعيل، الـذي افتـتح أول برلمـان منتخب في ١٨ نوفمبر ١٨٦٦. بل إن هذا الحـاكم قد كتب إلى أحد أصدقائه في باريس بمزيج من الرومانسـية والواقعية، يقول "يهمك أن تعرف أن الإقبال على الانتخابات كان عظيماً، مع أن حالة الشعب عندنا لم ترتق إلى مستواها في أوربا. وقد أدرك الشعب تمام الإدراك الفوائـد والمزايـا التي تعود عليه في وجود مثل هذا المجلس، ويدرك أن هـذه نعمة عظيمة أولتها الحكومة للشعب. ويقول عامة الناس بأنه من الآن فصاعداً سيصير جميع الموظفين والحكام، صـغاراً وكباراً، ملزمين بالتنازل عن عجـرفتهم، وسـوف يتبعـون طريق الحق والصواب فيما يصدر عنهم من تصرفات". ولم تنقطع منذ ذلك الوقت دعوات المصلحين في المطالبة بمزيد من الديمقراطية.

فلا يعقل والأمر كذلك أن تنكر للإصلاح الـديني أو الإصلاح السياسي لمجرد أن الغرب يطالب بنفس الشئ لنـا ولغيرنا من البلدان التي ما زالت ترزح تحت نير الطغيـان السياسي أو السلفية الدينية الجامدة؟.

إن المفكر الإسلامي الكبير جمال البنا هو أحد حلقات سلسلة المصلحين الدينيين، التي بدأت بالأفغاني وعبده. فهـو على امتداد نصف قرن وهو يجتهد في تطوير الفكر الديني، منطلقاً من منابعه القرآنية الصافية. وفي هذا السعي نشر ما يزيد عن ثلاثين كتاباً، كان أهمها ثلاثة مجلدات بعنوان "نحو فقه جديد" وهي في مجملها تبشر بفكر إسلامي مستنير، يتسق مع العقل، وروح الإسلام السمحة، ومنهجه الوسطي المعتدل. وأهم من هذا وذاك أن هذا الفكر الإسلامي المستنير لا يعادي العلم أو المرأة، أو روح العصر، أو غير المسلمين.

ولكن الذي يميز المفكر جمال البنا عما سبقوه حتـى من المصلحين الإسـلاميين فـي القـرنين التاسـع عشـر والعشرين، هو أن دعوته إلى الإصلاح الديني ترتبط إرتباطاً عضوياً وثيقاً بدعوته للإصلاح السياسي. فهما عنده وجهـان لنفس العملة. فهو داعية للديمقراطية بقدر مـا هـو داعيـة للإسلام. ولا يرى في ذلك تناقضاً أو خصاماً، كمـا أنـه لا يفعل ذلك بمنهج توفيقي أو تلفيقي.

إن محور الربط بين الإصلاح الـديني والإصـلاح السياسي، بين التسامح الديني والتعددية السياسية، هو قيمـة

"الحرية". فالحرية هي المطلب الأول للمؤمن الحق. وللأستاذ جمال البنا كتاب بهذا العنوان. فا   سبحانه وتعالى قد أنـزل في كتابه الكريم "وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر" (الكهف الآية ٢٨) . فإذا كان سبحانه قد أعطى هذا الحق لبني الإنس ان، على الإطلاق، فليس لإنسان آخـر أو لأي نظام وضعي أن يحرمه منها أو يساومه عليها.

فحرية الاعتقاد هي مدخل الأستاذ البنا لكل الحريات الأخرى، وهي المدخل الأصيل لكل حقوق الإنسان الدينيـة والمدنية والسياسية، ولا يكتفي الأستاذ البنا في بنـاء هيكـل فكري متماسك حول الحرية كقيمة أساسية وكمطلب للإصلاح الديني والسياسي. ولكنه يتجاوز ذلك إلى القضـايا الخلافيـة التي شغلت العالم حول الإسـلام فـي السـنوات الأخيـرة، وخاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

فمن ناحية يقر مفكرنا الكبير منذ البداية أن للمسلمين مشكلة حقيقية مع أنفسهم أولاً، ومع غيرهم ثانياً. فقد تخلـف المسلمين بسبب إغلاق باب الاجتهاد، على النحو الذي أشرنا له سابقاً. ولو ظل باب الاجتهاد مفتوحاً، لاسـتطاع فقهـاء الإسلام ومفكريه أن يصلحوا مـن شـأن المسـلمين فكـراً

وممارسة، على نفس النحو الذي حدث به الإصلاح الـديني في المسيحية الغربية، على يدي مارتن لوثر، و جون كالفن، في القرنين السادس عشر والسابع عشر. إن تلـك الحركـة الإصلاحية الأوربية هي التي فتحت بقية الأبواب المرصـدة أمام الاجتهادات العلمية، والاكتشافات الجغرافية، والثـورات السياسية والاقتصادية والصناعية. أي أن تحرير العقل الديني الأوربي كان هو المقدمة لتحرير هذا العقل في كل منـاحي الحياة الأخرى. فانطلقت أوربـا المسـيحية البروتسـتانتية (الاحتجاجية) بسرعة مذهلة خلال القرون الأربعـة التاليـة لتسيطر على الطبيعة وعلى الكون.

ولا يجد المفكر جمال البنا ما يمنع المسـلمين مـن ثورات مماثلة، تبدأ بالإصلاح الـديني وتوأمـه الإصـلاح السياسي - وقد ألح الرجل علينا في مركز ابن خلدون طوال السنوات العشر الأخيرة، منذ إنضمامه لمجلس الأمنـاء، أن نتبنى دعوته، ونشاركه مسعاه. وحينما شرعنا في ذلك فـي منتصف التسعينيات تعرضنا لهجوم ممتد، وصل ذروته فـي عام ٢٠٠٠، حيث تعرض العاملون في المركز من رئيسـه إلى باحثيه للمطاردة والتنكيل، بين المحاكم والسجون. ولكنـا

والحمد وقد برأت أعلى محاكم الديار المصـرية، وهـي محكمة النقض، ساحتنا من كل ما وجه إلينا مـن اتهامـات، نعود إلى استئناف مسيرة الدعوة إلى الإصلاح علـى كـل الجبهات، بداية بالإصلاح الديني، تحت رعاية الأستاذ جمال البنا، الذي يشرف على برنامج طموح في مركز ابن خلدون، يعتبر هذا الكتاب : الإسلام، كمـا تقدمـه دعـوة الاحيـاء الإسلامي، هو فاتحته.

إن برنامج الإصلاح الديني هـو محاولـة لتحريـر الإسلام من قيود المتزمتين الذين حبسوه وحبسوا الأمة معـه في غياهب القرون الوسـطى التـي لا يـدخلها النـور أو الأكسجين. وبنفس القدر لتحرير الدين الحنيف من المتطرفين الذين اختطفوه، ليرهبوا به العالم، ويهـددوا بـه الإنسـانية. والإسلام براءاً من الفريقين.

وبرنامج الإصلاح الديني هو محاولة لتقديم الإسـلام المستنير، لا فقط إلى المسلمين في أوطانهم الأصلية، ولكـن أيضاً إلى ثلاثين مليون مسلم يعيشون في المهجـر - فـي أوربا والأمريكتين وأستراليا. ونحن في سباق مع المتزمتين الذين يصرفون بتزمتهم هؤلاء المهاجرين عن الدين الحنيف،

ومع المتطرفين الذين يريدون بتطرفهم أن يحولوا المسـلمين في المهجر إلى قنابل زمنية موقوتة، ضـد شـعوب الـبلاد المضيفة، كما حدث في ١١ سبتمبر ٢٠٠١

وأخيراً فإن برنامج الإصلاح الديني هـو محاولـة لحوار جاد مع الحضارات الأخرى، أي ما يعني أن أصحاب هذا البرنامج يقدمون لأبنائنا ديناً في الداخل والخارج، هـو الإسلام كما ينبغي أن يكون ـ ديناً وسطاً يؤمن با واليـوم الآخر، وبقيمة الإنسان، وقيم الحرية والديمقراطيـة وتعـدد الأديان والثقافات.

وبهذه المعاني جميعاً فإننا نؤمن أن المسلمين يمكن، وينبغي أن يعودوا إلى تبوأ مكانتهم الرائـدة بـين ديانـات وثقافات وشعوب العالم.

شكراً لأستاذنا الجليل جمال البنا على ما قدمه ويقدمه من مآثر لدينه وأمته وللإنسانية جمعاء.

د. سعد الدين إبراهيم

رئيس مجلس أمناء ابن خلدون

المقطم ـ القاهرة: ٢٠٠٤/١/١

الفهرس